

دكتور محمود الحويري

أسوان
في العصور الوسطى



أسوان فى العصور الوسطى

تأليف

دكتور محمود محمد الحويرى

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب بسوهاج - جامعة جنوب الوادى

طبعة مزيدة ومنقحة

١٩٩٦م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

ÉIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهوارى

د . شوقى عبد القوى حبيب

د . على السيد على

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمى – اسباتس – الهرم – ج.م.ع – تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٨٠م، ونفذت في وقت وجيز لم أكن أتوقع، ومعظم الفضل في ذلك يرجع إلى أهالي الصعيد الأعلى ، وخاصة أهالي محافظة أسوان الذين اجتذبتهم أحداث تاريخهم في العصور الوسطى . وقد وصلتني رسائل من بعض الأساتذة الزملاء والتلاميذ ممن لهم اهتمام بالتاريخ الإسلامي ، وأحمل لهم مودة ومكانة طيبة، فأثنوا على الكتاب ، وكانت لهم بعض الملاحظات والاقتراحات ، أقدرها كل التقدير . كما وصلتني رسائل عديدة من القراء ، علقوا على بعض جوانب ما ورد في الكتاب من روايات ومعلومات، فأرجو لهم الشكر جميعا . والحقيقة التي أود أن أذكر بها القراء ، أن الدراسة التي جاءت بين دفتي هذا الكتاب ، استقيت مادتها من مؤلفات مؤرخين عظام ، قدموا لنا تاريخ مصر الإسلامية بموضوعية مطلقة لايرقى إليها أدنى شك . والتاريخ - كما هو معروف- لايمكن أن يقوم إلا على أساس ثابت من الوثائق ، وهذه الوثائق تشمل الآثار أو المخلفات الخطية أو الروايات أو النقوش ، ومهمة المؤرخ أن يخضع تلك الوثائق للتدقيق والنقد والفحص ، وينبغي أن يكون محايداً ، متحرراً من الميول والأهواء ، بعيداً عن التعصب والتحيز، حتى يصبح حكمه سليما .

وقد تطلبت الطبعة الثانية من هذا الكتاب شيئا قليلا من المراجعة الجديدة ، وتصحيح ما ينبغي تصحيحه من المتن والحواشي ، سواء بالحذف أو بالإضافة ، دون إخلال بالأصل . وسوف يرى القارئ الكريم في صفحات تلك الطبعة عرضا تاريخيا لأسوان في العصور الوسطى ، مستمداً من الحقائق التاريخية ، لا التقاليد الموروثة من سنين طويلة ، وهذا ما توخيت إبرازه في هذا الكتاب . والله الموفق ،

ثكنات المعادي في أغسطس ١٩٩٦م

ربيع الأول ١٤١٧هـ

د. محمود محمد الحويري

مقدمة الطبعة الأولى

ترجع أهمية أسوان فى العصور الوسطى إلى ما تمتعت به من موقع فريد فى آخر حدود مصر الجنوبية . إذ ترتب على وقوف حركة الفتح العربى سنة ٢١هـ (٦٤١م) عندها ، أن غدت مركز الثقل فى مضمار العلاقات - العدائية والسلمية - بين مصر الإسلامية ومملكة النوبة المسيحية . وقد احتاجت دراسة موضوع « أسوان فى العصور الوسطى» إلى معالجة خاصة ، لأنه من المفروض أن يتناول أسوان - بالدراسة - كوحدة متكاملة . وبعبارة أخرى ، فإننى ركزت فى هذه الدراسة على تناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية لتلك المدينة ، بالإضافة إلى تركيبها الاجتماعى . وقسمت هذه الدراسة إلى تمهيد وأربعة فصول ثم الخاتمة .

أما فى التمهيد ، فقد قمت فيه بدراسة الموقع الاستراتيجى الهام لأسوان فى العصور الوسطى ، وتفسير كلمة أسوان عبر التاريخ ، وجغرافيتها - التضاريس والمناخ - وتتبعت تطور النظام الإدارى الإقليمى لها طوال العصور الوسطى .

وأما الفصل الأول ، وهو بعنوان « دور أسوان فى النشاط السياسى» فقد اشتمل على دراسة لدور قبيلة بنى الكنز فى أسوان ، فضلا عن دورها فى الجزء الشمالى من بلاد النوبة بعد أن أقصاها صلاح الدين الأيوبى عن أسوان . ثم كشفت عن أطماع هذه القبيلة ومحاولاتها استعادة نفوذها فى أسوان ، ونجاح هذه المحاولات فى عصر سلاطين المماليك الجراكسة . كذلك عنيت فى هذا الفصل بإبراز العوامل التى دفعت بنى الكنز للعودة إلى أسوان .

وكان من المتوقع أن يقع الصدام بين مصر الإسلامية ومملكة النوبة المسيحية ، فتعرضت أسوان - بحكم موقعها - لإغارات تلك المملكة . وإذا كانت السلطة المركزية فى مصر قد نجحت فى صد إغارات النوبة ، إلا أن ذلك النجاح كان مؤقتا ، تعود بعدها أسوان إلى تلقى الضربات من جديد . واستمر الوضع على ذلك ، حتى اعتلى السلطان الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقى لدولة المماليك البحرية سنة ١٢٦٠ ، فجرد حملة إلى بلاد النوبة استطاعت فتحها ، وضم الجزء الشمالى منها لمصر .

ولم تتعرض أسوان لغارات من جانب النوبة فحسب ، بل تعرضت أيضا لغارات شعوب البجة فى صحراء مصر الشرقية . وقد نجحت الحملات التى أرسلها ولاة مصر فى إخضاع تلك الشعوب . ومن العوامل الهامة التى ساهمت فى إبعاد خطر البجة عن أسوان ، تسرب القبائل العربية إلى أوطانهم سعيا وراء المعادن النفيسة ، ثم اندماجهم فى الأهالى .

ونظرا لبعد أسوان وتطرفها عن العاصمة ، فقد كانت ملاذاً للفارين من الظلم والطغيان ، كما أنهم استخدموها معبراً إلى بلاد النوبة والصحراء الشرقية . وفى عصر دولة المماليك البحرية غدت أسوان منفى للشخصيات المغضوب عليها .

ثم خصصت الفصل الثانى لدراسة الأهمية الاقتصادية لأسوان ، فعالجت فيه جميع أوجه النشاط الاقتصادى لأسوان . وفى هذا المجال يبرز - بصفة خاصة - النشاط التجارى لتلك المدينة ، إذ كانت - بحكم موقعها - أحد المنافذ الخارجية لتجارة مصر فى العصور الوسطى ، ومحطة لطرق القوافل ، مما جعلها سوقا هائلة للتجارة الصادرة والواردة . وقد تناولت فى هذا الفصل أنواع السلع التجارية التى كانت تجلب إلى أسوان ، ومن أهمها سلعة الرقيق الأسود الذى اشتدت الحاجة إليه فى العالم الإسلامى . كما عالجت الأسباب التى أدت إلى تدهور المكانة الاقتصادية لأسوان فى العصور الوسطى ، فمن أهمها ضعف سلاطين المماليك الجراكسة ، ومزاولتهم سياسة الاحتكار التجارى . كما أن من بينها أيضا ثورات العربان - لاسيما فى الصعيد الأعلى - التى تسببت فى قطع طرق التجارة ، ونهب القوافل التجارية المارة بها .

أما الفصل الثالث ، وهو بعنوان « الأهمية الثقافية والدينية لأسوان » فقد اشتمل على دراسة للحياة العلمية والدينية والأدبية فى أسوان . إذ نبغ من أبنائها نخبة ممتازة فى شتى فنون العلم التى كانت سائدة فى مصر العصور الوسطى . وأوضحت أن الحياة الأدبية فى أسوان تميزت بخصوصيتها ، خاصة فن الشعر الذى تعرضت عند التحدث عنه لأشهر شعراء أسوان ، والتعرف بشعرهم ، وعالجت فى هذا الفصل دور أسوان كأحد المعابر الرئيسية فى نشر الإسلام والثقافة العربية فى بلاد النوبة والسودان والصحراء الشرقية .

وفى الفصل الرابع والأخير ، وهو بعنوان « البناء الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى» كشفت عن العناصر العديدة التى تتابعت هجرتها إلى أسوان . ومن أبرز تلك العناصر القبائل العربية بفرعيها قحطان وعدنان . وقد أدى اختلاط الدماء العربية بشعوب البجة فى الصحراء

الشرقية إلى ظهور سلالات جديدة مثل العبابدة والبشارية . وفى أواخر العصور الوسطى احتوت أسوان عناصر سكانية جديدة كالأتراك والمماليك والمهاجرين من أهل الأندلس ممن شردهم المسيحيون . وقد اعتمدت فى كتابة هذا الفصل على شواهد القبور التى أسفرت عنها جبانة أسوان ، إذ نقش على شاهد القبر اسم المتوفى والقبيلة التى ينتسب إليها وتاريخ الوفاة . وقد خرجت من ذلك بحقيقة واضحة فحواها أن القبائل العربية كانت تمثل قمة الهرم الاجتماعى فى أسوان ، بالإضافة إلى أنها أورثت أسوان الشكل القبلى ، الأمر الذى لازال موجوداً حتى وقتنا الحالى . ولما كنت من أبناء أسوان ، فقد شاهدت بنفسى سلالة العناصر السكانية التى كانت تقطن أسوان وقراها فى العصور الوسطى ، كما أخذت من أفواه الرواة صورة واضحة عنها أبرزتها – قدر استطاعتى – فى ثنايا هذا الفصل .

وأخيراً ، فإننى اختتمت البحث بدراسة خاصة عن أهم المصادر والمراجع التى اعتمدت عليها ، وأرجو بذلك أن أكون قد وفقت فى إلقاء أضواء جديدة على تاريخ أسوان والدور الذى نهضت به طوال العصور الوسطى .

ولايسعنى فى هذه المناسبة سوى أن أتقدم بخالص شكرى وعظيم تقديرى لأستاذى العالم الجليل الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، الذى أمدنى بملاحظات وتوجيهات قيمة ، أنارت لى الطريق خلال إعداد هذه الرسالة ، ولن أنسى ما حييت ما حبانى به من رعاية ، وما شملنى به من عناية ، علاوة على أن سيادته ذلل المصاعب الشخصية التى اعترضتنى .

كما أتوجه بشكرى الوافر للأستاذ الدكتور محمد صفى الدين أبو العز والأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، لاقتطاعهما جزءاً ثمينا من وقتهما ، وتفضلهما بمناقشة هذه الرسالة.

وفى النهاية لايفوتنى أن أتقدم بشكرى الوافر للأستاذ العالم عبد الرحمن عبد التواب مدير عام الآثار الإسلامية والقبطية سابقا ، الذى سمح لى بالاطلاع على مسودات الحفائر التى قام بها فى جبانة أسوان ، كان لها أثر كبير فى كتابة الفصل الرابع .

والله أرجو أن يوفقنا جميعا لما فيه خير أمتنا العربية ،

القاهرة فى يناير ١٩٨٠م

صفر ١٤٠٠هـ

محمود محمد الحويرى

دراسة تحليلية عن أهم المصادر والمراجع

لايخفى على باحث التاريخ أن علاج أى موضوع سياسى أو حضارى لمدينة مثل أسوان يختلف عنه لمدينة أخرى مثل الفسطاط أو القاهرة ، وهما عاصمتا مصر فى العصور الوسطى . ففى العاصمة تتركز الحكومات والجيوش ، ومن السهل على أى مؤرخ عاش بالقرب من الأحداث ، أن يدون ما شاهده أو سمع عنه ، ثم يأتى من بعده من ينقل عنه - النص أو مضمونه - كما هو الحال فى معظم المراجع التاريخية التى تركها لنا مؤرخو العصور الوسطى . أما بالنسبة لأسوان ، فإن مهمتى كانت صعبة ، ومنشأ الصعوبة أن مدينة أسوان تبعد عن عاصمة مصر بحوالى ألف كيلو متر . فضلا عن أن المصادر التاريخية لم تتعرض بشكل مباشر للأحداث التى مرت على تلك المدينة ، إلا عندما تمس تلك الأحداث نفوذ السلطة المركزية فى مصر . ولذا تطلب منى الأمر قراءة كثير من المصادر والمراجع بكافة أجزائها ، علّنى أصادف إشارة تمس موضوع البحث من قريب أو بعيد . وكانت المادة التى عثرت عليها ، ليست إلا شذرات مبعثرة فى بطون المراجع ، لاتشفى - فى معظم الأحيان - غلة الباحث .

على أنه هناك بالرغم من ذلك عدد لابأس به من المصادر الأصلية استفدت منها فائدة كبيرة أهمها ما كتبه ابن عبد الحكم ، والمسعودى ، وناصر خسرو ، وعماد الدين الأصفهانى ، والأدفوى ، والقلقشندى ، والمقريزى .

فإن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧هـ (٨٧٠-٨٧١م) أمدنا كتابه « فتوح مصر والمغرب» بأحداث الفتح العربى لمصر والقبائل العربية التى ساهمت فى الفتح . كما أمدنى بأحداث الحملات الأولى التى أرسلها ولاة مصر إلى النوبة عقب الفتح .

أما المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦هـ (٩٥٦م) ، فقد اعتمدت على كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر» عندما تناولت بالدراسة شعوب البجة فى الصحراء الشرقية ، والبناء الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى .

أما الرحالة الفارسى ناصر خسرو المتوفى سنة ٤٨١هـ (١٠٠٨م) ، فقد قام برحلته بين ٤٣٧ هـ و ٤٤٤هـ ابتدأها من مرو فى خراسان ، ماراً بأذربيجان وأرمينية والشام وفلسطين ومصر والحجاز ونجد وجنوبى العراق ، ثم عاد إلى إيران . ومكث فى أسوان ٢١ يوما قبل

توجهه لأداء فريضة الحج عبر الصحراء الشرقية إلى عيذاب ومن ثم إلى مكة . وروى تفاصيل تلك الرحلة فى كتابه « سفر نامة » . وبالرغم من صغر حجم ذلك الكتاب ، إلا أنه ضم معلومات عن أسوان على قدر كبير من الأهمية ، إذ يعد ناصر خسرو المؤرخ الوحيد الذى ذكر أن تجار أسوان كانوا يتوجهون بسلعهم إلى بلاد النوبة ، ثم يعودون بما تشتهر به تلك البلاد من سلع ومحاصيل . ولاريب أن ما ذكره ناصر خسرو - وهو شاهد عيان - بمثابة تصحيح لبعض الآراء التى تقلل من قيمة العرب كأهل تجارة . كما أن سفر نامة يعتبر أول مصدر يصف لنا وصفا شائقا طريق الحج من أسوان إلى عيذاب ، فقد وصف مصاعب الطريق ، وندرة المياه به . وجاء بعده أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٧م) فوصف ذلك الطريق أيضا - إبان عودته من عيذاب إلى أسوان - فى كتابه « الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية » .

وثمة مصدر هام تعرض للكلام عن شعراء أسوان ، وهو كتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » ألفه العماد الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠١م) . وقد اعتمدنا عليه فى بحث الحياة الأدبية فى أسوان ، فأورد لنا كثيراً من القصائد التى نظمها الشعراء الأسوانيون فى جميع الأغراض . ومما يؤخذ على العماد أنه تعمد إهمال سرد القصائد التى قالها شعراء أسوان فى مدح بنى الكنز . ولما كان العماد من أقرب المقربين إلى صلاح الدين ، فليس من المستبعد عليه ذلك الأمر ، خاصة إذا علمنا أن بنى الكنز قاموا بثورة عنيفة ضد الأيوبيين إبان تأسيس دولتهم فى مصر ، وبذلك أعطانا العماد صورة واضحة عن تحيزه وقد كان من الممكن أن نستخلص من القصائد التى قيلت فى مدح بنى الكنز بعض المعلومات التى تفيد البحث .

أما عن الإدفوى المتوفى سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) فيعتبر كتابه «الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد » ، من المصادر الهامة التى اعتمدت عليها . وليس من المبالغة أن يقال إنه لاغنى للباحث فى تاريخ صعيد مصر الأعلى فى العصور الوسطى عن ذلك المصدر . فقد ضم تراجم واضحة وافية لعلماء الصعيد ، خرجنا منها بمادة وافية عن الحياة العلمية والدينية والأدبية فى أسوان .

ومن المصادر الهامة كتاب « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » للقلقشندى المتوفى سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) . ولا ريب أن ذلك الكتاب يعتبر أكبر موسوعة ضمت بين دفتيها جميع

النظم الحضارية التى تهم باحث التاريخ فى العصور الوسطى . وقد أفادنا هذا الكتاب فى بحث موضوع تطور النظام الإدارى ، ونظام البريد لأسوان . بالإضافة إلى أنه ألقى الضوء على القبائل العربية التى سكنت صعيد مصر فى العصور الوسطى .

على أنه لايمكن التحدث عن مصادر البحث دون ذكر المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) . فكتابه « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» أعاننى فى كثير من النقاط التى تعرض لها البحث ، لاسيما فيما يتعلق بالعلاقات بين مصر والنوبة ، وغارات البجة على مصر ، والقبائل العربية التى هبطت أرض مصر وقت الفتح . وقد خدم المقريزى التاريخ خدمة عظيمة بإثباته لكثير من النصوص التى فقدت مصادرها الأصلية ، ككتاب « أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل» لمؤلفه عبد الله بن سليم الأسواني . والفقرات التى أوردها المقريزى من ذلك الكتاب أفادتنا فى معرفة أحوالى النوبة فى العصور الوسطى . أما كتاب «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب» فقد استفدت منه فى بحث القبائل العربية التى وفدت إلى مصر على مر العصور الوسطى . وهو لم يكتف بالتحدث عن بطونها وفروعها فحسب ، بل أورد شيئا من تاريخها ، ومن الأمثلة على ذلك قبيلة ربيعة التى سكنت أسوان فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . أما كتاب « السلوك لمعرفة دولك الملوك» فهو كتاب مخطوط حققه الدكتور محمد مصطفى زيادة حتى نهاية عام ٧٥٥هـ (١٣٧٣م) ، وحقق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور بقية الكتاب . وتتضح أهمية هذا الكتاب - بالنسبة للبحث- فى أنه رسم صورة صادقة وافية لحالة الفوضى السياسية والاقتصادية للصعيد بسبب ضعف سلاطين المماليك الجراكسة من جهة ، وعبث العربان وفسادهم من جهة أخرى . وهناك كتاب مخطوط آخر للمقريزى وهو المقفى ، حقق نماذج منه دكتور خليل محمود عساكر ودكتور مصطفى محمد مسعد ، وحققه كاملا محمد اليعلاوى . وقد أمدنى هذا الكتاب بمعلومات قيمة تتعلق بالأحداث التى ألمت بالقبائل العربية فى بلاد البجة . كما أمدنى بأحداث الحروب التى نشبت بين عبد الرحمن العمرى وبين النوبة والبجة ، وما ترتب على ذلك من نشر العروبة فى تلك البلاد .

ومن المراجع الحديثة التى اعتمدت عليها كتاب « رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان» الذى ترجمه إلى اللغة العربية فؤاد أندراوس . فاستفدت منه عند بحث طرق التجارة المتفرعة من أسوان إلى بلاد السودان والصحراء الشرقية فى العصور الوسطى .

بالإضافة إلى ذلك السلع التى ترد من السودان إلى مصر . وعلى أية حال ، فإن هذا الكتاب لاغنى عنه لباحث التاريخ عند دراسة أي موضوع يخص بلاد السودان .

هذا فضلا عن عدد آخر كبير من المراجع العربية الحديثة التى ذكرناها فى قائمة المصادر والمراجع فى نهاية البحث .

ومن المراجع الأجنبية التى اعتمدت عليها كتاب :

Catalogue general du Musèe Arabe du Caire . Steles Funeraires .

وقد ضم ذلك الكتاب شواهد القبور التى أسفرت عنها الحفريات فى مدن مصر الإسلامية لاسيما الفسطاط وأسوان . ولاريب أنى أفدت من هذا الكتاب خير إفادة ، حينما تناولت وصف البناء الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطي . فقد جاءت على شواهد القبور نقوش بالخط الكوفى موضح بها اسم المتوفى ، والقبيلة التى ينتمى إليها ، والسنة التى توفى فيها. وهناك حفريات فى جبانة أسوان قام بها الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب فى المدة من ديسمبر سنة ١٩٦٠م حتى منتصف سنة ١٩٦٣م ، أسفرت عن اكتشاف العديد من شواهد القبور فى أسوان ، ساعدتنى - أيضا - نقوشها فى دراسة العناصر السكانية التى تألفت منها أسوان . وقد طبع من تلك الشواهد ثلاثة أجزاء بعنوان :

Steles Islamiques de la necropole d`Assouan , pupliées par Abd Al- Rahman M. Abd Al - Tawab , revision et annotation de Solange Ory .

وثمة مراجع أخرى تتمثل فى المجلات الدورية التى تصدر باللغات الأوربية ، استفدت منها فى ثنايا البحث ، وأخص بالذكر مجموعة Sudan Notes and Records . وإذا كان من المعروف أن تلك المجموعة تقتصر على تاريخ السودان ، إلا أنها كانت من المراجع التى خدمت البحث ، ولاعجب فالصلة وثيقة بين أسوان والسودان ، فالأولى حلقة الوصل بين مصر والسودان .

وأخيرا ، فإن هناك كتاب :

Klunzinger : Upper Egypt : its people and its products .

أفادنى فى بحث تجارة العبيد ، وكيفية صيدهم ، والظروف التى تحيط بهم منذ أن وقعوا فريسة فى أيدى صائدى الرقيق حتى يباعوا فى أسواق مصر والعالم الإسلامى .

تمهيد

تمتعت مصر منذ فجر التاريخ بخصائص جغرافية هامة ، فهى تنقسم من الناحية الطبيعية إلى قسمين رئيسيين هما الوجه البحرى أو أسفل الأرض أو مصر السفلى أو الريف ، والوجه القبلى أو أعلى الأرض أو الصعيد[1] . والصعيد فى اللغة هو الأرض المرتفعة ، وكان العرب هم أول من أطلقوا على جنوب مصر اسم الصعيد [2]. ويمتد الوجه القبلى على ضفاف النيل من جنوب القاهرة إلى آخر حدود مصر الجنوبية المتمثلة فى أسوان . كما ينقسم الصعيد بدوره إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول الصعيد الأسفل ، ويشمل الآن محافظات الجيزة والفيوم وبنى سويف ، والقسم الثانى هو الصعيد الأوسط ، ويشمل محافظات المنيا وأسيوط وسوهاج ، والقسم الثالث هو الصعيد الأعلى ، ويشمل محافظتى قنا وأسوان [3].

أما أسوان فتقع على دائرة عرض ٢٤ درجة شمالا ، وعلى خط طول ٣٢ درجة شرقا على الشاطئ الشرقى للنيل ، وهى تواجه جزيرة إلفانتين (جزيرة أسوان الحالية) أسفل الشلال الأول، وتبلغ مساحتها ثلاثة كيلومترات مربعة ، كما أنها تبعد عن القاهرة بمسافة تبلغ حوالى ٨٧٩ كيلو مترا [4]. ولم يكن مكان مدينة أسوان فى العصور الوسطى هو مكانها الحالى ، بل كانت تشغل الجنوب الغربى من محلها الآن [5]، على ربوة عالية .

أما لماذا عرفت مدينة أسوان بذلك الإسم الذى تحمله ، وكيف اكتسبته وصار اسمًا شائعا لها فى العصور الوسطى والحديثة، فإن المؤرخ المقريزى[6] حاول تفسير اسم أسوان على أساس لغوى ، فقال : « أسوان من قولهم أسى الرجل يأسى أسى إذا حزن ، ورجل أسيان وأسوان ،

١- محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الأول ص٢٨ .

٢- المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ١ ص١٨٨ .

٣- أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ١ ص٤٣ (تعليق محمد رمزى) .

٤- دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أسوان .

٥- على مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ٨ ص٦٤ .

٦- الخطط ، جـ١ ص١٩٦ ؛ سعاد ماهر : محافظات الجمهورية فى العصر الإسلامى ، ص٨١ .

أى حزين » . ولكننا نرى أن هذا التفسير الذى أتى به المقريزى لاسم أسوان غير معقول ، إذ الواقع أنها اكتسبت اسمها من شهرتها التجارية بوصفها كانت مركزاً هاما للتجارة بين مصر والسودان . ففى العصر الفرعونى أطلق عليها اسم «سونو» Sounou بمعنى السوق [١]. أما الإغريق فقد عرفوها باسم «سيينى» Syene [٢]. وقد ذكرت سيينى مرتين باسم «سيينه» فى أوراق البردى التى اكتشفت فى جزيرة الفانتين ، وترجع إلى عهد الملكين الفارسين ارتكازركزيس وداريوس الثانى (٤٦٤-٤٠٤ ق.م) [٣]. كما جاء ذكر أسوان فى الوثائق القبطية باسم «سوان» Sauan [٤]، إلى أن جاء العرب إلى مصر فى القرن السابع الميلادى ، ونطقوا الاسم محرفا أسوان ، بضم الهمزة [٥]، والشائع نطقها الآن بفتح الهمزة .

وترتفع أسوان حوالى ٨٥ متراً فوق سطح البحر ، وتنقسم من ناحية التضاريس إلى ثلاثة أقسام : الجزء السهلى من المدينة وهو يمثل الجزء الذى يطل على النيل ، وهو ضيق الرقعة فى الجنوب ويتسع كلما اتجهنا شمالا ، والجزء المتوسط الارتفاع وهو ربوة عالية تمثل أسوان القديمة والتى أخذت تتسع غربا وشمالا ، وأخيراً المنطقة الصحراوية التى تمتد شرق أسوان . وقد أثر عامل التضاريس فى نمو المدينة ، فأخذت شكلا طوليا شريطيا فرضه موقعها فى الوادى الضيق الذى كونه النيل[٦]. ويتميز الجزء السهلى - أو السهل الفيضى - بضيقه واختناقه عند أسوان ، إذ لايزيد فى بعض أجزائه على ٢٨٠٠ مترا ، فى حين أنه يصل عند بنى سويف إلى ١٧٢٠٠ مترا . وبالرغم من أن محافظة أسوان تمتد من الجنوب إلى الشمال فى مسافة تبلغ نحو ثلث طول وادى النيل ، إلا أنها تأتى فى المرتبة الأخيرة بين المحافظات المصرية من حيث مساحة سهلها الفيضى ، وذلك لاختناق أرضها وانحصارها بين حافات مرتفعة من الصخور الرملية [٧].

١- سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص٨١ .

٢- وهيب كامل : استرابون مصر ، ص١١٦ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أسوان ؛
Oxford Classical Dictionary , p. 870 .

3- Ency - Brit ., Art. Aswan .

4- Amelineau , la Geographie de l'Egypte a' l'Epoque Copte , p. 467 .

٥- ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ١ ص٢٤٨؛ الأدفوى:الطالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد، ص٤٨

٦- محافظة أسوان (كتيب أصدرته وزارة الإرشاد القومى) .

٧- محمد صفى الدين أبو العز : مرفولوجية الأراضى المصرية ، ص٣ .

ونهر النيل عند أسوان يجرى فى واد ضيق ، وينحصر بين حافتين مرتفعتين من الصخور الرملية النوبية ، إذ أن الوادى تحصره الهضبتين الصحراويتين ويكاد أن يختنق على ضفتى النهـر[١]. أما فى جنوب أسوان بحوالى سبعة كيلو مترات ، فإن النهر يعترضه الجندل الأول (الشلال الأول) الذى يمثل العقبة الأخيرة التى تعترض النهر أثناء جريانه إلى البحر المتوسط ، ويبلغ طوله من الجنوب إلى الشمـال ١٢ كيلو متر ، وتمتد منطقة الجندل الأول عند الطرف الجنوبى لجزيرة هيسا أكبر الجزر النارية التى تنتشر فى تلك المنطقة . وإلى الشمال من منطقة الجندل تظهر فى النهر بعض الجزر النائية الكبيرة الحجم تقسم مجراه إلى قسمين أو أكثر ، وأشهر هذه الجزر جزيرة أسوان[٢] التى تقع فى وسط النيل تجاه مدينة أسوان . وقد تعودنا أن نسمى اندفاع النهر عند منطقة الجندل الأول بشلال أسوان الأول مع ما فى هذه التسـمية من التجاوز ، الذى يتخطى اللغة العربية إلى اللغات الأوربية ، فهى بالانجليزية تسمى Cataract ، بينما لا يوجد فى حقيقة الأمر مساقط للماء فى أى موضع جنوب أسوان ، وإنما هو موضع من النهر يشتد فيه انحدار مياهه ويعترضه الصخور والجنادل ، لتصنع عقبة فى مجرى النهر لا أكثر [٣]. وانحدار نهر النيل فى مجراه من أسوان إلى البحر المتوسط فى غاية الاعتدال ، ولو أن الإنسان الذى سكن وادى النيل قدر له أن يتمنى حالة خاصة لانحدار النيل فى مصر لما تمنى خيراً منها ، فلا النهر سريع الانحدار جدا ، مما يؤدى إلى إعاقة للملاحة ، ولا هو بطئ جداً ، مما يؤدى إلى تكوين المستنقعات . وساعد اعتدال سريان النهر فى مجراه على ازدهار الحـضارة على ضـفتى النيل ، فـضـلا عن تحـقيق الاتصـال الآمن بين شمـال الوادى وجنوبه[٤].

أما مناخ أسوان فإنه يدخل ضمن الإقليم الصحراوى الذى يمتد من المنيا حتى أسوان ، وهذا الإقليم يمثل منطقة الجفاف التام التى لاينزل فيها شئ من المطر إلا فى القليل الشاذ النادر ، وإذا سقط المطر فيه فإنه يعد من الأعاجيب ، وفى أغلب الأوقات تمر السنوات دون أن تجود

١- المرجع السابق ، ص١٥٥ .

٢- المرجع السابق ، ص١٦٩ .

٣- محمد عوض محمد : نهر النيل ، ص١١٦ - ١٧٧ .

٤- المرجع السابق ، ص٢٤٣ ؛ جمال الدناصورى : دراسات فى جغرافية مصر ، ص١٨٦ .

السماء بمطر ، فإذا اهطل المطر جاء هطوله عنيفا ، ثم ينقطع فجأة ، ويصحو الجو ، ولايتبقى سوى سيول تجرى فى الأودية التى تخترق صحراء مصر على جانبى وادى النيل [١]. والرياح التى تهب على أسوان هى الرياح الشمالية التى تجعل من أسوان خير نموذج لتأثير تلك الرياح، فكلما ابتعدنا عن أسوان شمالا أو جنوبا نقصت بالتدريج نسبة هبوب هذه الرياح ، وهى رياح تتسم بالجفاف لأنها تهب من إقليم معتدل الحرارة إلى إقليم حار فيكون لها تأثير ملطف ، بالإضافة إلى أنها تسهل الملاحة فى النيل من الشمال إلى الجنوب [٢]. وفى أسوان تبلغ النهاية الكبرى للحرارة خلال شهر يناير ٢٣,٧ درجة ، والنهاية الصغرى ٩,٦ درجة بفرق قدره ١٤,١ درجة، أما فى شهر يوليو فإن النهاية الكبرى للحرارة تبلغ حوالى ٤٢ درجة ، والنهاية الصغرى ٢٥,٦ درجة بفرق قدره ١٦,٢ درجة ، ومعنى هذا أنه فى الشتاء تكون الحرارة معتدلة نهارا، مما يجذب السياح إلى أسوان ، فى حين أنها ترتفع فى الصيف بالنهار إلى درجة عالية جداً، لولا جفاف الهواء ، وانخفاض نسبة الرطوبة فى الجو لكانت أكثر مما تتحمله طاقة البشر [٣].

ولم تكن أسوان فى العصور القديمة والوسطى تلك المدينة الصغيرة التى لاتتجاوز مساحتها ثلاثة كيلومترات مربعة كما أسلفنا القول ، بل كانت مدينة إقليمية تمثل قاعدة أحد أقاليم مصر . وهى فى هذا قريبة الشبه من وضعها الحالى كمحافظة تمتد شمالا حتى قرية الشراونة (بالقرب من إسنا) . وسنتناول وصف الحدود الإقليمية لأسوان سواء الشمالى أو الجنوبى منها ، لنقف على مدى مساحة المنطقة التى شملتها أسوان فى العصور الوسطى .

ففى مواجهة أسوان توجد جزيرة الفانتين Elephantine التى أطلق العرب عليها اسم جزيرة أسوان ، وهى واقعة فى وسط النيل ، وتبلغ مساحتها حوالى مائة وخمسين فدانا ، وتمتد

١- محمد عوض محمد : نهر النيل ، ص٢٤٣ ، ٢٥١ ؛ جمال الدناصورى : دراسات فى جغرافية مصر ، ص١٨٦ .

٢- محمد عوض محمد : نهر النيل ، ص٢٠٢ - ٢٠٣ .

٣- المرجع السابق ، ص٢٤٨-٢٥١ .

٤- محافظة أسوان (كتيب) .

حوالى ميل ونصف ، وأطول عرض لها حوالى أربعمائة متراً [٤]. وكانت تلك الجزيرة قاعدة القسم الأول من أقسام الوجه القبلى فى مصر الفرعونية ، وعاصمة البلاد في عهد الأسرتين الخامسة والسادسة الفرعونيتين ، وسماها الفراعنة «آبو» Abou ، أما اليونان فسموها الفانتين بسبب أنها كانت سوقا واسعا يباع فيه العاج وسن الفيل [١]. وقد استخدمت الجزيرة مركزاً لتجارة مصر الجنوبية منذ العصور الفرعونية المبكرة ، وقاعدة حربية للحملات الموجهة ضد النوبة وإثيوبيا ، وفى أثناء الاحتلال الفارسى والبطلمى والرومانى لمصر ، كان بها حامية للدفاع عن حدود مصر الجنوبية ، كما كان بها مقياس النيل الذى ذكره استرابون[٢] .

وتمثل منطقة الجندل الأول (الشلال الأول) الحد الإقليمى الجنوبى لمدينة أسوان ، بمعنى أنها تعتبر حداً سياسيا فاصلا بين حدود مصر الإسلامية وحدود مملكة النوبة المسيحية عقب الفتح العربى لمصر . فأول بلد للنوبة فى تلك المنطقة قرية تعرف بالقصر ، على بعد خمسة أميال من أسوان [٣]. أما آخر بلد للمسلمين على حدود مصر الجنوبية ، قرية تسمى بلاق ، تمتعت بمكانة هامة عند المسلمين ، وكانت أجل حصن لهم ، وسكنها كثير منهم ، وعندها تنتهى السفن المنحدرة من النوبة والسفن الآتية من أسوان [٤]. وتقع بلاق جنوبى أسوان على الشاطئ الشرقى للنيل على بعد أربعة أميال منها ، ومكانها اليوم مجمعا ابتكول ومحطة الشلال ؛ وبلاق من الكلمات المصرية القديمة التى تعنى الموردة أو المرساة حيث ترسو السفن ، كما يوجد فى أيامنا بولاق الدكرورى وبولاق القاهرة ، فاسم كل منهما محرف عن بلاق [٥]. ويواجه قرية بلاق جزيرة فيلة التى تقع فى وسط النيل ، والمعروفة حاليا باسم « أنس الوجود » .

١- أحمد زكى : قاموس الجغرافيا القديمة ، ص٢٠ ، محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الثانى ، جـ٤ ، ص١٩ .

٢- Marlowe , Four Aspects of Egypt ., p . 104 .

٣- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٨٩ .

٤- المصدر السابق ، ص١٩٨ ؛ اليعقوبى : البلدان ، ص٣٣٤ ؛ ابو صالح الأرمنى : تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى ، ورقه ١٠١ أ ؛ ابن الوردى : خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، ص٦٤ .

٥- محمد رمزى : القاموس الجغرافى ، جـ٤ ص٢١٧ - ٢٢٠ .

أما عن الحد الإقليمي الشمالي لمدينة أسوان في العصور الوسطى ، فإن المصادر المعاصرة التي أتيح لنا الاطلاع عليها لم يرد بها أي إشارة قاطعة في هذا الصدد . ومن الممكن أن نعين الحد الشمالي الإقليمي لتلك المدينة استناداً إلى ما جاء في الطالع السعيد للأدفوى المتوفى سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) من أن بنبان قرية من قرى أسوان[١]. وبنبان قرية من قرى مصر القديمة ، على الشاطئ الغربي للنيل تجاه قرية دراو في البر الشرقي للنيل ، وتبعد عن أسوان بحوالي ٣٥ كيلو متر شمالا ، وهي بين إدفو وأسوان ، غير أنها للأخيرة أقرب ، وكانت من توابع أسوان من الجهة المالية ، ثم فصلت في ربيع عام ٩٣٣هـ (١٥٢٦م) [٢].

ولما كان موضوع بحثنا يتصدى لإلقاء الضوء على الدور الذي لعبته أسوان في العصور الوسطى ، وخاصة ابتداء من الفتح العربي لمصر عام ٢١هـ (٦٤١م) ، فإن الأمر يقتضي بنا أن نتحدث بإيجاز عن حوادث ذلك الفتح الذي تمخض عنه ضم مصر إلى حوزة الدولة العربية الإسلامية . والمعروف أن مصر كانت تخضع للنفوذ السياسي والعسكري للدولة البيزنطية في النصف الأول من القرن السابق الميلادي ، وكانت الأحوال فيها تهيئ لنجاح الفتح العربي ، فالمسيحية منتشرة في أرجائها على نطاق واسع ، مما أدى إلى ارتباط أهلها من أجل إحياء قوميتهم المصرية التي اندثرت منذ سقوط الفراعنة ، فقاموا بترجمة الإنجيل إلى اللغة القبطية، وتكتل الشعب خلف كنيسته التي صار لها كيان مستقل ، هذا إلى أن الكنيسة المصرية أخذت بمذهب الطبيعة الواحدة ، وبذلك صار لها استقلال في الرأي والعقيدة عن كنيسة الدولة البيزنطية [٣]، مما أثار الامبراطورية البيزنطية ، فقامت بحركة اضطهاد واسعة النطاق ضد الكنيسة المصرية ، بلغ ذروته في عهد الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) . على أن المصريين لم يتخلوا عن عقيدتهم ، واستبسلوا في الدفاع عنها رغم كل إرهاب وتعذيب [٤]. وكان ذلك في الوقت الذي أتم العرب فتح الشام ، وأخذوا يوجهون أبصارهم نحو مصر . ولابد أن،

١- ص٣١١ .

٢- على مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ٦ ص٨٤ ؛ محمد رمزى : القاموس الجغرافي ، جـ٤ ص٢٢١ .

٣- حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، ص٨٠ .

٤- بتلر : فتح العرب لمصر ، ص٦ .

المصريين قد سمعوا أخبار فتح العرب للشام ، وتسامحهم مع أهل البلاد من المسيحيين ، لذلك تمنوا الخلاص من حكم البيزنطيين ، ولو حلت دولة أخرى محلهم . والواقع أن الاختلافات الدينية بين المصريين والبيزنطيين لم تكن السبب الوحيد الذى مهد فتح العرب لمصر ، بل وجدت أسباب أخرى يسرت هذا الفتح ، من بينها ضعف الدولة البيزنطية التى كانت تعانى الشيخوخة ، فضلا عن أن فتح مصر بعد الشام كان ضرورة حربية ، فقد رأى قادة المسلمين بالشام أن مصر ليست قاعدة هامة يمكن أن تقضى على فتوحاتهم فحسب ، بل إن موقعها الجغرافى الاستراتيجى يمثل خطورة على بلاد العرب نفسها حينما يفيق البيزنطيون إلى أنفسهم . كما أن المسلمين بفتحهم مصر يحققون هدف الفتوحات العربية ، وهو نشر الدعوة الإسلامية فى مناطق جديدة من الامبراطورية البيزنطية ، فضلا عن حرمان القسطنطينية من القمح الذى كانت مصر تزودها بها . ولاشك أن تلك العوامل ساعدت على تمهيد طريق النصر الذى حققه العرب فى مصر ، فتم لهم فتح البلاد سنة ٢١ هـ (٦٤١م) .

ولم يغفل عمرو بن العاص عن تأمين مصر الجنوبية التى تهددها النوبة المسيحية ، فأرسل حملة إلى النوبة بقيادة عبدالله بن سعد بن أبى سرح فى عام ٢١ هـ (٦٤١م) ، غير أنه استعصى عليه غزوها ، وجدير بالذكر أن إخضاع الصعيد تم بغير قتال ، إذ لم يرد أى خبر فى المراجع المعاصرة عن قتال جرى على أرضه[1] بين العرب وأهله .

ومهما يكن من أمر ، فإن الفتح العربى لمصر ، أتى لها بعقيدة جديدة اعتنقها غالبية أهلها ، وبدماء عربية سرت فى عروقهم ، وبلغة عربية أذابت الكيان المصرى القديم ، وأصهرت المصريين فى بوتقة العروبة . وبذلك صارت مصر من أدناها إلى أقصاها قاعدة هامة لانتشار الإسلام ، وعلى رأس تلك القاعدة - من ناحية الجنوب - كانت مدينة أسوان التى غدت معبراً هاما لنشر الثقافة العربية فى إفريقية ، بل إن أسوان صارت على حدود مصر الجنوبية بمثابة خط الدفاع الأمامى ضد غزوات مملكة النوبة المسيحية ، وأحد القواعد الهامة التى تمركز فيها العرب لتأمين البلاد وتسهيل التجارة كما سنرى فى الفصول القادمة .

١- البلاذرى : فتوح البلدان ، ص٢٢٤؛ بتلر : فتح العرب لمصر ، ص٣١ ؛ سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص١٧ .

وبحكم الموقع الحربي الهام الذى شغلته أسوان منذ الفتح العربي لمصر ، فإن العرب انصرفوا إلى الاهتمام بها . ويدل على ذلك أنهم جاءوا باصطلاح إدارى جديد لأسوان ، فقد سموها ثغراً كما جاء فى أوراق البردى[1] التي عثر عليها فى مصر ، كما أطلق عليها المؤرخون المسلمون اسم «ثغر» [2]، وأحيانا « ثغر أسوان المحروس» [3]. هذا إلى أن إقامة العرب فى مصر لم تقتصر على الفسطاط التى أسسوها عقب الفتح ، بل أقاموا فى المناطق التى يخشى طرقها من الأعداء مثل أسوان [4]. فاهتموا بحفظ ثغر أسوان وضبطه ، وأكثروا فيه « من الشجعان وذوى البصائر فى القتال وأهل الحمية والأنفة والدين المتين ، فبمثل هؤلاء تصان الثغور ، ثم يكثر لهم الدروع والخوذ والرماح والسيوف والقسى ... وجميع آلات الحرب والزيارات والمجانيق ويرتب الحراس على الأبراج والحفاظ للشرفات ليلا ونهارا ، ويحتاط فى فتح الأبواب وفى غلقها فلا يكون فى وقت الغلس ، ولايهمل أمر ظواهر البلد وضواحيه من المطالع وأرصاد العيون من جهة العدو ، لئلا يهجم عليه ويطرق ثغرة وهو غافل ... » [5]. وسنرى فى دراستنا لأسوان فى العصور الوسطى أنه عندما كانت الحكومة المركزية فى مصر قوية ، فإنها استطاعت دفع الغزاة الذين طرقوا أبوابها من ناحية الجنوب ، أما فى حالة ضعفها ، فإن العدو كان يهاجم أسوان ، ويتسرب منها إلى داخل البلاد .

1- Weit , L`Egypte Arabe de la Conquete Arabe , p. 137 .

٢- جاء فى المصباح المنير ص١١٣ أن الثغر من البلاد هو الموضع الذى يخاف منه هجوم الأعداء ، فهو كالثلمة فى الحائط يخاف هجوم السارق فيها . وقد أجمعت المصادر على وصف أسوان بالثغر ، نذكر منها على سبيل المثال : المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٠٨ ، ص١٢٧ ؛ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، ص١٠٢ ؛ مراكشى مجهول : الاستبصار فى عجائب الأمصار ، ص٨٧ ؛ ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص٣٢٦ .

٣- قيل فى الثغور (الثغر المحروس) تفاؤلا بوقوع الحراسة لها ، فكل ما كان محل خوف مما ينبغى حراسته والاحتفاظ به ، حسن وضعه بالحراسة (أنظر القلشندى : صبح الأعشى ، جـ٦ ص١٨٤) .

٤- سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص٤٢ .

٥- الحسن بن عبدالله : آثار الأول فى ترتيب الدول ، ص١٦٦-١٦٧ .

ثم إن أسوان لم تكن أحد ثغور مصر الهامة فحسب ، بل كانت أيضا رباطًا هاما من أربطة المسلمين ، ففيه يرابط المسلمون للجهاد في سبيل الله ضد مملكة النوبة المسيحية ، عملا بقول الله تعالى : « وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم »[١]، وعملا بالحديثين الشريفين : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » و « كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطا في سبيل الله فإنه ينمو عمله إلى يوم القيامة » [٢].

والجدير بالذكر ، أن أسوان لم تكن دار مُلك[٣] أو سلطة لأحد . وبعبارة أخرى فإنها لم تتمتع باستقلال ذاتى يجعل منها دولة داخل الدولة ، وإنما كانت طوال العصور الوسطى خاضعة للسلطة المركزية بالعاصمة ، فاذا قامت فيها حركة استقلالية ، فإن الحكومة المركزية كانت تعمل جاهدة على إحباط تلك الحركة . وأسوان في هذا تختلف - رغم بعدها - عن بعض مدن الشام التى قامت فيها دويلات انفصالية في فترات من تاريخها في العصور الوسطى . ويتبين لنا من تطور النظام الإدارى الإقليمى لأسوان في العصور الوسطى ، أنها لم تنشق على السلطة المركزية في العاصمة ، ولم يقم فيها نفوذ سياسى مستقل عن العاصمة .

والمعروف أن النظام الإدارى لمصر في الدولة البيزنطية ، كان مقسمًا إلى خمسة أقسام كبرى هى :-

١- الاسكندرية ويقيم فيها الحاكم البيزنطى .

٢- شرقى الدلتا ويحكمه دوق .

٣- غربى الدلتا ويحكمه دوق .

٤- مصر الوسطى ويدخل فيها الفيوم ويحكمها دوق .

٥- مصر العليا ويحكمه دوق .

١- سورة الأنفال : آية ٦٠ .

٢- الحسن بن عبدالله : آثار الأول ، ص١٦٦ .

٣- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٢٧ ؛ آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى ، جـ٢ ص٢٢٣ .

ولم تكن هناك وحدة إدارية تربط بين تلك الأقسام ، وسبب ذلك أن سلطة الحاكم البيزنطى المقيم فى الاسكندرية - حاضرة مصر فى الدولة البزنطية - كانت ضعيفة بحيث أدى الأمر إلى استقلال كل دوق بدوقيته على وجه التقريب ، فضلا عن قوة عسكرية تحت إمرته خاضعة لنفوذه [١].

أما عقب الفتح العربى ، فقد غدت مصر مقسمة إداريا إلى مصر العليا والسفلى ، وهذان القسمان على أية حال ليسا حقيقة إدارية ، بل هو تقسيم جغرافى[٢] أوجبته ظروف مصر الطبيعية منذ القدم . وقسمت مصر إلى سبعة أقاليم هى : الجفار ، والحوف ، والريف ، والإسكندرية ومقدونية ، والصعيد [٣]. ويقال كان يوجد بها ثمانون كورة ، والكورة بدورها مقسمة إلى قرى ، ولفظ كورة مشتق من الاسم اليونانى خورا Chora التى عثر عليها فى أوراق البردى، ولم تكن الكورة شيئا آخر سوى الأقاليم المعروفة فى العهد البيزنطى - التى بدأت فى القرن الخامس الميلادى - باسم بجارشى Pagarachie ، وعلى رأس الكورة «صاحب الكورة» وهو لفظ مشتق من اللفظ اليونانى بجارخوس Pagarachos [٤]. ومن المعروف أن العرب لم يبدلوا الأنظمة الإدارية التى وجدوها بمصر عند الفتح، إذ وجدوا بها نظمًا إدارية قامت منذ أقدم الأزمنة ، فاقتضت مهارتهم السياسية ألا يمسوا تلك النظم [٥]. ومع أن مصر كانت مقسمة إداريا إلى هذه الأقسام ، إلا أنها خضعت جميعها لسلطة الوالى العليا مباشرة ، ولم يعط الولاة لعمال الأقاليم الفرصة للتمكين لأنفسهم وللاستقلال محليا ، فكان الحكم مركزيا إلى أبعد حد، وكانت كل كبيرة وصغيرة ترجع إلى والى مصر، فكما كان للخليفة صاحب بريد يخبره بأعمال الوالى ، كان للوالى صاحب بريد يخبره بأعمال عمال الأقاليم فى مصر [٦].

١- سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص١٣ .

2- Weit , L` Egypte Arabe de la Conquete Arabe , p. 137 .

٣- المقدس : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ص١٩٣ .

4- Weit , op . cit ., p. 137 ;

سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص٢٨ - ٢٩ .

٥- سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص٢٩ ؛ مصر فى عصر الولاة ، ص٢٥ .

٦- سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص٢٩-٣٠ ؛ مصر فى عصر الولاة ، ص٢٥ .

وكانت أسوان آخر كورة فى إقليم الصعيد الذى يتكون من عشرين كورة [١]. وتكونت كورة أسوان بدورها من سبع قرى[٢] ، غير أن المصادر العربية لم تحدد لنا أسماء تلك القرى حتى يمكننا الوقوف على الحدود الإقليمية لأسوان ، فيما عدا ما ذكره شيخ الربوة [٣]- نقلا عن المسبحى المتوفى سنة ٤٢٠هـ (١٠٢٩م) - من أن إدفو كانت من بين تلك القرى . ولا نستطيع أن نأخذ بما أورده لنا شيخ الربوة ، فمن الملاحظ أن المؤرخين فى حديثهم عن النظام الإدارى لمصر أنهم نقلوا عن بعض دون التثبت من صحة ذلك ، هذا بالإضافة إلى أن إدفو كانت تعتبر مدينة قائمة بذاتها منذ أقدم العصور . وفى تلك الفترة التى أعقبت فتح مصر ، عين عبدالله بن سعد بن أبى سرح - فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب - واليا على مصر العليا ، ويبدو أنه أقام طويلا فى أسوان ، بدليل قول المقريزى [٤]: « لما بعث عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد فتح مصر إلى النوبة (نوبة مصر) سنة ٢٠هـ وقيل سنة ٢١هـ، فى عشرين ألف ، فمكث بها زمانا ، فكتب إليه عمرو يأمره بالرجوع إليه » . ومما زاد من أهمية أسوان أن الخليفة العباسى كان يعين - أحيانا - من قبله واليا على أسوان ، لأن الصعيد الأعلى وخاصة أسوان ، كان مستقراً للقبائل العربية التى نزحت إليه فى القرون الإسلامية الأولى ، علاوة على أن أسوان كانت تمثل منطقة الحدود الجنوبية ، المهددة من جانب النوبيين[٥].

ويبدو أن وضع أسوان الإدارى ظل كما هو فى عصر الولاة (٢١هـ - ٢٥٤هـ / ٦٤٢ - ٨٦٨م) والعصر الطولونى (٢٥٤ - ٢٩٢هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥م) ، إذ أن التقسيم الإدارى لمصر لم يطرأ عليه أى تغيير خلال هذين العصرين ، وإذا كان أحمد بن طولون قد قلد أحمد بن دعيم الصعيد الأعلى[٦] ، فإننا لانستطيع أن نجزم أن إقامته كانت فى أسوان .

١- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ص٣٧٩ .

٢- المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص٧١ .

٣- نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص٢٣١ .

٤- المقريزى : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، ص٩٦ (دراسة وتحقيق) .

٥- المصدر السابق ، ص١٠٥ - ١٠٦ .

٦- سيدة كاشف : أحمد بن طولون ، ص١٦٦ - ١٦٨ .

واستمر الأمر على ذلك إلى أن جاءت الدولة الفاطمية إلى مصر عام ٣٥٨هـ (٩٦٩م) ، فأدخلت تعديلات جوهرية على النظام الإدارى بها ، فقسمت مصر إلى أربع ولايات ، كان أعظمها ولاية قوص وواليها يحكم على جميع بلاد الصعيد [١]. وصارت الكور التى تدخل فى تبعية ولاية قوص أو القوصية هى : أرمنت ، أسنا ، أبنود ، إدفو ، أملاك بنى يونس ، أبسوج البحرى ، الدربى ، أرض اليهودية ، ثغر أسوان[٢]. ولما كان لوالى إقليم قوص الحق فى تعيين العمال على المدن والنواحى والقرى الداخلة فى نطاق ولايته ، فإن والى أسوان أصبح فى منزلة نائبه ، وصار والى قوص هو المسئول الأول عن استتباب الأمن والنظام فى أسوان ، وتنفيذ ما يصدره إليه الخليفة الفاطمى وأعوانه من تعليمات [٣]. وعلى أية حال ، فإن أسوان بعد أن كانت كورة مستقلة فى الصعيد الأعلى ، غدت تابعة لولاية «القوصية» .

وبقى النظام الإدارى الإقليمى لمصر فى عصر صلاح الدين الأيوبى (٥٦٧-٥٨٩هـ / ١١٧١ - ١١٩٢م) مثلما كان عليه من قبل ، فصلاح الدين اهتم - فى المكان الأول - بتوحيد الجبهة الإسلامية فى مصر والشام ، ثم بالجهاد ضد الصليبيين ، بيد أنه فى عصر السلطان الكامل (٦١٥-٦٣٥هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨م) قسمت مصر إلى قسمين إداريين ، بحيث يشتمل الأول على الوجه القبلى ، وتكون مصر - أى الفسطاط- عاصمة إدارية له ، ويشتمل القسم الثانى على الوجه البحرى ، وتكون القاهرة عاصمة إدارية له [٤].

أما فى دولة المماليك البحرية (٦٤٨-٧٨٤هـ / ١٢٥٠- ١٣٨٢م) ، فقد تطور النظام الإدارى والإقليمى فى مصر تطوراً كبيرا ، إذ بلغت النظم الإدارية فى تلك الدولة درجة كبيرة من الدقة ، فالإدارة الإقليمية فى أعمال الوجهين البحرى والقبلى - خارج القاهرة والاسكندرية- أشرف عليها مجموعة من الولاة ، وقسمت أعمال الوجه القبلى إلى ثمانية

١- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ص١٩٣ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص٢٨٩ .

٢- ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص١٠٨ .

٣- جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص١٤٤ .

٤- حسنين ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، ص٨٧-ص٨٨ .

أقسام لكل منها وال ، وهى الجيزة والفيومية والأشمونية والأخميمية والأطفيحية والبهنساوية والأسيوطية والقوصية [١]. وبقيت أسوان «حد المملكة من الجنوب» تابعة لعمل قوص [٢]، مثلما كانت فى العصر الفاطمى ، وباعتلاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون عرش سلطنة المماليك تغير وضع أسوان ، فقد استقلت عن قوص ، وصارت ولاية قائمة بذاتها [٣]. والأمر الذى يسترعى الانتباه فى وضع أسوان الجديد أن واليها كان يعين من قبل السلطان ، ولكنه فى نفس الوقت كان نائبا لوالى قوص ، واستمر الأمر على ذلك حتى عهد الظاهر برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ / ١٣٨٢-١٣٩٦م) فصار واليا مستقلا بنفسه ، لاحكم لوالى قوص عليه ، ورتبته أمير طبلخاناه [٤]. وفى دولة المماليك البحرية ، امتد نفوذ كاشف الوجه القبلى على جميع أعمال الصعيد وولاتها من الجيزة إلى أسوان ، وقد جرى الاصطلاح على تسمية هذا الكاشف «والى الولاة» أما دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤-٩٢٣هـ / ١٣٨٢-١٥١٧م) - وفى عهد الظاهر برقوق بالذات - فقد استحدثت وظيفة «نائب الوجه القبلى» ، وهو فى ذلك مثل سابقه الكاشف ، له نفس النفوذ على جميع ولاة الوجه القبلى [٥]، من ضمنها والى

١- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ص٢٩٢-٣٩٧ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٧٣ ؛ ابن الجيعان : التحفة السنية ، ص٤ ؛ الخالدى : المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشا ، ورقة ٨٤ أ .

٢- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٢٨ .

٣- سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص٣٥٨ ؛ مصر فى عصر دولة المماليك البحرية، ص١٤٣ .

٤- ابن فضل الله العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص١٧٤ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٣ ص٣٩٧ ، جـ٤ ص٢٦ ، ص٦٦ ؛ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ص٣٥ .

وأمير طبلخاناه يتلو إمرة مائة فى مراتب الجيش المملوكى ، وبعبارة أخرى تكون إمرة طبلخاناه بذلك الاسم لأن من حق صاحبها أن يدق بالطبل على بابه كل مساء . وعدة إمرة الطبلخاناه أربعين فارسا ، ومعنى ذلك أن الإقطاع الذى يحوزه صاحب هذه الرتبة يكفى لشراء أربعين مملوكا ولم تقتصر إمرة الطبلخاناه على هذا العدد الرسمى ، فمنهم من وصل عدد مماليكه إلى ٦٠ و ٧٠ و ٨٠ أنظر (القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ص١٥ ، ٦٦ ؛ ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص٢٣٠) .

٥- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ص٢٤ - ٢٥ ؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص١٢٩ ، ٣١٠ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٣٥٩ .

أسوان . ولم يكن لنائب الوجه القبلى الحق فى عزل أو تولية الولاة ، فأمر العزل أو التولية من اختصاص السلطان [١].

لم يكن اهتمام دولة المماليك البحرية منصبا على النظام الإدارى الإقليمى لأسوان فقط ، بل اهتمت أيضا بجعلها أحد محطات البريد الهامة . وليس من شك فى أن نظام البريد فى خدمة النظام الإدارى ، وأداة مساعدة لاستقراره . ومن المعروف أن دولة المماليك البحرية ازدهرت بفضل دورها فى تجارة العصور الوسطى . واحتلت أسوان مكانة مرموقة فى ذلك الدور . هذا إلى أن فتح النوبة عام ٦٧١هـ (١٢٧٢-١٢٧٣م) على يد الظاهر بيبرس ، مد سلطته جنوبى أسوان ، الأمر الذى دفعه للقيام بتنظيم شبكة ضخمة من خطوط بريد الخيل فى أنحاء امبراطوريته ، ليكون على علم بكل ما يجرى فيها من صغيرة وكبيرة فى أقصر وقت . ولسنا هنا بسبيل سرد جميع محطات البريد البرى (الخيل) التى ربطت الظاهر بيبرس بامبراطوريته الواسعة ، فذلك يخرج بنا عن إطار هذه الدراسة ، بل سنقتصر على طريق بريد الخيل الذى يصل بين قلعة الجبل إلى قوص محاذيا للنيل ومارا بالجيزة إلى برنشت ، ثم إلى منية ابن خصيب ، ثم إلى الأشمونين ثم إلى ديروط ، ثم إلى المنهى ، ثم إلى منفلوط ، ثم إلى أسيوط ، ثم إلى طما ثم إلى المراغة ، ثم إلى بلسبورة (بلصفورة) ، ثم إلى جرجا ، ثم إلى البلينة ، ثم إلى هو ، ثم إلى الكوم الأحمر ، ثم إلى خان دندرا ، ثم إلى قوص [٢]. ومن قوص يبتدئ طريق إلى أسوان ، ثم منها إلى بلاد النوبة ، ويركب البريد فى ذلك الطريق الهجين[٣] الذى يناسب المظاهر التضاريسية لتلك المنطقة . ويبدو أن الخزينة العامة لدولة المماليك البحرية ، كانت تدفع سنويا مبلغ عشرة آلاف دينار لتنفيذ الترميمات التى يتطلبها ذلك الطريق البرى ، كما اهتم الظاهر بيبرس بأن يكون السفر آمنا سهلا ، فأقام فى ذلك الطريق خفراء لحفظ المسافرين [٤].

١- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٢ ص٢٨٠ .

٢- المصدر السابق، جـ١٤ ص٣٧٢ - ٣٧٤ ؛ العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٨٧ - ١٨٨ .

٣- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٤ ص٣٧٤؛ تاريخ البريد فى مصر (مصلحة البريد) ، ص٣٤ .

٤- نظير حسان سعداوى : نظام البريد فى الدولة الإسلامية ، ص١٢٤ - ١٢٦ .

ولم تكن أسوان محطة للبريد البرى فى العصور الوسطى فقط ، بل كانت أيضا أحد المحطات الهامة للبريد الجوى الذى استخدم فيه الحمام الزاجل . وقد سبق لنور الدين محمود – الذى وحد بين مصر والشام – أن نظم عام ٥٦٥هـ (١١٤٦م) خطوطا للبريد الجوى بين القاهرة والاسكندرية ، وبين القاهرة ودمياط ، وبين القاهرة والوجه القبلى «قوص وأسوان وعيذاب»[١]، وهى نفس الخطوط التى انتظم فيها البريد بواسطة الجياد [٢]. وإذا كان خط البريد الجوى من القاهرة إلى أسوان يعتبر من الخطوط الثانوية التى أنشأها نور الدين محمود ، لأن مقر حكمه كان الشام ، وإذا كان من الثابت أيضا أن المغول دمروا كثيراً من أبراج ومحطات الحمام الزاجل عندما أوغلوا فى بلاد الشام أوائل عصر المماليك ، فإن السلطان الظاهر بيبرس أعاد إصلاحها ، وجعل مركزها قلعة الجبل ، واهتم بها اهتماما لايقل عن اهتمامه بالبريد البرى ، وقد أتاح ذلك الإشراف على أجزاء دولته الواسعة ، ومراقبة موظفيه فى الأقاليم البعيدة مثل أسوان .

ومهما كان الأمر ، فإن مدينة أسوان شهدت نشاطا بارزا فى الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أحاطت بمصر فى العصور الوسطى . كما ساهمت فى الحياة العلمية والدينية التى سادت مصر فى ذلك الوقت . ويرجع السبب فى ذلك إلى موقعها الجغرافى على آخر حدود مصر الجنوبية المتاخمة للملكة النوبة المسيحية ، فضلا عن أنها كانت أحد المحطات الهامة لقوافل الحج والتجارة الآتية من عيذاب على ساحل البحر الأحمر . وسنحاول معالجة ذلك النشاط بالبحث والدراسة فى الفصول القادمة .

١– ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٢ ص٢٦٩ ؛ ابن فضل الله العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص١٩٦ .

٢– نظير حسان سعداوى : نظام البريد ، ص١٣٩ – ١٤٠ ؛ تاريخ البريد فى مصر (مصلحة البريد) ، ص٤١ – ٤٢ .

٣– سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص١٤٠ – ١٤١ .

الفصل الأول

دور أسوان فى النشاط السياسى

أ- بنو الكنز فى أسوان : حماية الحدود الجنوبية لمصر - هجرة القبائل العربية إلى أسوان - نزوح ربيعة إلى مناجم الذهب بالعلاقى - نشوب النزاع فى ربيعة - إقامة فرع من ربيع فى أسوان - ظهور ربيعة فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى - منح زعيم ربيعة لقب كنز الدولة - ارتباك أحوال الدولة الفاطمية فى عهد المستنصر بالله - خروج بنى الكنز عن الطاعة - محاربة بدر الجمالى لبنى الكنز - قيام الدولة الأيوبية - ثورة كنز الدولة على صلاح الدين - هزيمة بنى الكنز وهجرتهم إلى النوبة - اختلاط بنى الكنز بالنوبيين - اعتلاء كنز الدولة المسلم عرش النوبة - إغارات بنى الكنز على أسوان فى عهد المماليك الجراكسة - خروج أسوان عن يد السلطنة - سقوط أسوان فى أيدى بنى الكنز .

ب- غارات النوبيين على أسوان : ممالك النوبة المسيحية - الحملات التى أرسلها عمرو بن العاص لغزو النوبة - حملة ابن أبى سرح - معاهدة البقط - اغارة النوبيين على أسوان فى عهد الإخشيديين - عدم تعرض النوبيين لأسوان فى العصر الفاطمى - غزو تورانشاه للنوبة - إغارة ملك النوبة على أسوان وعيذاب - فتح النوبة فى عهد الظاهر بيبرس - توقف إغارة النوبة المسيحية على أسوان - سقوط مملكة النوبة المسيحية فى النصف الأول من القرن ١٤م .

جـ - اغارات البجة على أسوان : مواطن البجة - شعوب البجة - اغارة البجة على حدود مصر فى عام ١٠٧هـ - اتفاقية عبيدالله بن الحبحاب مع البجة - اغارة البجة على أسوان عام ٢٣٢هـ - حملة القمى - توقف إغارات البجة على أسوان .

د- دور أسوان فى الحركات المضاده للسلطة المركزية: ثورة ابن الصوفى - ثورة العمرى - قضاء أحمد بن طولون على العمرى - أسوان معبراً للفارين من الضغط السياسى - أسوان منفى للمغضوب عليهم من عظماء الدولة - ثورات العربان بالوجه القبلى وأثرها على أسوان- زحف قبيلة هوارة على أسوان - خراب أسوان بسبب فساد العربان وخاصة بنى الكنز .

أ- بنو الكنز فى أسوان :

أحس العرب بعد أن فتحوا مصر بضرورة حماية حدودها الجنوبية ، خشية أن تقوم مملكة النوبة المسيحية بمشروع تحالف مع الدولة البيزنطية لاسترداد مصر ، فضلا عن أهمية أسوان لقربها من معادن الذهب والزمرد . فاتخذوا من أسوان قاعدة حربية هامة يعسكر فيها الجند للرباط فى سبيل الله . ونتيجة لذلك استقر العرب فى أسوان - منذ الفتح العربى لمصر - فى أعداد هائلة . ومن الأدلة التى تثبت استقرار العرب فى أسوان ، شواهد القبور التى عثر عليها فى جبانة أسوان [١]، فمعظمها تحمل أسماء القبائل العربية التى اتخذت أسوان سكنا ومعاشا لها . ولايخفى علينا أن بيئة أسوان وظروفها الطبيعية قريبة الشبه من البيئة العربية التى أتت منها تلك القبائل ، مما جعلها ترتاح إلى الإقامة بها .

وتوالت هجرة القبائل العربية لأسوان فى القرنين الأول والثانى للهجرة ، فالمسعودى الذى زار مصر سنة ٣٣٢هـ (٩٤٤م) يقول : « ومدينة أسوان يسكنها كثير من العرب من قحطان ونزار بن معد بن ربيعة ومضر وخلق من قريش ، وأكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره » .

ومن السمات البارزة فى هجرة القبائل العربية إلى مصر فى القرن الثالث الهجرى ، أنها وفدت فى جموع كثيرة ، ولم تستقر فى مكان واحد من مصر ، بل انتشرت فى أنحائها ، فمنها من استقر فى الوجه البحرى ، ومنها من أخذ طريقه إلى الصعيد الأعلى[٣]. ومن المرجح أن ولاة أسوان وضعوا سياسة لضمان الإشراف على تلك المنطقة الجنوبية التى تجاور مملكة النوبة المسيحية ، وأيضا لضمان الإشراف على المعادن ، وقوام تلك السياسة تشجيع القبائل العربية التى كانت تنزل بادية العراق ونجد وشرقى الجزيرة العربية ، على النزوح إلى الصعيد الأعلى ، حتى يجدوا لهم أنصاراً فى تلك المنطقة [٤].

١- سعاد ماهر : محافظات الجمهورية ، ص٨٤ .

٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ٢ ص٣٢ .

٣- المقريزى : البيان والإعراب ، ص١٠٥ .

٤- المصدر السابق ، ص١٠٦ .

ومن القبائل العربية التى تهمنا فى نطاق هذه الدراسة ، قبيلة ربيعة التى انحدر منها بنو الكنز . وتنتسب هذه القبيلة إلى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وكان مقرها نجد وتهامة فى الجزيرة العربية ، إلى أن نشبت الحرب بين بنى ربيعة ، واقتتلوا قتالا شديدا كان فيه الهلاك والفناء ، فتفرقت ربيعة وارتحلت بطونها إلى أماكن مختلفة ، منها البحرين ، وهجر ، وظواهر بلاد نجد ، والحجاز ، واليمامة (١).

أما عن ربيعة التى نزلت اليمامة ، فقدمت إلى مصر فى أعداد كثيرة أواخر خلافة المتوكل على الله العباسى عام ٢٤٠هـ (٨٥٩م) تقريبا ، وانتشرت فى أرجاء مصر ، فنزلت طائفة منها بأعالى الصعيد ، وخاصة أسوان وشمال النوبة (٢). ويبدو أن مناجم الذهب والزمرد بالعلاقى ، أغرت قبيلة ربيعة - ومعها جهينة - بدخول أرض البجة بعيداً عن جامعى الضرائب وتعسفهم على ضفاف النيل ، فانتقلت إليها فى شكل هجرات واسعة عام ٨٦٩م ، وبفضل تحالفها مع البجة فرضت نفوذها بزعامة إسحاق بن بشر على منطقة العلاقى ، كما يبدو لنا أيضا أن القبائل العربية كانت فى نزاع وتنافر من أجل فرض السيادة على تلك المنطقة ، ونلمس ذلك فى النزاع الذى نشب بين بنى بشر وبين بنى يوسف (طائفة أخرى من ربيعة) انتهى بهزيمة الأخيرين ، فاضطروا أثر ذلك للعودة إلى بلاد الحجاز عن طريق عيذاب . غير أن النزاع ما لبث أن قام بين بنى بشر أنفسهم كان من نتيجته مقتل إسحاق (٣). ولانستطيع التكهن بطبيعة ذلك النزاع الذى نشب فى بنى بشر وأدى إلى مقتل إسحاق إلا أنه صورة من صور النزاع القبلى الذى اتصفت به حياة القبائل العربية . ومن العجيب أن فرع ربيعة فى العلاقى لم يتفق على اختيار زعيم له من تلك المنطقة خلفا لإسحاق ، وربما يرجع سبب هذا إلى خلو المنطقة من شخصية مناسبة تصلح لتولى الزعامة . وعلى أية حال ، فإن الأمر انتهى باستدعاء أبى عبدالله محمد بن على المعروف بأبى يزيد بن اسحاق - وهو ابن عم المقتول - من مقره فى بلبيس لتولى زعامة فرع ربيعة فى بلاد البجة(٤).

١- ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٣١ ؛ عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، جـ٢ ص٤٢٤ .

٢- المقريزى : البيان والإعراب ، ص٤٤ ؛
Macmichael , AHist . of the Arabs in the Sudan . Vol . 1 , p . 148 .

٣- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٩٦ ؛ البيان والإعراب ، ص٤٤- ٤٥ ؛
Mac Michael , op . cit . vol . 1 . p. 148 .

٤- المقريزى : البيان والإعراب ، ص٤٥ .

ويبدو أن أبا يزيد بن إسحاق لم تعجبه الإقامة فى منطقة العلاقى الجافة القاحلة ، وآثر اختيار مقره على ضفاف النيل عند أسوان فى مكان كان معروفا بساقية شعبان (١).

ومن المحتمل أن أسوان - التى تتفوق حضاريا - حازت إعجابه عندما وقف بها فى طريقه إلى العلاقى لتولى الزعامة . ومثلما عرضت ربيعة سيطرتها على منطقة العلاقى ، فإنها مارست نوعا من السيادة الارستقراطية على القبائل العربية المقيمة فى أسوان (٢).

وقد ظل أبو عبدالله محمد بن على المعروف بأبى يزيد بن اسحاق - الذى يرجع نسبه إلى مسروق بن معدى كرب- رئيسا على فرع ربيعة بأسوان حتى مات ، فخلفه ولده أبو المكارم هبة الله بن أبى عبدالله محمد بن على الذى عرف بالأهواج المطاع (٣).

وأتاحت ظروف الدولة الفاطمية فى ذلك الوقت الفرصة لظهور أبى المكارم هبة الله على مسرح الأحداث السياسية . فالدولة الفاطمية التى قامت فى مصر عام ٣٥٨هـ (٩٦٩م) ، وسلخت مصر من الخلافة العباسية ببغداد ، تلك الدولة ظلت قوية إلى ما يقرب من مائتى عام شهدت مصر فيها فترة غنية بالازدهار(٤)، غير أنها فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى تعرضت لمحنة قاسية زعزعت أركانها، وكادت أن تطيح بها(٥). وكان ذلك عندما خرج أبوركوة على الخليفة الفاطمى .

أما أبو ركوة هذا فقد ذكر المؤرخون أنه من سلالة بنى أمية خلفاء الأندلس من ولد هشام بن المغيرة بن عبد الرحمن الناصر واسمه الوليد ، وكان يدعو لعمه هشام بن الحكم المستنصر الأموى بالأندلس ، وتبعه عديد من الناس وعظم شأنه ، وزحف على رأس جيش كبير إلى برقة، وتمكن من الاستيلاء عليها بعد أن هزم جيوش الحاكم ، « وظفر من الأموال والخيل والسلاح والنعم الجليلة بما قوى به ، واشتد بأسه»(٦). ثم تلى ذلك بقطع الدعوة الفاطمية من الخطبة ، ولعن الحاكم بأمر الله ، وانزعج الحاكم لتطور الحوادث على ذلك النحو ، فأرسل إليه جيشا آخر نال الهزيمة الساحقة على يده (٧).

١- نفس المصدر والمكان

2- Mac Michael , op . cit . Vol .I . p . 149 .

٣- المقريزى : البيان والإعراب ، ص٤٥ .

4- Mac Michael , op , cit ., Vol , I . p. 172 .

٥- محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص١٨٦ .

٦- ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٣٨٧ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص٢٤٩ ؛ محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ، ص١٨٨ ، المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ٢ ص٦٠-٦١ .

٧- المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٦١-٦٢ ؛ محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله ، ص١٨٩- ١٩٠

ثم تطلع أبو ركوة إلى امتلاك مصر ، فسار بجموعه الجرارة نحو الصعيد ، وعندئذ أحس الحاكم بأمر الله بفداحة الخطر الذى يهدد ملكه ، فسير للقائه جيشا ضخما فى ربيع الأول عام عام ٣٩٦هـ(١٠٠٦م) . وكان أن حلت الهزيمة بجيش الحاكم بأمر الله فى كوم شريك على مقربة من الاسكندرية ، وبلغ أبو ركوة صحراء الهرم ، وهناك هزم الجيش الذى أرسله الحاكم بأمر الله لصده . ثم ارتد أبو ركوة تجاه صحراء الفيوم ، فتتبعه الجيش الفاطمى بعد أن عززه الحاكم بأمر الله ، واستؤنف القتال بين الفريقين بمنتهى العنف ، وكانت المعركة الفاصلة يوم ٣ ذى الحجة عام ٣٩٦ هـ (سبتمبر ١٠٠٦م) فهزم أبو ركوة ، وتفرقت جموعه ، وارتد الثائر جنوبا والجيش الفاطمى يتعقبه حتى حدود النوبة [١]. ويبدو أن قائد الجيش الفاطمى الذى طارد أبا ركوة للقبض عليه توقف فى أسوان ، واستعان بأبى المكارم هبة الله زعيم ربيعة لتعقب الثائر فى بلاد النوبة والقبض عليه . وذكر ابن الأثير قائلا[٢]: « فلما بلغ (أبو ركوة) إلى حصن يعرف بحصن الجبل للنوبة[٣] أظهر أنه رسول من الحاكم إلى ملكهم ، فقال له صاحب الجبل : الملك عليل ولابد من استخراج أمره فى مسيرك إليه ، وبلغ الفضل بن صالح (قائد الجيش الفاطمى) الخبر فأرسل إلى القلعة بالخبر على حقيقته ، فوكل به من يحفظه ، وأرسل إلى الملك بالحال ... فأمر بأن يسلم إلى نائب الحاكم ، فتسلمه رسول الفضل وسار به ... وحمله إلى مصر » . وما جاء فى العبر لابن خلدون[٤] يكاد يطابق نفس الأسلوب والمعنى . ويؤيد ما وصلنا إليه قول المقريزى[٥] : « وهو (أبو المكارم هبة الله) الذى ظفر

١- ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ص٥٨-٥٩ . ويرى ابن خلدون أن أبا ركوة هذا ليس من سلالة بنى أمية . وقد أخذ بهذا الرأى محمد عبد الله عنان الذى صور أبا ركوة مغامراً طموحًا نسب نفسه إلى بنى أمية بالأندلس . أنظر : (الحاكم بأمر الله ، ص١٨٦-١٨٧) .

٢- الكامل ، حوادث عام ٣٨٧هـ .

٣- كانت منطقة المريس يحكمها موظف من قبل ملك النوبة يعرف بصاحب المريس . كما يعرف بصاحب الجبل لأن منطقة نفوذه تقع بالقرب من أراضى المسلمين ، ويعتبر الجزء الشمالى من منطقة المريس - بين الشلال الأول والثانى - منطقة مفتوحة للمسلمين ، أما إلى الجنوب من الشلال الثانى (وادى حلفا) فإنها منطقة مغلقة فى وجه المسلمين . وتنحصر مسئولية حاكم الجبل فى عدم السماح لأى شخص بالمرور إلا إذا كان لديه ترخيصًا بذلك . وقد استمرت سياسة العزل جنوب الشلال الثانى تنفذ بحزم وشدة .

أنظر . Trimingham , Islam in the Sudan ., pp . 64 - 65

٤- جـ٤ ص٥٨ - ٥٩ .

٥- البيان والإعراب ، ص٤٥ .

بأبى ركوة الخارج على الحاكم بأمر الله وقبض عليه ... » . ويعنى هذا أن أبا المكارم هو الذى طارد أبا ركوة فى بلاد النوبة، كما أنه كان حلقة الوصل فى المفاوضات التى دارت بين صاحب الجبل وقائد الجيش الفاطمى . علاوة على أنه تسلم الثائر من صاحب حصن الجبل ، وأتى به حيًا إلى أسوان . وأخيرا نقل الثائر إلى القاهرة ، « وطيف به ، وألبس طرطوراً ، وجعل خلفه قرد يصفعه كان معلما بذلك ، ثم حمل إلى ظاهر القاهرة ليقتل ويصلب ، فتوفى قبل وصوله ، فقطع رأسه وصلب » [١].

وكوفئ أبو المكارم هبة الله زعيم ربيعة فى أسوان على جهوده فى إلقاء القبض على الثائر أبى ركوة ، فأضفى عليه الحاكم بأمر الله لقب «كنز الدولة» تكريمًا له ، ويعد أبو المكارم هذا أول من لقب بذلك اللقب الذى صار علمًا لمن خلفه من بعده ، بل عرفت قبيلة ربيعة بعد ذلك ببنى الكنز[٢] . والجدير بالذكر هنا أن اسم الكنز - وجمعه الكنوز- ليس اسما مستحدثا فى العصور الوسطى ، بل طالما جاء ذكره فى تاريخ مصر القديم ، وأطلق على النوبيين ، ويبدو أن ربيعة اكتسبت اسم الكنز - فضلا عن اسمها - نتيجة تصاهرها مع أهالى النوبة [٣].

١- ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٣٨٧هـ ، ابن خلدون : العبر (طبعة بيروت) ، جـ١ ص٧١ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٦٤-٦٥ .

٢- المقريزى : البيان والإعراب ، ص٤٦ .

3- MacMichael , the Coming of the Arabs to the Sudan ., p.46 .

ويرى البعض أن كلمة كنز Kanz أو كنوز Kanuz من كلمة كنست Kanset وهى الاسم المصرى القديم لشمال النوبة حيث أطلق على أهالى تلك المنطقة الماتوكى . أنظر :

Wallis Budge , Texts relating to Saint Mena of Egypt an Canons of Nicae in a Nubian Dialect ., p.10 .

ويرجع البعض الآخر اسم كنوز إلى اسم فرعونى قديم كان يطلق على جزيرة تقع بالجندل الأول يطلق عليها اسم كنسى ، وقد تكون هذه الجزيرة القديمة هى نفس الجزيرة المسماة اليوم كونوسو ، وفى رواية يرجع الاسم فى أصله إلى الكلمة الفرعونية «تاكنز» أى بلاد الأقواس (سعد الخادم : الفنون الشعبية فى النوبة) .

على أنه لم يترتب على منح الحاكم بأمر الله لقب «كنز الدولة» لزعيم ربيعة فى أسوان اضفاء أى نفوذ سياسى أو سلطة ما لتلك القبيلة فى أسوان . وما ذهب إليه بعض الباحثين من أن الدولة الفاطمية اعترفت بإمارة ربيعة فى أسوان [١]، بالإضافة إلى أنها شجعتها على الاستقلال الفعلى [٢]، يوحى إلينا أن تلك القبيلة فرضت سيطرتها المباشرة على أسوان بمنأى عن السلطة المركزية فى مصر . والواقع أن أسوان خضعت خضوعًا تاما للدولة الفاطمية ، ولايزيد لقب «كنز الدولة» عن كونه لقبا فخريا منح لأبى المكارم لما أظهره من ولاء للخليفة الفاطمى .

وعلى أية حال ، فإن بنى الكنز أعطونا صورة أخرى لنشاطهم فى أواخر العصر الفاطمى الأول (٣٥٨ - ٤٦٥هـ) تغاير ما سبق فى عصر الحاكم بأمر الله . وستتضح رؤية تلك الصورة، بعد أن نتناول - بإيجاز شديد - أحوال مصر الداخلية فى أواخر العصر الفاطمى الأول ، وخاصة فى عهد المستنصر بالله .

فالمعروف أن أحوال مصر الداخلية اعتراها الفوضى والارتباك فى أواخر العصر الفاطمى الأول بسبب التنازع بين الطوائف الموجودة . ذلك أن المعز لدين الله اعتمد منذ أن وطد ملكه فى مصر على المغاربة ، حتى إذا ما ولى العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ / ٩٧٥م- ٩٩٦م) استخدم الأتراك والديلم ، أما فى عهد الحاكم بأمر الله فقد ظهر عنصر السودان فى الجيش ، وازداد عهده فى خلافة المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ / ١٠٣٥-١٠٩٤م) حتى بلغ عدد السودانيين فى الجيش خمسين ألفا ، وقد أدى تعدد العناصر فى الجيش الفاطمى إلى قيام التنافس والتطاحن بين طوائف الجند ، بدلالة ما حدث فى عهد المستنصر بالله حين دب خلاف بين طائفتى الأتراك والسودانيين ، مما ترك أسوأ الأثر فى أحوال مصر الداخلية [٣]. وأججت أم الخليفة المستنصر بالله - التى تحكمت فى الدولة فى ذلك الوقت - نيران الفتنة بين الاتراك والسودانيين ، بسبب تحيزها للأخيرين ، واعتمادها عليهم ، فقامت الحرب بين الأتراك والسودانيين ، وتمكن الأتراك من هزيمة السودانيين وإبعادهم إلى جهة الصعيد الأعلى بعد

١- مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ، ص١٣٤ ، ٢٢٣ ؛ البجة والعرب فى العصور الوسطى ، ص٤٠ .

٢- عطية القوصى : بنو الكنز ، رسالة ماجستير ، ص٥٤ وما بعدها .

٣- جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص١٠١ - ١٠٢ .

حروب استمرت من عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) حتى عام ٤٥٩هـ (١٠٦٦م) ، ويروى أن عددهم ببلاد الصعيد بلغ خمسة عشر ألفا ، وأنهم أضروا بالأهالى ضرراً بالغا ، إلى أن انتهى الأمر باستبداد الأتراك بالسطلة فى البلاد [١].

ومن العوامل التى أدت أيضا إلى سوء أحوال مصر الداخلية المجاعة التى استمرت بمصر عدة سنوات ، فتسببت فى شل الحركة الاقتصادية تماما ، وأهلكت الزرع والضرع ، ولبشاعة تلك المجاعة وقسوتها فإنها عرفت فى المصادر المعاصرة بالشدة العظمى [٢].

وانتهز العربان بالصعيد فرصة سوء الأحوال الاقتصادية ، وانهيار نفوذ الخليفة فى البلاد ، فرفعوا راية والتمرد على السلطة المركزية ، وقطعوا الطرق ، وظلموا الأهالى ، وعاثوا فى الصعيد فساداً ونهبا [٣]. ومن الطبيعى أن قبيلة بنى الكنز كانت من بين العناصر التى استغلت ضعف الخلافة الفاطمية ، فخرجت عن الطاعة ، واستفحل أمرها[٤] فى أسوان التى تبعد عن القاهرة بمسافة طويلة .

ولما اشتدت الفوضى بالبلاد ، وعجز الخليفة عن إيقافها ، بعث إلى بدر الجمالى والى عكا يطلب منه المجئ لإصلاح ما فسد من أمور مصر ، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من عساكر بلاد الشام ليستعيض بهم عن الجند الأتراك والمغاربة والسودانيين الموجودين بمصر ، فأجابه المستنصر إلى طلبه [٥].

وكان أن اتخذ بدر الجمالى بعد أن أتى إلى مصر مقراً له بحارة برجوان بالقاهرة ، وصمم منذ اللحظة الأولى على إعادة الأمور إلى نصابها ، وإرجاع نفوذ الخليفة فى مصر ، وعندما فرغ من إعادة الأمن والهدوء إلى العاصمة بدأ يوجه عنايته إلى بقية الأقاليم ، فاتجه أولا إلى الوجه البحرى ، حيث قضى على المفسدين فيه [٦].

١- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٣٣٤-٣٣٥ .

٢- المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص٢٤-٢٧ .

٣- أبو المحاسن : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، جـ٣ ص٤٥٨ .

4- Lane - Poole , AHist . of Egypt in the Middle Ages . , p.29

٥- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٣٨١ ؛ جمال الدين سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ، ص١٠٧ .

٦- جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص١٠٨-١٠٩ .

وبعد أن انتهى من الوجه البحرى ، سار بقواته إلى الوجه القبلى عام ٤٦٩هـ (١٠٧٦م) . وكانت جماعة كثيرة من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة قد تجمعت بقرية طوخ [١]، فطوقهم بغتة بالنيل ، وأعمل فيهم السيف دون رحمة أو شفقة ، فغرق من فر منهم فى النيل ، ولم ينج منهم إلا أعداد قليلة [٢].

وعقب تلك المعركة التى انتصر فيها بدر الجمالى ، واصل سيره على رأس قواته إلى أسوان لإخضاع بنى الكنز وكسر شوكتهم ، فالتقى بكنز الدولة محمد وأتباعه الكثيرين فى معركة بالغة العنف ، انتهت بالهزيمة الساحقة لبنى الكنز وفرار كنز الدولة إلى النوبة ، فأرسل بدر الجمالى إلى ملك النوبة «سلمون» رسولا ليسلمه كنز الدولة ، فأجابه الملك إلى طلبه ، ووصل به الرسول إلى مصر ، فقتل وصلب سنة ٤٦٩هـ (١٠٧٦م) بباب الحديد فيما بين القاهرة ومصر ، وبنى بدر الجمالى بالمكان الذى دارت فيه المعركة مسجداً سماه مسجد النصر تخليداً لتلك المعركة التى كتب له فيها النصر [٣].

ويبدو أن ذلك الجامع الذى بناه بدر الجمالى فى مكان المعركة هو أحد المساجد الثلاثة التى يسميها أهالى أسوان بمآذن بلال ، ويرجع تاريخ تلك المساجد إلى نهاية القرن الخامس الهجرى. فالمئذنة الأولى أو الشمالية تقع فى «قرية الباب» أو « المشهد البحرى» جنوب الشلال الأول فى مواجهة جزيرة فيلة (أنس الوجود) ، ويرجع تاريخ بنائها إلى عام ٤٧٥هـ (١٠٨٢م) أى فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى [٤].

١- على الضفة الغربية للنيل تجاه مركز قوص بمحافظة قنا .

٢- ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص٢٤-٢٥ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٣١٦ ؛ ابن خلدون : العبر، جـ٤ ص٦٤ .

٣- ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص٢٤-٢٥ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ص٦٤ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٣١٦ .

٤- ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص٢٥ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ص٦٤ ؛ المقريزى : المقفى ، جـ٣ ورقة ٢٥٢ ب ، المقفى (مطبوع) جـ٧ ص٣٤ ، اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ص٣١٦ ؛ ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة جـ٣ ورقة ٨٦أ - ٨٧أ ؛ ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، ص١٣٢ (مطبوع) .

أمـا المئذنـة الجنوبيـة فإنها بنيت على تل فى قرية «بلال» أو «المشهـد القبلى» جنوب قـرية الباب، وهى تشبه المئذنة الأولى في شكلها ومواد البناء التى صنعت منها ، علاوة على أنها تشبـه مئـذنة جامع الجيـوشى الذى أنشئ عـام ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) [١]. أمـا المئـذنة الثـالثـة والأخيرة بنيت فى نفس المنطقة التى بنيت فيها المئذنتان السابقتان ، وقد اختفى الجامع تماما ، ولم يبق من المئذنة سوى أسفلها[٢]. وعلى أية حال ، فمع أننا لانستطيع تحديد المسجد الذى بناه بدر الجمالى من بين المساجد الثلاثة التى سبق أن ذكرناها ، إلا أن تلك الآثار قد أفادتنا فى تحديد مكان المعركة التى دارت بين بدر الجمالى وبنى الكنز .

وقد أسفرت تلك المعركة عن خسائر فادحة فى الأرواح بالنسبة لبنى الكنز ، وليس أدل على ذلك من قول المقريزى [٣]: « قتل (بدر الجمالى) من مصر خلائق لايحصيها إلا خالقها، منهـا أنه قتل من أهل البحيرة نحو العشرين ألف إنسـان ، إلى غير ذلك من أهل دميـاط والاسكندرية والغربية والشرقية وبلاد الصعيد وأسوان وأهل القاهرة ومصر ... » .

وهكذا عاد الأمن والسكينة إلى أسوان بعد أن عاث فيها بنو الكنز فساداً ، ونشروا فيها الفوضى والاضطراب ، الأمر الذى كاد أن يشكل خطراً جسيمًا على مدينة أسوان بوصفها مركزا هاما للتجارة من ناحية ، وأحد طريق الحجيج إلى الحجاز - عبر الصحراء الشرقية - من ناحية أخرى .

ولم يحاول بنو الكنز أن يرفعوا رءوسهم مرة أخرى حتى نهاية العصر الفاطمى ، بالرغم من حالة الضعف التى هوت إليها تلك الدولة ، فالوزراء استبدوا بالنفوذ ، وصار الخلفاء الأواخر لعبة فى أيديهم . واستفحلت الأمور فى مصر لدرجة أن التسابق والصراع بين الوزراء جعل بعضهم يلجأ إلى التحالف مع الصليبيين . وكان ذلك فى الوقت الذى أخذ كل من نور الدين محمود والصليبيين فى الشام يتطلع للفوز بمصر . فأرسل نور الدين حملاته الثلاث المشهورة سنة ٥٥٩هـ (١١٦٤م) سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م) ، سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) بقيـادة أسد الدين شيركوه رافقه فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب . واستطاعت تلك الحملات أن تفتح مصر سنة ٥٦٤هـ .

1- Hassan El - Hawary , Trois Minarets Fatimides a' la Frontiere Nubienne , pp . 141-145 .

2- Ibid , pp . 148-150 .

٣- الخطط ، جـ١ ص٣٨١ .

وفي خلال تلك الأحداث ظهرت شخصية صلاح الدين الأيوبى ، الذى تمكن بعد وفاة عمه شيركوه في جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ (مارس ١١٦٩م) من الاستيلاء على مقاليد الأمور في مصر ، ثم توحيد مصر والشام في جبهة واحدة ضد الصليبيين .

وكانت أولى المشاكل التى واجهت صلاح الدين في مصر هي ثورة السودانيين - وعددهم يزيد على الخمسين ألفا - فتآمروا عام ٥٦٤هـ (١١٦٩م) للإطاحة به ، واتفقوا على مكاتبة الصليبيين ، ولكن عين صلاح الدين الساهرة استطاعت كشف تلك المؤامرة ، فدار بينه وبينهم قتال عنيف في شوارع القاهرة أدت إلى هزيمتهم[١] ، فهرب من نجا من القتل إلى أقاصى الصعيد وخاصة أسوان [٢].

ويبدو أن السودانيين الذين فروا إلى أقاصى الصعيد قد تجاوزوا أسوان واحتشدوا في بلاد النوبة ليوحدوا صفوفهم تمهيداً لإعادة الحكم الفاطمى . ونلمس ذلك بصورة واضحة عندما خرجوا لحصار أسوان عام ٥٦٨هـ (١١٧٢م) ، فأرسل كنز الدولة إلى صلاح الدين يعلمه بحصار أسوان ،ولم يتوان صلاح الدين ، فجهز جيشا كثيفا بقيادة الشجاع البعلبكى سار إلى أسوان لملاقاة السودانيين ، غير أن الأخيرين كانوا قد غادروها قبل وصولهم ، «فتبعهم ومعه كنز الدولة ، وواقعهم وقتل منهم كثيرا وعاد إلى القاهرة [٣].

ولاندرى ما هى الأسباب التى دفعت كنز الدولة للتعاون مع الأيوبيين ضد السودانيين ، ربما كان سبب ذلك أن بنى الكنز أملوا كسب ود الأيوبيين بصفتهم مؤسسى دولة جديدة يحققون من ورائها منافع لهم في أسوان . ونرجح أيضا أن بنى الكنز أحسوا بعدم مقدرتهم على مواجهة الفلول العديدة من السودانيين وقت حصارها لأسوان ، إذ من المحتمل أن النوبيين شاركوهم الحصار[٤]، فآثروا الميل إلى الأيوبيين ليتمكنوا من دفع ذلك الخطر . وكان في استطاعة بنى الكنز التعاون منذ البداية مع الجند السودانيين ضد صلاح الدين ، غير أنهم - كما يبدو - خشوا أن ينقلب السودانيون عليهم ، فيطيحوا بنفوذهم في أسوان . ونخرج من ذلك إلى أن بنى الكنز درسوا قوى الصراع الموجودة في مصر في ذلك الوقت ، فتبين لهم أن كفة صلاح الدين هى الراجحة ، ومن ثم دفعتهم المصلحة إلى التعاون مع صلاح الدين .

١- ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٥٦٤هـ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص١-٢ ؛ ابراهيم الحنبلى : شفاء القلوب ، ورقة ١٩أ .

٢- ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطاركة ، جـ٣ ورقة ١٣٠أ .

٣- أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ، جـ١ ص٢٠٨-٢٠٩ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ١ ص٥٠ .

4- Wiet , L'Egypte Arabe de la Conquete Arabe , p. 310 .

ومما يؤيد الرأى الذى وصلنا إليه ، أن كنز الدولة تبددت أحلامه عندما أقطع صلاح الدين أسوان لأحد أمرائه ، وهو أخو الأمير أبو الهيجاء السمين ، الأمر الذى أدى إلى تمرد كنز الدولة ، وثورته على صلاح الدين الأيوبى عام ٥٧٠هـ (١١٧٤م)[١]، وظهر هذا التمرد عندما قام كنز الدولة باغتيال أخى أبى الهيجاء السمين الذى آل إليه إقطاع أسوان . وتبدو لنا خطورة ذلك التصرف إذا علمنا أن أبا الهيجاء السمين من أكبر الأمراء الصلاحية فى ذلك الوقت [٢]. ثم تلى ذلك اتصال كنز الدولة ببقايا الشيعة والجند الفاطميين ، الذين نفاهم صلاح الدين إلى أقاصى الصعيد ، بسبب التخوف من تحركهم لإعادة الدولة الفاطمية [٣]. ونستطيع التأكيد بأن كنز الدولة اتصل ببقايا الشيعة والجند الفاطميين ، وحرضهم على إعلان الثورة ضد صلاح الدين ، إذ روى القاضى المؤرخ ابن شداد[٤] - أحد المعاصرين لصلاح الدين والمقربين إليه - أن كنز الدولة جمع حوله فى أسوان بعض العناصر الفاطمية والجند السودان وغيرهم ، وصور «لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة مصرية (فاطمية) » ، وبعد أن جمعهم تحت لوائه زحف بهم إلى قوص .

١- ابن خلدون : العبر ، جـ٥ ص٢٨٩ .

ونود أن نذكر هنا ، عندما قدم نجم الدين أيوب إلى مصر عام ٥٦٥هـ أقطعه ابنه صلاح الدين إقطاعا اشتمل على الاسكندرية والبحيرة ، وجعل لأخيه تورانشاه إقطاعا آخر اشتمل على « قوص وأسوان وعيذاب» وكانت عبرة إقطاع قوص وحده ١٠٠ ألف دينار . أنظر (المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٣٦ ؛ حسنين ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، ص٢٧) . ولكن يبدو أن صلاح الدين أعاد توزيع إقطاع تورانشاه على أمرائه ، لأننا نعرف أن تورانشاه توجه إلى اليمن لفتحها عام ٥٦٩ هـ .

٢- ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٥٧٠هـ .

٣- اتفق جماعة من الشيعة الفاطميين بمصر ، من بينهم الشاعر عمارة اليمنى وداعى الدعاة وحاشية القصر على المخامرة ضد صلاح الدين باستدعاء الصليبيين ، ولما كشفت المؤامرة أمر صلاح الدين بصلبهم جميعا ، ثم أمر بترحيل الشيعة والجند الفاطميين إلى أقاصى الصعيد . أنظر : ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٥٦٩ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٥ ص٢٨٧ - ٢٨٨ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ١ ص٥٣-٥٤ ؛ محمود الحويرى : العادل الأيوبى ، ص١٦-١٧ .

٤- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص٤٧ ؛ أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ص٢٣٥ .

ويبدو أن ثورة كنز الدولة والعناصر الفاطمية ، كانت أخطر أزمة واجهت صلاح الدين الأيوبى فى مصر ، بدليل أنه جهز جيشا كثيفا للقضاء عليها ، « من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم » ، ووضع أخاه الملك العادل سيف الدين أبى بكر الأيوبى على رأس الجيش ، فتقابل العادل مع كنز الدولة فى قرية طود القريبة من الأقصر، التى صارت مركز تجمع قوات كنز الدولة ، واشتبك الفريقان فى معركة قاسية انتهت بهزيمة كنز الدولة هزيمة ساحقة أدت إلى مصرعه ، والقضاء على معظم أتباعه فى ٧ صفر عام ٥٧٠هـ (سبتمبر ١١٧٤م) ، ثم عاد العادل الى القاهرة (١). ويقال أن ثمانين ألفًا من أتباع كنز الدولة قد قتلوا فى هذه المعركة (٢). وكان نتيجة إخماد تلك الثورة أن « أفنت بلاد أسوان والصعيد »(٣) .

وعلى أثر الضربة القوية التى كالها الأيوبيين لبنى الكنز غادرت الغالبية العظمى منهم أسوان إلى شمال النوبة ، وتركزت فى منطقة المريس ، وتلك الأغلبية هى التى اختلطت بالنوبيين ، واندمجت معهم بمرور الوقت ، وتأثرت اللغة العربية لبنى الكنز من جراء ذلك ، فلم تعد سليمة كما كانت من قبل ، وإن كانوا قد تعلموا اللهجة النوبية المحلية التى عرفت فيما بعد باللهجة الكنزية تمييزاً لها عن لهجة الفديجا ، واستفاد بنو الكنز من نظام الإرث السائد عند النوبيين ، الذى يمنح ابن البنت أو ابن الأخت حق الإرث دون ولد الصلب (٤). أما فيما يتعلق بالأقلية الضئيلة التى لم تغادر أسوان ، فإنها تبعثرت فى قرى أسوان ونواحيها ، نقية بعيدة عن النوبيين ، وما زالت موجودة بمحافظة أسوان حتى وقتنا الحاضر .

وفى منطقة المريس جنح بنو الكنز إلى السلم فترة طويلة ، فلم تذكرهم المصادر المعاصرة إلا بعد انقضاء قرن وربع قرن من الزمان . ففى عهد السلطان المملوكى المنصور قلاوون

١- ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص٤٧ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ١ ص٥٧ - ٥٨ ؛ ابراهيم الحنبلى : شفاء القلوب ، ورقة ٢٢ ب ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ، ورقة ٤٤ .

٢- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٦ ص١٦٥ .

٣- ابن خلدون : العبر ، جـ٥ ص٢٨٩ .

٤- المصدر السابق . جـ٥ ص٤٢٩ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٩٣ .

(٦٧٩-٦٨٩هـ / ١٢٧٩-١٢٩٠م) ، أرسلت حملتان ضد مملكة النوبة المسيحية عندما خرج ملوكها عن طاعة السلطان . فسارت الحملة الأولى فى ٦ ذى الحجة عام ٦٨٦هـ (يناير ١٢٢٨م) بقيادة الأمير علم الدين سنجر المسرورى المعروف بالخياط متولى القاهرة ، وكتب السلطان إلى الأمير عز الدين أيدمر السيفى متولى قوص يأمره بأن يشترك فى تلك الحملة بمن عنده من المماليك السلطانية المركزين بالأعمال القوصية ، وأجناد مركز قوص ، والعربان القاطنين فى هذه الأقاليم وهم : أولاد أبى بكر ، وأولاد عمر ، وأولاد شريف ، وأولاد شيبان، وأولاد الكنز ، وبنى هلال [١]. أما الحملة الثانية التى جاءتنا بأخبار بنى الكنز ، فقد وجهها المنصور قلاوون عام ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) لحسم الأمور بالنوبة ، وتقدم تلك الحملة جريس نائب ملك النوبة (صاحب الجبل) ومعه أولاد الكنز .. ليؤمن أهل البلاد ويجهز الإقامات » وما أن وصلت الحملة إلى جزائر ميكائيل متجهة إلى دنقلة ، حتى انفصل عنها جريس لأن منطقة نفوذه تقف عند تلك الجزيرة [٢].

وقد استفاد بنو الكنز من السياسة التى انتهجها السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى تعيين ملك مسلم على النوبة بدلا من ملك مسيحى ، فمن شأن تلك السياسة انتشار الإسلام فى مملكة دنقلة المسيحية ، وازدياد العنصر العربى فيها [٣]. فعندما علم كرنبس ملك النوبة بعزم السلطان على تعيين ملك مسلم على النوبة رشح ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين نصر بن فخر الدين مالك بن الكنز لذلك المنصب ، ولكن السلطان رفض تعيين كنز الدولة[٤] الذى ينحدر من أصل عربى صميم ، فضلا عن أن له أتباعًا كثيرين من العرب المقيمين فى بلاد النوبة ، وعين السلطان سنة ٧١٦هـ (١٣١٦م) عبدالله برشمبو - وهو نوبى سبق أسره فى إحدى الحملات التى كان يوجهها سلاطين المماليك - ملكا على النوبة بعد أسر كرنبس وأخيه أبرام ونقلهما إلى القاهرة . وكان برشمبو قد تربى فى بلاط مصر ، واعتنق الإسلام ، وتلقب

١- المقريزى : السلوك ، جـ١ ص٧٣٦-٧٣٧ .

٢- النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٩ ورقة ١١ - ورقة ١٢ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ١ ص٧٤٩-٧٥٠ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٨٣-٨٨ .

٣- سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٩٤ .

٤- النويرى : نهاية الأرب ، جـ٣ ورقة ٩٥ - ورقة ٩٦ ؛ ابن بهادر : فتوح النصر ، جـ٢ ورقة ٢٣٦ .

بسيف الدين ، غير أن كنز الدولة رأى أنه صاحب الحق فى تولى عرش مملكة النوبة طبقا لما هو متبع فى نظام الوراثة عند النوبيين ، فحارب الملك الذى عينه السلطان ، واستطاع قتله واغتصاب عرش النوبة ، ولم يتهاون السلطان ، فأسرع بإرسال أبرام لتولى مقاليد الحكم فى النوبة والقبض على ابن أخيه كنز الدولة ، وما أن وصل أبرام حتى قبض على مناوئه كنز الدولة ، ولكن وفاته المفاجئة أعادت كنز الدولة إلى عرش النوبة عام ٧١٧هـ (١٣١٧م) (١).

ولم يتوان السلطان الناصر إزاء تحدى كنز الدولة له ، فأرسل حملة إلى النوبة عام ٧٢٣هـ (١٣٢٣م) بصحبتها كرنبس لتولى عرش النوبة ، ولم تكد تصل إلى دنقلة حتى أسرع كنز الدولة بالهروب ، فاعتلى كرنبس العرش ، وبعد أن أدت الحملة مهمتها قفلت راجعة إلى مصر، وكأن تلك العودة كانت بمثابة إشارة لظهور كنز الدولة الذى أسرع بطرد خاله إلى أسوان، ونصب نفسه فى الحال ملكا على النوبة للمرة الثانية (٢).

على أن استيلاء بنى الكنز على عرش النوبة زاد من قوتهم فى تلك البلاد ، وخاصة إذا علمنا أن لهم أشياعًا كثيرين يتمثلون فى القبائل العربية التى تسربت إلى بلاد النوبة من قبل، وأضحوا قوة مناوئة لسلطنة المماليك الجراكسة ، فشملت الفوضى والاضطراب تلك البلاد التى غدت مصدر متاعب لمصر . واتجهت أنظار بنى الكنز إلى أسوان التى كان لهم فيها من قبل نفوذ واسع ، إذ أن إقفار بلاد النوبة وجدبها لايغرى على البقاء فيها ، بعكس أسوان التى تموج بتجارة الشرق ووسط أفريقية .

ومهما يكن الأمر ، فإن بنى الكنز دأبوا على مهاجمة أسوان والإغارة عليها بهدف استعادة نفوذهم القديم بها . فاقتحموا ثغرا أسوان عام ٧٦٧هـ (١٣٦٥م) ، وسيطروا على عيذاب فى الصحراء الشرقية ، ولما اشتد استهتارهم وعبثهم فى أسوان ، وجه السلطان شعبان (٧٦٤-٧٧٨هـ / ١٣٦٣-١٣٧٦م) حملة بقيادة أقتمر عبد الغنى لوضع حد لذلك ، واستطاع أقتمر بفضل الحيلة أن يقبض على بعض أمراء الكنز ، وأخذهم معه إلى القاهرة بعد

١- المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص١٦١-١٦٢ ؛ ابن حجر : عقد الجمان ، حوادث عام ٧١٦هـ .

٢- ابن حجر : عقد الجمان ، حودات عام ٧٢٣هـ ؛ ابن بهادر : فتوح النصر ، ورقة ٢٥٠ ؛
Mac Micheal , AHist . of . of the Arabs in the the Sudan ., vol . I ., p.187 .

٣- المقريزى : السلوك ، جـ٣ ص١٠٩-١١٢ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ١ القسم الثانى ، ص٢٩-٣١ .

أن نودى فى أسوان « بالأمان والانصاف من أولاد الكنز»[١]. ويبدو أن السلطان شعبان تنبه إلى ضعف قبضة السلطنة على أسوان ، فعزم على إحكام السيطرة عليها ، فكان أول ما فعله حرصه على اختيار أحد الولاة يستطيع مواجهة بنى الكنز . فاختار لها واليا اسمه الحسام عرف بالدم الأسود ، وسلمه أولاد الكنز المسجونين . وسار الدم الأسود إلى أسوان فى ذى القعدة عام ٧٦٧هـ لتولى منصبه ، وفى طريقه توقف فى قوص وسمر[١] أولاد الكنز جميعا ، ومضى بهم مسمرين من قوص إلى أسوان حيث وسّطهم[٢] بها[٣] . وقد فعل الدم الأسود ذلك إنذاراً لبنى الكنز بسوء العاقبة إذا هم حاولوا نشر الفوضى بأسوان . غير أن النتيجة لم تكن كما توقع . فقد ثاروا وغضبوا من جراء ذلك الفعل ، وأتوا إلى أسوان فى جمع حاشد ، حيث دارت بينهم وبين الدم الأسود معركة دامية عنيفة ، انتهت بانتصارهم على الدم الأسود والفتك به ، ثم مالوا على أسوان ، فخربوها وأشعلوا فيها النار ، وقتلوا جمعًا من أهلها ، ونهبوا ما بها ، وأسروا نساءها ، «وفعلوا كما فعلت الفرنج بالإسكندرية »[٤]. وهكذا فشل السلطان

١- التسمير : عقوبة تقضى بتعرية المحكوم عليه من الثياب ، ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب ، وتدق أعضاؤه فى الخشب بواسطة مسامير غلاظ . أنظر سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٤٠١ .

٢- التوسيط : عقوبة تقضى بضرب المحكوم عليه بواسطة السياف ، على أن تكون الضربة قوية تحت السرة ، فتقسم الجسم نصفين من وسطه وتنهار أمعاء المحكوم عليه إلى الأرض ، أنظر سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٤٠٣ .

٣- المقريزى : السلوك ، جـ٣ ص١٢٣ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ القسم الثانى ، ص٤٠-٤١ .

٤- المقريزى : السلوك ، جـ٣ ص١٢٣ . أما جملة المقريزى التى تقول : « وفعلوا كما فعلت الفرنج بالإسكندرية » ، فهو يقصد بذلك الحملة الجريئة التى قام بها بطرس الأول لوزجنان ملك قبرص ضد مدينة الإسكندرية عام ١٣٦٥م . فقد انتهز ذلك الملك فرصة ضعف دولة المماليك فى عهد السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون ، وغياب نائب الاسكندرية ، فأنزل قواته على شاطئ المدينة ، واحتلها فى ١٠ أكتوبر . وتدفقت قواته فى شوارع المدينة ، فأخذت تحرق المساجد ، وتخرب الخانات ، وتدمر المنازل ، وتعتدى على النساء والأطفال والشيوخ ، وتنهب كل ما وصلت إليه من بضائع وأموال ، وقضى الصليبيون فى المدينة حوالى ثلاثة أيام كانت من أسود الأيام فى تاريخها ، ولم يغادروها إلا بعد أن شعروا بقرب جيوش المماليك التى غادرت القاهرة لإنقاذ المدينة . أنظر النويرى الاسكندرانى : كتاب الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الاسكندرية ، جـ٣ص٦٤-٦٨ ؛ سعيد عاشور: العصر المماليكى، ص١٢٩-١٣٣ .

شعبان فى قمع بنى الكنز الذين ردوا على تحديه بإجراء أشد عنفا وقسوة ، فقتلوا واليه ، وأعقبوا ذلك بإقامة مذبحة فى أسوان .

ومن المسلم به أن النفوذ الفعلى للولاة فى أسوان فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر للميلاد) صار لايتعدى حدود أسوارها ، فبنو الكنز ضيقوا عليها الخناق من جميع الجهات فيما عدا الجهة الشمالية . وقد حاول المماليك بعد ذلك إعادة نفوذهم على أسوان وإبعاد بنى الكنز عن مشارفها ، وأحرزوا نجاحًا ضئيلاً إلى حد ما . وليس أدل على ذلك من الطريقة التى اتبعها «قرط بن عمر» - وهو من التركمان - والى أسوان فى دفع بنى الكنز عن مشارف المدينة ومداخلها . فبدلا من أن يقف مكتوف الأيدى فى انتظار هجوم مفاجئ من قبل بنى الكنز كما هى عادة الولاة من قبله فى دولة المماليك الجراكسة ، فإنه أول وال كسر تلك القاعدة ، إذ بادر بالإغارة على بنى الكنز عام ٧٨٠هـ (١٣٧٩م) واستطاع القبض على أحد عشر زعيما من زعمائهم ، فقتلهم وبعث برءوسهم إلى القاهرة ، حيث علقت على باب زويلة ، ولم يكتف بذلك ، بل أرسل مائتين من بنى الكنز فى الحديد ، حيث بيعوا فى أسواق الرقيق [1]. ويبدو أن ذلك العمل الجرئ الذى قام به قرط أدهش معاصريه . فقد علق المقريزى[2] على ذلك قائلا : « ولم يعهد هذا من قبل» . كما عاب ابن حجر[3] (ت٨٥٢هـ) الأسلوب الذى مارسه قرط مع بنى الكنز ، والذى كان من جراء عنفه وقسوته أن صاروا مصدراً للشر والشغب ، وآل الأمر فيما بعد إلى أن خربت أسوان بأيديهم ، وجلا عنها أهلها ، واستولى بقاياهم عليها .

ولم يتهاون قرط فى ضبط الأمور بأسوان،فضلا عن أن عينه لم تغفل عن رقابة تصرفات بنى الكنز ورصد تحركاتهم فاستطاع أن يضبط كتبا أرسلت من غلام الله مشد الشرابخاناه[4]

١- ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ١ ص١٧٥ ؛ عقد الجمان ، حوادث عام ٧٨٠هـ .

٢- السلوك ، جـ٣ ص٣٣٩ .

٣- إنباء الغمر ، جـ١ ص١٧٩ .

٤- مشد أو شاد وتعنى هذه الكلمة مفتش ، فيقال شاد الدواوين أى الذى يفتش على الدواوين ، ومثله شاد الجوالى وشاد الزكاة ... والشرابخاناه كلمة تعنى بيت الشراب الذى يحوى مختلف أنواع الأشربة - ومنها الأدوية - التى يحتاج إليها السلطان ، فضلا عن الأوانى النفيسة المصنوعة من الصينى الفاخر ، أنظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ص١٠ ، المقريزى : السلوك ، جـ١ ص١٠٥ حاشية ٢ ؛ سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٤٢٧ .

يستعين فيها ببنى الكنز ، يحرضهم على المجئ إلى القاهرة بهدف الإطاحة بالسلطان برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ / ١٣٨٢-١٣٩٩م) [١]. كما ضبط أيضا عدة سيوف بعث بها غلام الله إلى بلاد الكنز ، كتب عليها اسم غلام الله ، فأحضرها قرط إلى القاهرة ، وعرضها على السلطان فأمر باعتقال غلام الله [٢]. ومن المستبعد أن يكون فى استطاعة بنى الكنز الاشتراك فى مؤامرة ضد السلطان برقوق لانشغالهم بالاستيلاء على أسوان من ناحية ، وعدم قدرتهم على مواجهة المماليك بعيداً عن أقاصى الوجه القبلى من ناحية أخرى .

ويبدو أن قرط دوخ بنى الكنز وكسر شوكتهم ، خلال مدة ولايته على أسوان . فقد جاءت الأخبار أن قرط أتى إلى القاهرة فى ١١ محرم عام ٧٨١ هـ (ابريل ١٣٧٩م) وأحضر برفقته رجلين من أولاد الكنز ، فسمرهما ، وطيف بهما القاهرة ومصر للتشهير بهما ، ثم أخيراً وسطا ؛ وقد استنكر المقريزى[٣]- مثلما استنكر ابن حجر من قبل - أفعال قرط مع أولاد بنى الكنز فى منطقة أسوان ، ولام عليه شدة تعسفه معهم وكان من رأيه أن سلطنة المماليك كان الأفضل لها أن تتبع سياسة أكثر حكمة مع أولاد الكنز ، بدلا من سياسة التنكيل والإرهاب والتشهير التى أدت فى النهاية إلى ضعف نفوذ الدولة فى أسوان ، وخروج بنى الكنز من الطاعة مع كثرة فسادهم ، حتى خرجت أسوان من أيدى الدولة ، وتلى ذلك خرابها .

ولم يعد بوسع دولة المماليك الجراكسة أن تضع حداً لهجمات بنى الكنز على مدينة أسوان بعد أن عزل قرط من ولايتها . ذلك أن نفوذ تلك الدولة على أسوان كان يستمر لفترة مؤقتة، يعاود بعدها بنو الكنز هجومهم على أسوان ، واقتحامها ، ففى رجب عام ٧٨٧هـ (أغسطس ١٣٨٥م) عاد بنو الكنز للإغارة على أسوان فتمكنوا منها ، وقتلوا من وجدوه بها إلا القليل، ثم نهبوها ، ولم يستطع الوالى ردعهم ، ففر بجلده إلى قوص[٤] ، تاركا أسوان نهبا للفوضى والخراب .

١- ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ١ ص، ١٧٩

٢- المقريزى : السلوك ، جـ٣ ص٣٥٢ .

٣- نفس المصدر والمكان .

٤-المقريزى : السلوك ، جـ٣ ص٥٣٤ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ١ ص٣٠٢ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ص١١٩ .

ومن العوامل التى أدت إلى تراخي قبضة المماليك الجراكسة فى السيطرة على أسوان، ومهدت لسقوطها فى أيدى بنى الكنز ، ثورات العربان بالوجه القبلى وخاصة فى أقصاه . فمن المعروف أن العربان كانوا شوكة فى حلق المماليك الجراكسة بعد أن تضاعف شأنهم وقوى بأسهم . ولم يعد الجراكسة بقادرين على قمع ثورات العربان كما فعل أسلافهم العظام من دولة المماليك البحرية . وكان أن تحالفت القبائل العربية الموجودة بالصعيد الأعلى للقيام بعمل عدائى مشترك ضد المماليك الجراكسة . من ذلك تحالف قبيلة هوارة مع قبيلة بنى الكنز ، واتفاقهما على مهاجمة أسوان . ففى عام ٧٩٨هـ (١٣٩٥م) توجه نوروز الحافظى إلى الصعيد لقتال هوارة ، وتمكن من القبض على زعيم تلك القبيلة على بن غريب وأهله ، وأربعة وثلاثين فرداً من أكابر عربانه ، فأمر السلطان برقوق بسجنهم ، الأمر الذى أغضب أنصار على بن غريب ، فوثبوا على نائب الوجه القبلى وقتلوه ، ثم احتشدوا فى جموع غفيرة ، وزحفوا على أسوان ، واتفقوا مع بنى الكنز على اقتحام أسوان ، فأطبقوا عليها بغتة من الشمال والجنوب ، فلم يستطع واليها الصمود أمام القوتين ، فأسرع بالهروب إلى ملك النوبة ناصر ، وبعد أن نهبت هوارة وبنو الكنز أسوان غادروها ، وعند ذلك جرد برقوق حملة إلى أسوان لمحاربة العربان ودفع فسادهم ، إلا أنها لم تظفر بفرد منهم [١].

وهكذا ظلت أسوان فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، كالكرة يتلقفها سلاطين المماليك تارة ، ويتلقفها بنو الكنز تارة أخرى . وقد أدت تلك المحاورة بين القوتين إلى سرعة تدهور أسوان ، وبعبارة أخرى لم يعد بوسع سلطنة المماليك الجراكسة الاحتفاظ بأسوان إلا لأمد محدود ، تعود بعدها - كما ذكرنا - نهبا لعبث بنى الكنز .

ومن جراء كثرة الحروب التى دارت بين بنى الكنز وولاة أسوان فى نهاية القرن الثامن الهجرى ، لم يستطع المقريزى[٢] أن يحدد لنا - بدقة - التاريخ الذى وضع فيه بنو الكنز يدهم بصفة نهائية على أسوان. ذلك أنه روى أن بنى الكنز استولوا على أسوان من بعد عام ٧٩٠هـ

١- المقريزى : السلوك ، جـ٣ ص٨٣٤ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ١ ص٣٠٢ ؛ ابن الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ص١١٩ .

٢- المقريزى : السلوك ، جـ٣ ص٨٦٠-٨٦١ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ١ ص٥١٢ - ٥١٣ .

(١٣٨٨هـ) . والمقريزى على حق فى ذلك ، فإن الأخبار وردت أن أولاد الكنز قتلوا والى أسوان الصارم إبراهيم الشهابى فى ٢ محرم سنة ٨٠١هـ (سبتمبر ١٣٩٨) ، وعين السلطان بدلا منه الأمير زين الدين مقبل أحد المماليك السلطانية [١]. ويلوح لنا من ذلك أن بنى الكنز قد دخلوا أسوان ، واستعادوا نفوذهم فيها على الرغم من إبدال وال بآخر . وتلى ذلك المحن التى حلت بالبلاد عام ٨٠٦هـ (١٤٠٤م) فى عهد السلطان فرج ، فشمل الخراب الصعيد بأسره ، «وارتفعت يد السلطنة عن ثغر أسوان ، ولم يبق للسلطان فيه وال» [٢].

وعلى أية حال ، فإن الهجمات العديدة التى وجهها بنو الكنز إلى أسوان دون ما شفقة أو رحمة ، مكنتهم من العودة إلى أسوان حلمهم القديم . ولكنهم - للأسف - عادوا إليها بعد أن كانوا أحد الأسباب الرئيسية فى خرابها وانهيارها ، وجلاء معظم أهلها عنها . فلم تعد أسوان فى بداية القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، كما كانت من قبل «ثغراً من أعظم ثغور المسلمين ، فلم يبق به أمير ولاكبير، ولاسوق ولابيت» [٣].

وجدير بالذكر أن الحروب التى خاضها بنو الكنز مع سلطنة المماليك الجراكسة ، بهدف السيطرة على أسوان واستعادة نفوذهم فيها ، قد استنفدت قواهم وأجهدتهم ، ولم يعد ذلك النفوذ يتمثل كما كان قبل العصر الأيوبى (٥٦٧-٦٤٨هـ / ١١٧١-١٢٥٠م) فى فرض نوع من السيادة الارستقراطية على القبائل العربية الموجودة فى منطقة أسوان . وليس أدل على ذلك من أن قبيلة هوارة زحفت إلى أسوان فى المحرم عام ٨١٥هـ(١٤١٢م) ، واشتبكت فى حروب مع أولاد الكنز انتهت بهزيمتهم ، وقتل كثيرين من أهلها ، وسبى نسائها وأطفالها ، وبعد أن قامت هوارة بهدم سور المدينة قفلت راجعة بسببها تاركة أسوان خرابا يبابا ، واستمر الوضع بأسوان على ذلك[٤] ، إلى أن جاء السلطان العثمانى سليم الأول مصر ، وفتحها عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م) .

١- المقريزى : السلوك ، جـ٣ ص٩١٦ .

٢- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٩٧-١٩٨ .

٣- المقريزى : السلوك ، جـ٣ ص٢٢٧ ؛ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، حوادث عام ٨٠٦هـ .(طبعة كاليفورنيا) .

٤- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٩٨ .

ب- غارات النوبيين على أسوان

سبق أن ذكرنا أن حدود مصر الجنوبية كانت - عند الفتح العربى لمصر - تنتهى عند أسوان وما يليها جنوبا لبضعة أميال ، وأن ما يقع جنوبى ذلك كان يدخل فى نطاق نفوذ مملكة النوبة المسيحية ، والواقع أن تلك الحدود كانت سياسة أكثر منها طبيعية .

ومن المعروف أن المسيحية تسربت من مصر إلى النوبة ببطء ، قبل أن يعترف الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧م) بالمسيحية [١]. فقد فر إلى بلاد النوبة كثير من الرومان وخاصة فى عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) الذى يعرف عصره فى مصر بعصر الشهداء . وفى عهد قسطنطين الكبير انتشرت المسيحية فى مصر والسودان والحبشة ، وشقت طريقها بعيداً فى جنوب السودان حتى النيل الأزرق[٢] ، وفى الوقت الذى وصلت أولى البعثات التبشيرية إلى بلاد النوبة فى منتصف القرن السادس الميلادى ، إذا بمنطقة الشلال تموج بالديانة المسيحية .

ويرى البعض أن سيلكو Silko هو أول ملك نوبى مسيحى فى بلاد النوبة السفلى ، حيث أسس عرشه فى مدينة دنقلة القديمة ، التى تبعد حوالى مائة ميل من نوباديا أو نوباتيا أسفل الشلال الرابع . وفى القرن السادس الميلادى خاض سيلكو عدة حروب ضد البليميين Belm-myes (البجة) الذين أسسوا لهم مستوطنات فى النوبة السفلى ، وقد انتهت تلك الحروب بانتصاره عليهم وطاردهم من أبريم حتى الشلال الأول ، حيث رجعوا إلى أوطانهم بالصحراء الشرقية [٣].

وفى حوالى سنة ٥٦٣ هـ أمر الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) قائده نارسيس Narses بالتوجه إلى فيلة والقضاء على عبادة إيزيس ، التى استمرت مزدهرة هناك ، على الرغم من المرسوم الذى أصدره الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٨-٣٩٥) وأعلن فيه بطلان العبادات الوثنية . وقد قام نارسيس بمهمته خير قيام ، إذ قبض على كهنة إيزيس وأوزوريس

1- Kirwan , Studies in the Later History of Nubia , p.96 .

2- Wallis Budge , Texts Relating to Saint Mena of Egypt, p.2 .

3- Ibid , pp . 2-3 .

وزج بهم فى السجن ، كما صادر أموال معبد إيزيس الكبير ، وحمل تماثيل آلهته - التى كانت من المعادن الثمينة - إلى القسطنطينية [١]. ويميل البعض إلى أن الإمبراطورة تيودورا قد اتفقت مع سيلكو على إرسال مبعوث خاص يدعى چوليان - وهو أحد رجال الكنيسة المصرية - للتبشير بين أهل النوبة ، وقد أخبرت زوجها چستنيان بما عزمت عليه ، ولكنه أبى، وقرر أن يرسل أسقفا من قبله للقيام بهذه المهمة . غير أن تيودورا سارعت بإرسال چوليان ، فوصل إلى بلاد النوبة بمساعدة دوق طيبة البيزنطى ، قبل أن يصل إليها الأسقف الذى أرسله زوجها . وقد نجح چوليان فى تعميد ملك النوبة وكبار رجال دولته ، وتحويل النوبيين إلى المسيحية . وقبل أن يعود چوليان عهد إلى ثيودور أسقف فيلة برعاية شئون الكنيسة النوبية، حيث قام بتحويل جزء من معبد إيزيس إلى كنيسة ، ومحى أشكال آلهة المصريين [٢].

وتدل الشواهد على أنه فى منتصف القرن السادس الميلادى قد شيدت كنيستا سانت ڤيكتور ومريم المباركة The Blessed Mary فى أسوان ، وليس لدينا أية وسيلة نتعرف بها كيف تحولت المعابد النوبية الوثنية إلى كنائس . كما لايمكننا تحديد التواريخ التى بنيت فيها الكنائس الأولى النوبة ، باستثناء كنيسة مريم التى يبدو أنها بنبت فى أبريم فى أواخر القرن السادس أو السنوات الأولى من القرن السابع للميلاد [٣].

وعلى أية حال ، فإن المسيحية سادت النوبة السفلى حوالى منتصف القرن السابع الميلادى، بدليل أننا لم نعثر على قبور وثنية متأخرة عن ذلك ، ومن العوامل التى أدت إلى انتشار المسيحية فى النوبة ، هجرة المسيحيين إليها من الشمال من جهة ، وإعادة التنظيم السياسى لممالك النوبة من جهة أخرى[٤] وبعد استقرار المسيحية فى بلاد النوبة نجد ثلاث ممالك هى[٥]:

١- النوبة : ويطلق عليها أحيانا المريس ، وكان حدها من أسوان إلى كروسكو، وعاصمتها فرس .

1- Ibid , p.3 .

2- Ibid , pp . 3-4 .

3- Kirwan , Studies in the Later Hist . of Nubia , pp . 97-99 .

4- Ibid , p.104 .

٥- المقريزى : البيان والإعراب ، ص٢٥ .

٢- المقرة : وهى تلى النوبة جنوبا ، وقد تسمى مملكة دنقلة ، وعاصمتها دنقلة ، وكانت بلدة أبو حمد تقريبا حدها الجنوبى الذى يفصل بينها وبين مملكة علوة .

٣- علوة : وهى التى تلي المقرة جنوبا ، ويطلق عليها أيضا مملكة سوبا باسم العاصمة ، وكانت عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق .

وفيما بين عامى ٥٨٠ و ٦٥٢ م ، صارت مملكة النوبة ومملكة المقرة التى تحدها جنوبا ، مندمجتين فى مملكة واحدة ، عاصمتها دنقلة [١].

وعرفت المنطقة المتاخمة لحدود مصر الجنوبية باسم المريس[٢] . وتبدأ تلك المنطقة عند قرية القصر التى سبق ذكرها كحد شمالى لمملكة النوبة المسيحية[٣] ، وينتهى حدها الجنوبى عند قرية المقس الأعلى فى الشلال الثانى ، ولايستطيع أحد عبور تلك القرية إلا بعد تفتيش وإعطائه تصريحا بالمرور ، حتى «ولو كان ملك الملوك ، ومن جار وخالف قتل » [٤].

ولم تكن العلاقة بين مصر الإسلامية ومملكة النوبة المسيحية سليمة على طول الخط ، بل تخللتها حروب ومناوشات ، وتمثلت تلك الحروب والمناوشات فى شكل هجمات وغارات على حدود مصر الجنوبية . ومن البديهى أن أسوان بحكم موقعها الجغرافى فى نهاية الحد الجنوبى لمصر ، كانت تمثل خط الدفاع الذى حاول النوبيون اختراقه كلما تأزمت العلاقة بينهم وبين مصر .

وفى دراستنا لإغارات مملكة النوبة المسيحية على أسوان ، لن نتناول أحداث العلاقة بين مصر والنوبة فى العصور الوسطى تفصيليا ، لأن هذا يخرج بنا عن إطار دراستنا ، ولكننا سنمس تلك العلاقة مسًا خفيفًا عندما تكون أسوان محورها ومدارها .

والجدير بالذكر أن المعلومات التى وصلتنا من المؤرخين العرب عن أول صدام حدث بين المسلمين والنوبيين مضطربة إلى حد ما . فعندما تم فتح العرب لمصر ، بعث عمرو بن العاص

1- Kirwan , Studies in the Later hist . of Nubia , p. 105 .

٢- المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ص١٨ .

٣- أنظر المقدمة .

٤- أبو صالح الأرمنى : تاريخه ، ورقة ٩٥ أ - ٩٥ب .

نافعًا بن عبد القيس الفهرى على رأس فرقة من الخيالة بهدف غزو النوبة ، ويبدو أن تلك الغزوة لم تحمل معها فكرة الفتح التام ، لأن الفرقة رجعت من حيث أتت بعد أن حلت بها الهزيمة على أيدى النوبيين [١]. وأعقب ذلك أن أرسل عمرو حملة أخرى بقيادة عبدالله بن سعد أبى سرح لغزو النوبة عام ٢١هـ ، إلا أن غزوها استعصى عليه أيضا [٢]. وإزاء ذلك النجاح الذى حققه النوبيون فى صد غزوات المسلمين عن أراضيهم ، فإنهم بادروا بشن إغارات متقطعة على أسوان لقربها منهم [٣]، ألحقت بها الضرر . واستمر النوبيون يشنون الإغارات المتقطعة على أسوان بضع سنوات حتى اختير عثمان بن عفان خليفة للمسلمين [٤]، فعين عبدالله بن ابى سرح واليا على مصر بدلا من عمرو بن العاص . ويبدو أن أبى سرح كان عازما على وضع حد لإغارات النوبيين على أسوان . فسار على رأس حملة مجهزة إلى بلاد النوبة ، وأوغل بجنده جنوبًا حتى وصل إلى دنقلة عاصمة البلاد ، ففرض عليها حصاراً عنيفًا ، واشتد القتال ، الأمر الذى أجبر ملك النوبة قليدورون فى دنقلة على طلب إيقاف القتال ، وانتهت الحملة بمعاهدة عقدت بين مصر والنوبة عام ٣١هـ (٦٥١م) عرفت «بالبقط»[٥] . وقد جاء بند

١- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص٢٢٧-٢٢٨ ؛
Trimingham , Islam in the Sudan , p. 60 .

٢- المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص١٩٩ .

3- Trimingham , op . cit , p . 60 .

٤- بتلر : فتح العرب لمصر ، ص٣٧٥ .

٥- البقط كما أورد المقريزى هو ما يقبض من سبى النوبة فى كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم ، وإن كانت هذه الكلمة عربية ، فهى إما من قولهم بقط أى نبذ من مرعى ، فيكون معناها نبذة من المال ، والبقط من سقط التمر . وكان البقط يؤخذ من النوبة فى قرية القصر على بعد خمسة أميال جنوبى أسوان كل عام (الخطط ، جـ١ ص١٩٨-١٩٩) .

ويجتهد الباحثون فى أصل لفظ البقط ، فمنهم من يرجعها إلى أصل لاتينى Pactum أى الاتفاق بين طرفين متساويين، ومنهم من يرجع الكلمة إلى أصل مصرى قديم وهو باك ومعناها الضريبة التى تدفع عينا.

ومعاهدة البقط تقضى أن يدفع ملك النوبة إلى مصر ٣٦٠ رأسا من الرقيق كل عام ، ويدفع للوالى بمصر أربعين رأسا ، ووالى أسوان الذى يتولى تسليم الرقيق عشرين رأسا ، ورسول الوالى الذى يحضر إلى أسوان خمسة ، وفى نظير ذلك يمد المسلمون النوبة بألف أردب من الغلال وحبوبا أخرى كالعدس والأقمشة (أنظر ، المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ص٢١-٢٢) ؛ Ency . of Islam . Art. Bakt

فى تلك المعاهدة ألا يقوم المسلمون بغزو النوبة ، ولايغزو أهل النوبة المسلمين ، أى أنها معاهدة أمن وسلام بين الطرفين[١] وبعبارة أخرى يمكننا أن نفسر تلك المعاهدة بأنها معاهدة حسن جوار يحقق للمسلمين الاطمئنان على سلامة حدودهم من ناحية الجنوب [٢]، مما يوضح أنه لم يكن فى نيتهم ضم بلاد النوبة لنفوذهم .

وهنا يثار تساؤل ، هل تمسك ملوك النوبة بحرفية معاهدة البقط ، ونفذوا بندها الذى تضمن عدم الاعتداء على حدود مصر الجنوبية ؟ الواقع أنهم نقضوا تلك المعاهدة ، وامتنعوا أحيانا عن الالتزام بما جاء بها من شروط [٣]. غير أنهم كانوا يختارون الوقت المناسب لنقضها ، فما أن يشعروا بضعف الحكومة المركزية فى مصر ، حتى يبادروا إلى اغتنام الفرصة ، ويسددوا ضرباتهم إلى أسوان بوصفها آخر حدود مصر الجنوبية . ونلمس ذلك عندما أحس النوبيون باضطراب الأحوال فى أواخر عهد الدولة الإخشيدية ، فقد أغار ملك النوبة على أسوان عام ٣٤٤هـ (٩٥٦) وقتل جمعا من المسلمين بها ، فخرج إليه محمد بن عبدالله الخازن – من قبل أونوجور بن الإخشيد – على رأس حملة برية وبحرية ، التقت بالنوبيين على أرض أسوان ، وتمكنت من هزيمتهم ، وأرسل الخازن بعض أسرى النوبيين إلى مصر حيث ضربت أعناقهم ، ولم يكتف بذلك ، بل طارد فلولهم فى بلاد النوبة حتى وصل أبريم ، ثم عاد إلى مصر فى منتصف جمادى الأولى عام ٣٤٥هـ (٩٥٧م) ومعه مائة وخمسون أسيراً وعدد من رءوس القتلى[٤] . وبعد وفاة أنوجور فى ٧ ذى القعدة عام ٣٤٧هـ (يناير ٩٥٩م) ، أقام كافور أخاه على بن الإخشيد أبا الحسن واليا على مصر فى ١٣ ذى القعدة من نفس العام ، وإن كانت السلطة الحقيقية ظلت فى أيدى كافور . وإذا ألقينا نظرة على أحوال مصر الداخلية والخارجية ألفيناها قد زادت سوءاً على سوء ، فبلاد الشام قد نكبت بغزو فالقرامطة ،

١– ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص٣٥٢ .

٢– مصطفى مسعد : الإسلام والنوبة ، ص١١٥ .

٣– حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية ، ص٢٨٤ .

٤– المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٩٧ ؛ مكى شبيكة : السودان عبر القرون ، ص٣٢ ؛ سيدة كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٣٥٨–٣٥٩ .

ضلا عن وقوع الزلازل بمصر ، وتزايد الغلاء بها [١]. ولم يتهاون النوبيون فى اغتنام الفرصة فعاودوا الإغارة على أسوان للمرة الثانية عام ٣٥١هـ (٩٦٢م) واستطاعوا اقتحامها ،وقتل وسبى الكثير من أهلها ، ونهب قراها ، وليت الأمر وقف عند ذلك الحد ، بل استطاع ملك النوبة أن يزحف بقواته حتى وصل إلى أخميم [٢]. وكان فى زحفه يقتل الأبرياء ، وينهب الأهالى ، ويحرق المدن والقرى والنواحى ، الأمر الذى أدى إلى انتشار الفوضى فى إقليم الصعيد [٣]. وإذا كان من واجب الدولة الإخشيدية أن ترد عدوان النوبة ، إلا أن المصادر لم تفسر لنا الإجراء الذى اتخذته ، ومن المحتمل أن الدولة الإخشيدية وقفت فى وجه ملك النوبة عند أخميم ، وأبطلت زحفه شمالا ، فاضطر للتقهقر جنوبا وراء حدود مصر .

وإذا كان النوبيون قد أغاروا مرتين على أسوان إبان الدولة الإخشيدية ، إلا أنهم لم يتعرضوا لها طوال العصر الفاطمى ، بل إن الدولة الفاطمية حققت صلة من حسن الجوار والمسالمة بينها وبين النوبة المسيحية[٤] . ومما يلفت النظر أن تلك الدولة بالرغم مما أصابها من ضعف وذبول فى أواخر عهدها ، فإن المصادر التى اطلعنا عليها لم ترد فيها إشارة صريحة لمحاولة النوبيين الإغارة على أسوان . وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن مدينة أسوان كانت محصنة جداً فى عهد الفاطميين ، بحيث لايستطيع أحد أن يقصدها من النوبة ، فضلا عن تواجد جيش دائم بها للمحافظة عليها [٥]. وربما يرجع السبب أيضا إلى قبيلة ربيعة - التى عرفت بقبيلة الكنز - التى استقرت فى أسوان فى القرن التاسع الميلادى ، وانتعش نفوذها فى القرن العاشر ، إذ بفضلها ازدادت قوة العرب فى أسوان . ويبدو أن الصلة بين بنى الكنز فى أسوان وملك النوبة المسيحى ، كان يسودها حسن التفاهم . ويدل على ذلك أن كنز الدولة هو الذى استطاع القبض على الثائر أبى ركوة عندما توغل فى بلاد النوبة . ومما يدل أيضا على

١- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٣٢٨ ؛ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٣ ص٣٢٥ - ٣٢٦ .

٢- أخميم أحد مراكز محافظة سوهاج على الضفة الشرقية (النجوم الزاهرة ، جـ٥ تعليق محمد رمزى) .

٣- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٣٢٩ ؛ ابو المحاسن : النجوم ، جـ٣ ص٣٢٦ .

٤- مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ، ص١٣٣ .

٥- ناصر خسرو : سفرنامة ، ص٧١ ؛ المقريزى : الخطط جـ١ ص١٩٧ .

العلاقة الودية الممتازة بين مصر والنوبة ، ما حدث سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) ، ففى هذا العام تنازل سلمون ملك النوبة عن العرش لابن أخته جورج ، ومضى إلى دير القديس أونوفريوس Anba Saint Onuphrus الواقع على مسيرة ثلاثة أيام من الحدود النوبية وعشرة مراحل من أسوان ، للعبادة والتأمل الروحى ، غير أن والى أسوان الفاطمى سعد الدولة القواسى استطاع بمعاونة بنى الكنز الوصول إلى موضع سلمون والقبض عليه ، « وحمله إلى القاهرة ، فأكرمه أمير الجيوش (بدر الجمالى) ؛ وأفاض عليه النعم ، وأتحفه بالهدايا الجليلة ، فأدركه أجله ومات قبل أن يعود إلى بلاده » ، فدفن فى دير القديس مارى جرجس فى القاهرة [1].

والواقع أن النوبة فى نهاية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) شهدت تغيراً ، فالإسلام غدا منتشرا فى منطقة المريس ، وأضحى العرب الذين هاجروا إلى تلك المنطقة مستقلين من الناحية العملية ؛ ومن السمات المميزة أيضا لنهاية ذلك القرن ازدياد الهجرات العربية الآتية من مصر بعيداً عن السلطة الحاكمة فيها [2]. وقد أفادت تلك القبائل فى تعزيز قوة الدفاع الموجودة فى أسوان .

وقد فكر صلاح الدين الأيوبى فى تأمين الحدود الجنوبية لمصر حتى يمكنه التفرغ للجهاد ضد الصليبيين ، فبادر بإرسال حملتين إلى أسوان عام ٥٦٨هـ (١١٧٢م) ، ومن المحتمل أن النوبيين شاركوا السودانيين فى ذلك الحصار ، فقد جاء ذكرهم فى المصادر المعاصرة « العبيد من بلاد النوبة » ، وقبل أن يصل الشجاع إلى أسوان أسرع السودانيون والنوبيون بفك الحصار بعد أن أتلفوا أرضها ، فسار الشجاع فى أثرهم ، ودارت بينه وبينهم حرب «قتل فيها من الفريقين عالم عظيم » ، أى لم يكن غالب ولامغلوب ، ثم رجع الشجاع إلى القاهرة ، وأخبر صلاح الدين الأيوبى «بفعال العبيد وتمكنهم من بلاد الصعيد» [3]. ويبدو أن صلاح الدين اهتم بالتقرير الذى وضعه الشجاع أمامه عن السودانيين فى النوبة ، فقد أدرك أنهم سيكونون مصدر متاعب جمة له إذا لم يقض عليهم ، فأسرع بإرسال أخيه شمس الدولة تورانشاه على

١- ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص٢٦ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٣٢٠ ؛

Yuauf Fadle Hasan , The Arabs and the Sudan , pp . 22-93 .

2- Mac Michael , The Coming of the Arabs to the Sudan , p. 53 .

٣- ابو شامة : الروضتين ، جـ١ ص٢٠٨ ؛

Wiet , Precis de L` Histoire L`Egypte , vol . 2 . p . 219 .

رأس جيش كبير إلى بلاد النوبة عام ٥٦٩هـ (١١٧٣م) ، ثم أصدر أوامره بشحن « مراكب كثيرة فى البحر بالرجال والميرة» تعزيزاً للجيش البرى ، وتمكن تورانشاه من التوغل فى بلاد النوبة إلى أن وصل أبريم ، فحاصر قلعتها ثلاثة أيام ، وغنم جميع ما كان بداخلها من مال وتموين ، وخلص جماعة من الأسرى[1] يبدو أنهم كانوا من أهالى أسوان أسرهم الجند السودان إبان فرضهم الحصار عليها . ومهما قيل من أن حملة تورانشاه إلى النوبة كانت تستهدف البحث عن مأوى لصلاح الدين وأسرته فى حالة دخول نور الدين محمود مصر وخلعه صلاح الدين ، فإن الحقيقة التى لايمكن للباحث إغفالها أن حملة تورانشاه كان من بين أهدافها حماية حدود مصر الجنوبية من غارات النوبيين .

ومنذ حملة تورانشاه على النوبة حتى زوال الدولة الأيوبية سنة ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) لم تتعرض أسوان لأى اعتداء من جانب النوبيين ، إلى أن قامت دولة المماليك البحرية فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، فأخذت الهجمات على أسوان فى عهد السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م) تأخذ طابعا عنيفا مغايراً لما قبله . وإذا كان عصر المماليك البحرية قد شهد حلقة من أنشط حلقات الحروب الصليبية ، فإن ذلك الطابع زاد من مظاهر العداء بين مصر الإسلامية ومملكة النوبة المسيحية ، إذ انتهز داود ملك النوبة فرصة انشغال الظاهر بيبرس بحروبه فى أرمينيا الصغرى عام ١٢٧٢م [2]، وأغار على ثغر عيذاب، فنهب متاجره ، وقتل عدداً من أهله بما فيهم القاضى والوالى ، ثم تلى ذلك بالإغارة على أسوان ، فنهبها وخرب سواقيها ، وأسر عدداً من أهلها وإزاء ذلك توجه والى قوص على رأس جيش لمحاربة النوبيين ، فتمكن من صدهم عن أسوان ، وأخذ يطاردهم إلى أن وصل بالقرب من دنقلة ، فقتل وأسر وعاد إلى ولايته [3].

١- ابو شامة : الروضتين ، جـ١ ص٢٠٩ ، ابن خلدون : العبر ، جـ٦ ، ص٣٣٥-٣٣٦ (طبعة بيروت) ؛ Wiet, op. cit., p. 219.

٢- سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص١١٨ - ١١٩ .

٣- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٢٠١ ، السلوك : جـ١ ص٦٠٨ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص٢٦٣ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ ص٣٣٥ ؛ ابن أيبك الدواداري : كنز الدر وجامع الغرر ، جـ٨ ص١٦٨ .

وقد أدرك الظاهر بيبرس هذا الخطر الصليبي الكامن في الجنوب ، واحتمال طعن النوبيين لمصر من الخلف أثناء انشغالها بتصفية الجيوب الصليبية في الشام[١] . لذلك ثار بيبرس على اعتداء النوبة على أسوان وعيذاب ، ذلك الاعتداء الذي هدد دولته في أعظم موارد ثروتها وقوتها وهي التجارة ، فأسوان وعيذاب كانتا من أهم الثغور المصرية في ذلك الوقت ، إذ تأتي عن طريقهما بضائع الشرق ووسط أفريقية [٢]. وبات بيبرس يترقب الفرصة إلى أن أتيحت له أواخر عام ٦٧٤هـ (١٢٧٥م) عندما فر إلى مصر شكندة ملك النوبة المخلوع ، يشكو إلى بيبرس ما فعله به ابن أخيه داود الذي لم يكتف بإقصائه عن العرش ، بل أساء إليه دون أن يحترم أواصر القربى . لذلك أسرع بيبرس بتجهيز حملة ضخمة بالغ في الاهتمام بها ، فزودها بخيرة المقاتلين ، فضلا عن فرق الزراقين[٣] ورماة النفط ورجال الحراريق والزردخاناه [٤]، وفي يناير ١٢٧٦م تحركت الحملة قاصدة النوبة وصحبها شكندة ، فأغارت على قلعة الدو (الدر) ، ثم واصلت السير إلى جزائر ميكائيل عند شلال وادي حلفا ، فأجبرت الملك داود على الفرار بعد أن وقع معظم رجاله قتلى وأسرى ، وعين المماليك شكندة ملكا على النوبة بدلا من داود ، وألبس التاج [٥].

١- حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية ، ص٢٩١-٢٩٢ .

٢- سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص١١٩ .

٣- الزراق وجمعه زراقون ، أي رامي النفط من الزراقة وهي الأنبوبة التي يزرق بها النفط (محمد مصطفى زيادة : السلوك ، جـ١ ص٥٩٨ ، حاشية٢) .

٤- الزردخاناه : بيت الزرد أي بيت السلاح ، وبها « من السيوف والقسي العربية والنشاب والرماح والدروع المتخذة من الزرد المانع ... وفي كل سنة يحمل إليها ما يعمل بخزائن السلاح من الأسلحة ، يجعل على رءوس الحمالين ويزف إلى القلعة ويكون يوما مشهودا . وفي هذه السلاح خاناه من الصناع المقيمين بها لإصلاح العدد وتجديد المستعملات جماعة كثيرة . ... » أنظر (القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ٤ ص١١-١٢) .

٥- النويري : نهاية الأرب ، جـ٢٨ ورقة ١٠٩ ؛ السلوك ، جـ١ ص٢٠١ ؛ ابن بهادر : فتوح النصر ، جـ١ ورقة ١٣٠ .

وانتهت تلك الحملة الناجحة ، بعقد اتفاقية جديدة تنظم العلاقات بين مصر والنوبة ، وكان من أهم شروطها تنفيذ اتفاقية البقط القديمة ، وأن تكون بلاد العلى وبلاد الجبل (الجزء الشمالى من بلاد النوبة) ملكا للسلطان الظاهر بيبرس لقربها من أسوان ، كما تم إطلاق سراح الأسرى من أهل عيذاب وأسوان الذين سخرهم النوبيون فى بناء كنيسة [١].

ولم تتحرك الحملة عائدة من بلاد النوبة إلا بعد أن أخذت المواثيق والعهود على شكندة بطاعة بيبرس . وقد أورد النويرى نص اليمين التى حلف عليها ملك النوبة الجديد بدنقلة ، وقد جاء فيه : والله والله والله ، وحق الثالوث المقدس ، والإنجيل الطاهر ، والسيدة الطاهرة العذراء .. أننى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذا للسلطان الملك الظاهر بيبرس ركن الدنيا والدين ، وأنى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ...» .

وقد حرص بيبرس على إشرافه على بلاد النوبة ، إذ عندما نظم طرق البريد أنشأ طريقا هاما يبدأ من قوص ثم يتفرع إلى شعبتين : إحداهما إلى أسوان ثم النوبة ، والثانية إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر [٢].

ومن المحتمل أن الظاهر بيبرس لم يطمئن إلى ملك النوبة الجديد شكندة ، فكلف أحد الباطنية الفدائية بالتوجه إلى النوبة سراً ، ومراقبة تصرفات شكندة خشية أن يغدر بالعهد الذى قطعه لبيبرس ، ويفعل بأسوان وعيذاب مثلما فعل داود من قبل ، وكان للباطنى هذا زميل رافقه فى بعض سفرياته إلى النوبة ، فانقض ذلك الزميل على شكندة وقتله [٣].

وعلى أية حال ، فإن حملة السلطان الظاهر بيبرس على النوبة حققت مالم تستطع حملة أخرى أن تحققه فى تلك البلاد منذ الفتح العربى لمصر . فقد بسطت نفوذ مصر السياسى على بلاد النوبة التى لم تعد تشكل خطراً على حدود مصر الجنوبية الممثلة فى أسوان . وبعبارة

١- نهاية الأرب ، جـ٢٨ ورقة ١٠٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٣ ص٢٩٠ ، ابن أيبك الداودرى: كنز الدرر ، جـ٨ ص١٨٣ - ١٨٥ .

٢- سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص١٢٣ ، العصر المماليكى ، ص٨١ .

٣- ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ١٥٤ ؛ سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٨٢ .

أخرى ، وجهت حملة بيبرس ضربة قاصمة لوجود مملكة النوبة المسيحية المستقلة ، حيث صارت نهايتها مسألة وقت ، وتحطم السد المنيع الذى كان يعوق انتشار العرب انتشاراً واسعا فى النوبة ، فى الوقت الذى أصبحت منطقة المريس تدين بالإسلام ، وخاضعة لمصر (١).

وإذا كانت العلاقة بين مصر والنوبة لم تقف عند ذلك الحد ، فإنها أخذت شكلا جديداً . فقد قلت إغارات النوبيين على مصر ، وصارت سلطنة المماليك بعد بيبرس تتدخل فى شئون النوبة الداخلية ، وانتهى الأمر فى عصر الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣-٧٠٩هـ / ١٢٩٢ - ١٣٠٩م) بسقوط ممالك النوبة المسيحية فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، واعتلاء ، عرشها ملك مسلم هوكنز الدولة . وقد مر بنا من قبل الدور الذى لعبه بنو الكنز بعد أن غادروا أسوان - فى عهد صلاح الدين الأيوبى - إلى بلاد النوبة (٢).

جـ- إغارات البجة على أسوان :

لم تكن مواطن البجة القديمة تشغل نفس المساحة التى تحتلها فى الوقت الحاضر ، فهى تمتد من البحر الأحمر شرقا إلى نهر عطبرة ثم النيل الأكبر غربا ، ومن المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية فى الجنوب إلى نهاية محافظة أسوان شمالا (٣) . وتتميز مناطق البجة بتنوع تضاريسها تنوعا بينا ، إذ وجد بها السلاسل الجبلية الممتدة من الجنوب إلى الشمال موازية وتكاد أن تلتصق بالبحر الأحمر ، وتنحدر إلى الشرق تاركة بينها وبين البحر شريطا ساحليا ضيقا يزداد اتساعًا فى الأجزاء الداخلة فى حدود مصر ، ويلى الجبال ناحية الغرب ، إنحدار فجائى تتخلله بعض الأودية مثل العلاقى وروافده تبقية ، أما المناخ فيغلب عليه قلة المطر ، وتسوده الطبيعة الصحراوية فى الشمال (٤).

وكلمة البجة محرفة من كلمة البجا المشتقة من كلمة الماجوى ، وهى تعنى فى الفرعونية الحارس أو المحارب ، وقد أطلق المصريون القدماء على القبائل الحامية (البجة) التى تعيش

1- Yusuf Fadl Hasan , The Arabs and the Sudan , p. 111 .

٢- انظر ص٤٠-٤٢ .

٣- محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية ، ص٢٤٦ .

٤- نفس المرجع ، ص٢٤٦-٢٤٩ .

بين النيل والبحر الأحمر اسم المازوى أو الماجوى [(١)]. والبجة شعوب عريقة فى القدم ، فقد أثبت سليجمان أن البجة وقدماء المصريين - مرحلة ما قبل التاريخ - ينحدرون من سلالة واحدة أو سلالات متقاربة ، ودلل على ذلك بمقارنة الجماجم ، فوجد تشابها تاما بين سحنة المصريين القدماء وسحنة البجة الذين يعيشون فى أوطانهم الحالية ، فالشعبان إذاً ينتميان إلى أصل واحد ، وإن كانت طبيعة البيئة قد سلكت بالمصريين طريقا ، وسلكت بالبجة طريقا آخر [(٢)].

وإذا كانت الحدود الشمالية لبلاد البجة تتاخم الحدود الجنوبية لمصر فى العصور الوسطى ، إلا أن تلك الحدود لم تكن حدوداً سياسية فاصلة بين البلدين ، وبمعنى آخر فهى حدود متداخلة متذبذبة . وقد تعرضت المناطق الشمالية من بلاد البجة للمؤثرات الدينية الوافدة من مصر . كما ظل البجة متمسكين بعبادة إيزيس التى اقتبسوها من المصريين القدماء ، واستمروا حتى القرن السادس الميلادى يقاومون كل محاولة تثنيهم عن وثنيتهم ، ولم يكن بد من أن تنتصر الديانة المسيحية فى نهاية الأمر ، فأخذت تنتشر فى القرن السادس بين شعوب البجة عن طريق بلاد النوبة ، فضلا من الشرق عن طريق الموانئ التى يجتمع فيها التجار والعمال الوافدين من مصر مع البجة ، ونستطيع القول أن جميع البجة الذين اتصلوا اتصالات مباشرة أو غير مباشرة مع مصر والنوبة والحبشة ، قد اعتنقوا الديانة المسيحية تدريجيا ، أما الذين عاشوا فى جهات منعزلة فبقوا على وثنيتهم [(٣)].

والمشاهد أن ولاة الأمور فى مصر عقب الفتح العربى لها مباشرة ، لم يهتموا بإرسال حملات إلى مواطن البجة ، لتأمين حدود مصر الجنوبية الشرقية مثلما فعلوا مع النوبة . وربما يرجع السبب فى ذلك إلى عدم وجود صلة عدائية مبكرة بين المسلمين والبجة فى السنوات الأولى التى تلت فتح مصر ، فضلا عن انشغالهم بتأمين حدود مصر الجنوبية عند أسوان من غزوات مملكة النوبة المسيحية .

١- سعاد ماهر : محافظات الجمهورية ، ص١٧٩ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، مادة البجة .

٢- محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية ، ص٢٥٦ .

٣- محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله ، ص٣٤ .

ومما يؤيد ذلك ، أن العرب عندما شاهدوا البجة لأول مرة بعد عشر سنوات من فتح مصر لم يكترثوا بهم ، ولم يتعرضوا لهم ، من ذلك ما رواه ابن عبد الحكم[١] أن القائد عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعد غزوه للنوبة عام ٣١ هـ (٦٥٢م) هم بالرجوع إلى مصر ، وفى طريق عودته شاهد حشداً من البجة على شاطئ النيل ، فسأل عنهم ، ولما أخبر بمكانهم هان عليه أمرهم وتركهم وشأنهم .

وأول غارة شنها البجة على حدود مصر الجنوبية عند أسوان ، حدثت عام ١٠٧هـ (٧٢٥م) ، ومن المحتمل أن المسلمين صدوا تلك الإغارة ، بدلالة الاتفاقية التى عقدها عبد الله بن الحبحاب السلولى مع البجة ، بمقتضاها يدفع البجة ثلاثمائة جمل صغير ، وأن يجتازوا الريف تجاراً غير مقيمين ، وألا يقتلوا مسلما أو ذميا ، وألا يؤوا عبيد المسلمين ، ويظل وكيلهم فى الريف رهينة عند المسلمين [٢]. ولاندرى ما هى الأسباب التى حرضت البجة ودفعتهم إلى الإغارة على أسوان ، ويخيل إلينا أن تلك الإغارة كان هدفها السلب والنهب . غير أننا نرجح أن السبب يرجع إلى اختلاف فى المعاملات التجارية بين البجة وبعض أهالى أسوان لقربها منهم ، ولاتزال فروعهم من العبابدة والبشارية تتجه بتجارتها إلى تلك المدينة . وعلى أية حال، فإن تلك الاتفاقية ضمنت للمسلمين تأمين حدودهم الجنوبية المطلة على الصحراء الشرقية، وفى الوقت نفسه تركت العلاقات التجارية حرة كما كانت من قبل[٣] .

بيد أنه بعد مضى ما يزيد قليلا على قرن من الزمان على الاتفاقية التى عقدها عبيدالله الحبحاب مع البجة ، حتى عادوا إلى شن الإغارات على أسوان ، وعندما كثر إيذائهم للمسلمين رفع والى أسوان الخبر إلى الخليفة العباسى المأمون عام ٢٣٢هـ (٨٤١م) ، فجرد إليهم حملة بقيادة عبدالله بن الجهم ، اشتبكت معهم فى عدة معارك انتهت بهزيمتهم ، وعقد ابن الجهم اتفاقية بينه وبين كنون بن عبد العزيز ملك البجة .ولأهميتها نذكر منها الشروط الآتية [٤].

١- فتوح مصر والمغرب ، ص٢٥٥ .

٢- نفس المصدر والمكان ؛ المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٩٤ .

٣- مكى شبيكة : السودان عبر القرون ، ص٢٦ .

١- تعتبر بلاد البجة من حد أسوان إلى ما بين دهلك (مصوع) وباضع (جزيرة الريح) ملكا للخليفة ، وأن يكون كنون بن عبد العزيز رئيسهم هو وأهل بلده عبيداً لأمير المؤمنين .

٢- أن يؤدى ملك البجة خراجا سنويا قدره مائة من الإبل أو ثلاثمائة دينار لبيت المال .

٣- أن يحترم البجة الإسلام ، وألا يعينوا أحداً على المسلمين ، وألا يقتلوا مسلمًا أو ذميا حراً أو عبدا فى أرض البجة أو فى مصر أو النوبة .

٤- على البجة تأمين حياة المسلمين المجتازين لبلادهم للتجارة أو الإقامة .

٥- إذا دخل البجة صعيد مصر مجتازين أو تجارا لايحملون سلاحا ، ولايدخلون المدائن والقرى .

٦- ألا يهدم البجة المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة (صنجة) وهجر .

٧- أن يقدم كنون بن عبد العزيز ملك البجة كل التسهيلات لدخول عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم البجة .

ومما يلفت النظر أن اتفاقية عبدالله بن الجهم مع البجة تختلف اختلافا واضحا عن اتفاقية البقط التى كتبها عبدالله بن سعد بن أبى سرح لملك النوبة . فالأولى ورد بها أن بلاد البجة من حد أسوان إلى مصوع تابعة للدولة الإسلامية بدليل فرض الخراج ، كما أنها نصت على أن يلتزم ملك البجة بتقديم كافة التسهيلات للمسلمين المارين ببلاد البجة للتجارة أو المقيمين بها مع عدم التعرض لهم ، فضلا عن حفظ المساجد القائمة فعلا فى بلاد البجة وجمع صدقات من أسلم من البجة [١]. وبعبارة أخرى ، فإن اتفاقية ابن الجهم مع البجة فرض فيها غالب شروطه على مغلوب ، والغالب هنا ابن الجهم . أما اتفاقية البقط ، فقد عامل فيها عبدالله بن سعد ملك النوبة معاملة الند للند ، أى لم يكن هناك غالب ولامغلوب .

ويفهم من اتفاقية ابن الجهم مع البجة ، أن الإسلام شق طريقه إلى بلاد البجة قبل بداية القرن الثالث الهجرى، بدليل الشروط الواردة بمعاملة المسلمين معاملة طيبة، واحترام عقيدتهم،

١- مصطفى مسعد : البجة والعرب فى العصور الوسطى ، ص٢٥-٢٦ .

وعدم هدم المساجد التى ابتناها المسلمون بصنجة[1] وهجر (الواقعة على نهر عطبر)[2].
ومن ناحية أخرى ، فإن اسم كنون بن عبد العزيز يدل على توغل العرب فى بلاد البجة فى تلك الفترة المبكرة ، ومما يؤكد ذلك أن اتفاقية ابن الجهم ترجمت إلى اللغة البجاوية ، وقام بترجمتها اثنان يحمل كل منها اسما عربيا هما زكريا بن صالح من جدة وعبدالله بن اسماعيل القرشى ، ومن المحتمل أن كلاهما عاشا بين البجة وتعلما اللغة البجاوية[3].

والسؤال الذى يثار الآن : كيف تسرب الإسلام إلى بلاد البجة ؟ الواقع أن جماعات من القبائل العربية التى جاءت مصر مع الفتح العربى وبعده ، نزحت إلى جنوب مصر وتركزت فى أسوان ، ومن أسوان تدفق بعضها إلى الصحراء الشرقية حيث استوطنت بلاد البجة ، وليس من شك أن اندفاع تلك القبائل العربية من أسوان - ذات البيئة الحضارية - إلى بلاد البجة المجدبة ، كان بفعل إغراء مناجم الذهب والزمرد فى العلاقى . ومن البديهى أنها سمعت عن تلك الثروات إبان تركزها فى أسوان التى تقع على مقربة من العلاقى ، فالمقريزى[4] يقول عن معدن الذهب بالعلاقى : « وأقرب العمارة إليه مدينة أسوان» . ومن تلك القبائل ، قبيلة بلى التى وفدت إلى مصر فى عهد عمر بن الخطاب ، فهى تعد من أكبر القبائل التى هاجرت إليها ، واستقرت فى الصحراء الممتدة بين النيل والبحر الأحمر ، أى فى شمال شرقى مناطق البجة . وكذلك قبيلة جهينة التى جاءت مصر مع الفتح العربى ، انتشرت ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وهى المناطق التى يشغلها البجة . كذلك عبر فريق من هوازن البحر الأحمر فى القرن السابع الميلادى عرفوا فيما بعد بالحلانقة ، أقاموا فى بلاد البجة ، ثم رحلوا لإقليم تاكة (كسلا)[5].

١- يقول مونريت دى ڤيار أن صنجة هذه هى سنكات التى تقع حاليا على خط السكة الحديد بين بور سودان والعطبرة ، وكانت فيما مضى محطة لها أهميتها على مفترق طرق القوافل فى مختلف المناطق. (الشاطر بصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل ، ص٢٢) .

2- Yusuf Fadl Hasan , The Arabs and the Sudan , p . 40 .

٣- الخطط ، جـ١ ص١٩٦ .

4- Mac Michael , A Hist . of the Arabs in the Sudan , vol , I , p . 137 .

٥- عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، جـ١ ص١٠٥ .

وعندما سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) ، زحف العباسيون على مصر للقضاء على فلول بنى أمية ، إلا أن الأخيرين هربوا إلى بلاد البجة ، ولقوا مقاومة عنيفة من الأهالى هناك ، فتفرقوا يريدون ساحل البحر الأحمر ، فضل بعضهم فى الطريق ، ومن الجائز أن البعض الآخر استقر فى ميناء الباضع [١]. وقد دلت الكشوف الأثرية على وجود شواهد إسلامية وعلى مسجد فى صنجة (سنكات) توحى أنها طريق الفارين من بنى أمية [٢].

هذا بالإضافة إلى أن تغيير الحكام فى مصر حين أصبحوا من غير العرب على عهد الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٨٣-٨٤٢م) ، دفع بعض القبائل العربية للهجرة إلى بلاد البجة ، ولم يكن التغيير قاصراً على حكام مصر فحسب ، بل تأثر به عمال الأقاليم فى أرجائها أيضا ، بمعنى أنهم بعد أن كانوا من العرب صاروا من الأتراك . ويقول المقريزى[٣] عن ولاة أسوان إبان عهد الخليفة المأمون العباسي: «وكان ولاة أسوان من العراق» . وإزاء ذلك ، فلابد أن القبائل العربية التى كانت موجودة فى أسوان رحل بعضها إلى بلاد البجة فراراً من اضطهاد الولاة الأتراك .

وهكذا استمر تدفق القبائل العربية إلى بلاد البجة منذ الفتح العربى لمصر حتى بداية القرن الثالث الهجرى . وليس من شك أن تلك القبائل ، كان لها الفضل الأول فى اعتناق بعض قبائل البجة الإسلام ، ونشر الثقافة العربية بينها .

ولم يداوم البجة على احترام الاتفاقية التى عقدها معهم عبد الله بن الجهم إلا لأمد قصير، إذ أنهم رفضوا أن يقاسهم المسلمون كميات الذهب التى تستخرج من المناجم ، وامتنعوا عن أداء الضريبة التى سبق أن قررت عليهم . وقتلوا عدداً من المسلمين العاملين فى مناجم الزمرد ، فهرب المسلمون خوفا على حياتهم ، ولم يكتف البجة بذلك ، بل شنوا الإغارات على حدود مصر الجنوبية ووصلت إغاراتهم إلى إدفو ثم إسنا [٤]. ولما ازداد خطر البجة ، كتب

١- مكى شبيكة : السودان عبر القرون ، ص٢٧ .

٢- المسعودى : التنبيه والأشراف ، ص٢٨٥-٢٨٦ .

٣- مكى شبيكة : السودان عبر القرون ، ص٢٧ .

٤- ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٢٤١هـ .

عامل البريد على مصر إلى الخليفة المتوكل على الله العباسي (٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٧-٨٦١م) يخبره بما فعله البجة في أقاصي الصعيد ، فبعث الخليفة قائده محمد بن عبدالله المعروف بالقمي لمحاربتهم ، كما أمر واليه على مصر عنبسة ابن اسحاق أن يمد له يد العون بالرجال والعتاد ، وسار القمي على رأس جيش ضخم ، في الوقت الذى شحنت فيه سبعة مراكب بالمؤن اللازمة لتموين الجيش قاصدة ميناء عيذاب . وبعد أن وصل القمي إلى أسوان ، انحدر جنوبا بشرق فوصل إلى العلاقي حيث معادن الذهب ، وهناك انضم إليه المسلمون الذين كانوا يعملون في المعادن ، فضلا عن كثير من المتطوعين ، فبلغ جيشه عشرين ألف مقاتل ، ثم واصل سيره لمواجهة البجة في حصونهم وقلاعهم بعيداً عن أرض المعدن [١]. وكانت خطة (على بابا) ملك البجة أن يتجنب مواجهة القمي في معركة فاصلة ، بل يعمل على المراوغة بهدف إطالة مدة الحرب إلى أن تنفذ مؤن المسلمين ، ويهلكهم الجوع والعطش في تلك الفيافي الشاسعة ، ولكن القمي فوت عليه غرضه ، إذ ظلت المؤن تتوالى بالمراكب إلى ميناء عيذاب ، وعند ذلك رأى على بابا أن لامفر من مواجهة القمي ، فالتقيا في معركة عنيفة دامية ، انجلت عن هزيمة البجة [٢]. وعقب ذلك طلب على بابا الأمان من القمي ، فأجابه الأخير إلى طلبه بشرط أن يدفع الخراج المتأخر عليه لمدة أربع سنوات ، ولايمنع المسلمين من العمل في أرض المعدن ، فضلا عن أن يقوم بزيارة إلى الخليفة في بغداد ليطأ بساطه [٣]، تأكيدا للولاء والطاعة .

وعلى أثر ذلك ، فتح الباب على مصراعيه لدخول القبائل العربية بلاد البجة ، سعيا وراء بريق الذهب والأحجار الكريمة . وابتداء من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، نزحت جماعات من قبيلتى ربيعة وجهينة إلى بلاد البجة ، واستقرت هناك ، وتمكنت ربيعة من فرض نفوذها على القبائل العربية الموجودة هناك بفضل تحالفها مع البجة ، واختلاطها بهم [٤].

١- الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ص٣٧٧-٣٧٨ .

٢- ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٢٤١هـ ، الطبرى : تاريخ الأمم ، ص٣٧٩ .

٣- البلاذرى : فتوح البلدان ، ص٢٨٢ .

٤-المقريزى : البيان والإعراب ، ص٢٢١ .

ولاشك أن الحملات الحربية التى وجهها ولاة مصر إلى بلاد البجة ، أتاحت الفرصة لكثير من الجماعات العربية المشتركة فيها ، للتخلف بهذه البلاد والاستقرار فيها للمشاركة فى استخراج المعادن ، بعد أن راجت سوقها ، ثم ازداد الإقبال على أرض المعادن ، بسبب ما طرأ على أحوال الدولة الإسلامية العامة من تحول من حياة البساطة إلى حياة الترف والرفاهية [١].

وعلى أية حال ، غدت بلاد البجة مأوى للمغامرين وطلاب الثروات ، بعد أن سمعوا بكثرة الذهب بها ، فوفد إليها أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحميد العمرى عام ٢٥٥هـ (٨٦٨م) ، ويرفقته جماعات من ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب ، فكثرت العمارة بهم ، حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة ، غير العير التى تحمل من القلزم إلى عيذاب » [٢]. ويدل هذا العدد الضخم من الرواحل على كثرة القبائل العربية التى نزحت إلى أسوان . فلما قتل العمرى بسبب التنافس الشديد بين القبائل العربية، تغلبت ربيعة على بلاد البجة وتمكنت من طرد من خالفها من العرب ، ثم تصاهرت إلى رؤساء البجة ، الأمر الذى أدى إلى كف ضرر البجة عن المسلمين [٣].

ومنذ ذلك الوقت ، لم نعد نسمع فى المصادر المعاصرة عن أية غارة شنها البجة على حدود مصر الجنوبية ، وخاصة أسوان . ومما يؤيد ذلك أنه عندما عبر ناصر خسرو[٤] الصحراء الشرقية من أسوان إلى عيذاب ، فى ربيع الأول عام ٤٤٢هـ (يوليو ١٠٥٠) قال عن البجة : «وهم ليسوا أشرارا ، فهم لايسرقون ولايغيرون ، بل يشتغلون بتربية ماشيتهم ...» .

دور أسوان فى الحركات المضادة للسلطة المركزية :

شهد الصعيد الأعلى وخاصة أقصاه ، نشاطا بارزًا للحركات السياسية المناوئة للسلطة المركزية فى مصر زمن العصور الوسطى ، وتميزت أسوان بحكم موقعها فى آخر الحدود الجنوبية لمصر ، فضلا عن بعدها عن العاصمة ، تميزت بأنها كانت أحيانا مسرحًا لتلك

١- مصطفى مسعد : البجة والعرب فى العصور الوسطى ، ج٣٣ .

٢- المقريزى : الخطط ، ج١ص١٩٥ .

٣- المسعودى : مروج الذهب ، ج٢ ص١٨ ، المقريزى : الخطط ، ج١ ص١٩٥-١٩٦ .

٤- سفر نامة ، ص١٣٤ .

الأحداث . إذ لجأ إليها كثير من المغامرين أصحاب الشخصيات الطموحة القوية ، ينشدون تحقيق مطامعهم . ولم يكن القضاء على تلك الشخصيات سهلا ، بل كلف المال والرجال والجهد .

ولعل من أهم الثورات التى اشتعلت فى مصر العليا ، ثورة ابن الصوفى العلوى ، واسمه ابراهيم بن محمد بن يحى من سلالة على بن أبى طالب ، خرج على أحمد بن طولون عام ٢٥٣هـ (٨٦٧م) فى أقصى الصعيد ، واستطاع الاستيلاء على إسنا فى ذى الحجة سنة ٢٥٥هـ (أكتوبر ٨٦٨م) ، فنهبها وقتل جمعا من أهلها ، ولما استفحل خطره ، جرد إليه أحمد بن طولون جيشا بقيادة (ازداد) تغلب عليه ابن الصوفى ، ومثل بقائده أشنع تمثيل[١] . ولم يتوان أحمد بن طولون ، فبادر بإرسال جيش آخر بقيادة بهم بن الحسين ، التقى بابن الصوفى فى اخميم فى ربيع الأول عام ٢٥٦هـ (يناير - فبراير ٨٧٠م) ، واستطاع بهم التغلب على ابن الصوفى ، فاضطر إلى الفرار تاركا رجاله وجميع ما كان معه ، ومضى إلى الواحات فى الصحراء الليبية حيث بقى بها ما يقرب من أربع سنوات[٢] استطاع خلالها أن يجمع حوله أنصاراً جددا ، وظهر من جديد بعد أن استرد قوته ، وخرج إلى الأشمونين (مركز ملوى بمحافظة المنيا) ، وإزاء ذلك بعث إليه أحمد بن طولون جيشا بقيادة أبى الغيث ، إلا أن الأخير وجد ابن الصوفى قد يمم شطره صوب أسوان للقاء أبى عبد الرحمن العمرى[٣] الذى زاد نفوذه فى منطقة أسوان وشمال النوبة ، ورأى فيه منافسا خطيرا له . وفى جنوب أسوان (شمال النوبة) التقى ابن الصوفى بالعمرى فى معركة عنيفة ، انتهت بهزيمة الأول هزيمة ساحقة ارتد على أثرها إلى أسوان ، وهناك عاث فسادا ، وقطع ثلاثمائة ألف نخلة ، وما أن سمع أحمد بن طولون بذلك ، حتى أرسل مدداً لبهم بن الحسين ، غير أن الصوفى غادر أسوان أثر خلاف بينه وبين أنصاره ، ودخل بلاد البجة إلى أن وصل ميناء عيذاب على البحر الأحمر ، ومنها إلى مكة[٤].

١- الكندى : الولاة والقضاة ، ص٢١٢-٢١٣ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ص٣٩٢ .

٢- الكندى : الولاة ، ص٢١٣ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٤ ص٣٩٢ ؛ .

Zaki Hassan , Les Tulunides , pp . 55-56 .

٣- الكندى : الولاة ، ص٢١٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٢٥٩هـ .

٤- الكندى : الولاة والقضاة ، ص٢١٤ ؛ ابن خلدون : العبر ، جـ٣ ص٣٨١ .

Zaki Hassan , op , cit , p . 56 .

أما ثورة العمرى التى اقترنت بثورة ابن الصوفى ، فإنها كانت أشد عنفا منها ، إذ أنها عرضت دولة أحمد بن طولون لخطر شديد . والعمرى هذا من سلالة عمر بن الخطاب ، وأسمه عبدالله بن عبد الحميد بن عبد العزيز ، وكنيته أبو عبد الرحمن العمرى ، ولد بالمدينة المنورة ونشأ بها ، وأتى إلى مصر وسمع من شيوخها ، ثم غادرها إلى القيروان حيث أمضى شطراً من حياته ، ثم عاد إليها عام ٢٤١هـ (٨٥٥م) بعد أن غدا عالما فقيها ، وإبان وجوده بمصر ، تناهى إلى سمعه خبر المعدن ببلاد البجة ، فاستهواه وسار إلى أسوان سعيا وراءه ، وفى أسوان استطاع أن يجمع حوله لفيفا من الأنصار ، فضلا عن العبيد التى اشتراها التعمل فى استخراج المعادن ، وتلى ذلك أن نزل عى حى من مضر بأرض المعدن [1]. غير أنه فارق مضر على أثر نزاع شب بينهما وبين ربيعة ، ومضى لمعدن الشنكة ، الذى يظن أنه بالقرب من أم نباردى أو وادى هرقليب [2]. وعند ذلك المعدن لم يجد العمرى ماء ، فورد النيل ، ولكن النوبيين اعترضوه ، الأمر الذى دفعه إلى محاربتهم عند شنقير (بين بربر وأبى حمد) ، فتغلب عليهم ، وسبى منهم الكثير ، وبيعت أعداد وفيرة منهم فى أسوان ومراكز التعدين ، وفى ذلك يقول المقريزى [3]: «وكثر السبى عند أصحابه ، حتى أن أحدهم كان يحلق رأسه ، فيعطى المزين رأسا » . وعلا شأن العمرى وازداد نفوذه وتضخمت ثروته ، بدليل أن القوافل العديدة أخذت تغدو إليه من تجار أسوان محملة بالمواد التموينية [4]. ولم يلبث العمرى أن دخل فى حروب طويلة مع النوبيين أدت إلى هزيمته ، فأثرت تلك الهزيمة على موقفه من حلفائه العرب ، فقد حدث خلاف بين الشاميين – وهم من سعد العشيرة من أنصار العمرى – وبين قيس عيلان ، فاتهم الشاميون العمرى ظلما أنه انحاز لقيس [5]. وانتهز ملك النوبة فرصة ذلك الخلاف ،

١- المقريزى : المقفى ، ص٤-٥ ؛

Wiet , precis de l'Histoire d'Egypte , vol . 2 , p . 158 .

٢- المقريزى : المقفى ، ص٥ ، يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان ، ص١١٦ .

٣- المقريزى : المقفى ، ص٦-٧ .

Yusuf Fadl Hasan , The Arabs and the Sudan , p. 53 .

٤- المقريزى : المقفى ، ص٧-٨ .

٥- المقريزى : المقفى ، ص٨-١٣ ، يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية ، ص١١٦ .

فراسل الشاميين يدعوهم إليه ويمنيهم ، فاستجابوا له ، واتجهوا إليه ، فأقطعهم دون الجنادل الأولى من منطقة المريس من ناحية يقال لها ديدان (لعلها أدندان) وأدوى (على مقربة من بلدة بلانة) وما يليها [١]. وخاف العمرى من تحالف الشاميين مع ملك النوبة ، وسار إلى معدن آخر ، وأرسل للشاميين يدعوهم للصلح ، فأتوا إليه ، ولكنه انقض عليهم غدرا ، وقتل منهم ألفا وخمسمائة ، أما من بقى حيا فقطع أيديهم وأرجلهم وتركهم حتى ماتوا ! واحتل منطقة من المريس أثارت ملك النوبة ، فسار إليه على رأس جيش ضخم تمكن من هزيمة العمرى ، فما كان من العمرى إلا أن فر من أمامه ، واتجه شمالا حتى قرب من أسوان [٢].

وقلق ابن طولون من جراء استفحال نشاط العمرى فى أسوان وبلاد البجة والنوبة ، وخشى أن يطمع العمرى فى مصر ، فجرد إليه جيشا بقيادة شعبة بن حركام البابكى ، ولما وصل الجيش إلى أسوان أراد قائده أن يستغل فرصة انشغال العمرى مع النوبيين فينقض عليه ، ولكن العمرى احتج إليه بأنه غير ثائر وأخبره أن ما يعلمه ابن طولون عنه لا أساس له من الصحة ، وإنما هى مجرد شكوك ، وأضاف أنه لم يؤذ مسلما قط ، وإنما خرج لمحاربة أعداء الإسلام ، وطلب العمرى إلى القائد أن يتمهل ريثما يكتب إلى ابن طولون شارحا له هدفه وحقيقة أمره ، فإن قبل عذره وتركه حراً كان بها ، وإلا فعليه بتنفيذ أوامره بالقتال ، ولكن قائد الجيش الطولونى لم يلتفت إلى كلام العمرى ، ودار بينهما قتال مرير ، وعند ذلك اضطر العمرى إلى القتال فى جبهتين : فى الشمال ضد الطولونيين ، وفى الجنوب ضد النوبيين ، ومع أن الجيش الطولونى كان أكثر عدداً إلا أن العمرى أوقع به هزيمة شنيعة [٣].

وعقب الانتصار الذى حققه العمرى على جيش ابن طولون فى أسوان ، تحرك شمالا إلى إدفو ، ومنها شرقا إلى أرض المعدن عام ٢٥٥هـ (٨٦٨م) ، وهنا لك ذاعت شهرته ، وبسط سيطرته على قبائل جهينة وربيعة وسعد العشيرة ، فعظم نفوذه من جديد ، واتسعت سلطته.

١- المقريزى : المقفى ، ص١٣ ؛ Yusuf Fadl , op . cit ., p.53 .

٢- المقريزى : المقفى ، ص١٤ . Yusuf Fadl , op . cit ., p.53-54 .

٣- المقريزى : المقفى ، ص١٤-١٥ ؛ سيدة كاشف : احمد بن طولون ، ص٧٤-٧٥ .

حتى قيل أن ستين ألف جمل كانت تعمل فى حمل المؤن من أسوان لحلفائه فى بلاد البجة ، بخلاف العير التى تجئ من ميناء القلزم عبر عيذاب [١].

وفكر أحمد بن طولون فى الانتقام من العمرى ، ولكنه آثر السلامة بعد أن كتب له العمرى « أنه فى مائة ألف أو يزيدون » ، ومن حسن حظ ابن طولون أن الحلف الذى كونه العمرى فى بلاد البجة لم يستمر طويلا ، فقد شب بين القبائل العربية [٢]، وسببه أن إبراهيم المخزومى - أخو العمرى من أمه - قتلته جماعة من البجة ، فغضب العمرى ، وكتب إلى حليفتهم ربيعة يسألها الإنصاف من البجة أو التخلية بينه وبينهم ، ولكنهم ردوه فى الحالتين ، وتبع ذلك أن تخلت قبائل مضر وبنى هلال وبنى تميم عن العمرى ، فلم يبق معه إلا القليل من الأنصار ، واستطاع العمرى مع جماعة من أتباعه أن يتغلب عليهم فى موضعين يقال لهما ميزح وبكيا ، غير أنه لم يعش طويلا ، إذ قتله غلامان من مضر غيلة ، وحملت رأسه إلى ابن طولون[٣] .

وهكذا انتهت حياة ذلك الثائر المغامر ، الذى هدد دولة أحمد بن طولون وكاد أن يزعزع أركانها ، ومن الإنصاف لذلك الرجل أن نذكر أنه أدى دوراً ناجحا فى منطقة الحدود المضطربة بين مصر والنوبة من ناحية ، وبين مصر وبلاد البجة من ناحية أخرى . فبفضل ذلك الدور ، حقق فى كثير من الأحيان ، ما لم تستطع أن تحققه الحملات العسكرية التى كانت ترسلها السلطة المركزية فى مصر لصد غارات النوبة والبجة .

وبعد موت العمرى ، احتشدت جماعات عديدة من ربيعة وجهينة خاصة حول أسوان ، وتنازعت تلك الجماعات على الاستئثار بالنفوذ ، وامتلاك معادن الذهب بالعلاقى ، غير أن الغلبة فى النهاية كانت لفريق من ربيعة استمال البجة وتزوج من بناتهم [٤].

١- المقريزى : المقفى ، ص١٦ ، يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية فى الهجمة العربية إلى السودان ، ص١١٦ ؛

Yusuf Fadl , The Arabs and the Sudan , pp 54-55

٢- المقريزى : المقفى ، ص١٦-١٧ .

٣- المصدر السابق ، ص١٧-١٨ ، ابن خلدون : العبر ، جـ١ ص٣٩٢ ؛ يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية ، ص١١٧ .

٤- مكى شبيكة : السودان عبر القرون ، ص٣١ .

وبالإضافة إلى ذلك ، كانت أسوان معبراً للفارين من الضغط السياسى الذين اتخذوا من أسوان نقطة انطلاق إلى بلاد البجة أو السودان ، بعيداً عن أيدى السلطة المركزية فى مصر .

فعندما سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) ، تتبع العباسيون بنى عمومتهم الأمويين ، وتمكنوا من قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية بعد أن تعقبوه فى مصر ، إلا أن ابنيه ومن معهما من أهلهما ومواليهما وأنصارهما من العرب ، ساروا إلى أسوان فراراً من الاضطهاد ، ومن أسوان دخلوا بلاد النوبة ثم انحرفوا شرقا إلى بلاد البجة [١]. على أن ما أورده لنا الكندى فى كتابه الولاة والقضاء ، من أن أهل أسوان لبسوا السواد شعار العباسيين بدعوة من يحى بن مسلم بن الأشج مولى بنى زهرة لانظن أنه صحيحا ، فيحيى بن مسلم على الرغم أنه من الموالى الساخطين على الدولة الأموية التى كانت تضع الموالى فى مرتبة أقل من العرب ، فضلا عن أن الدولة العباسية قامت بالدرجة الأولى على أكتاف الموالى (الفرس) ، إلا أن تلك الدعوة لم تلق نجاحًا بين أهل أسوان ، بدليل أنه كان فى استطاعتهم القبض على ولدى مروان بن محمد وأنصارهما ، بدلا من تيسير الفرار لهم عبر أسوان ، كما أن نفوذ الدولة الأموية فى مصر لم ينته بمقتل مروان بن محمد ، فقد استطاع أحد الأمويين اسمه دحية بن مصعب ، أن يخرج على الدولة العباسية ، ويستولى على جميع أنحاء الصعيد ، ويقاوم الولاة العباسيين حتى تم القضاء عليه عام ١٦٠هـ(٧٨٦م)[٢] .

وعندما هزم الثائر أبو ركوة فى صحراء الفيوم عام ٣٠٦هـ (١٠٠٦م) أمام جيوش الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، سار إلى أسوان ، ثم انطلق منها إلى بلاد النوبة ، ولكن الحاكم بأمر الله استطاع القبض عليه بفضل أبى المكارم هبة الله - زعيم ربيعة بأسوان - ولهذا منحه لقب كنز الدولة تكريما له [٣].

وكذلك اتخذ بهرام الأرمنى النصرانى من أسوان ملجأ أمينا له ، فبعد أن سلك مع المسلمين فى مصر مسلكا عدائيا - إبان وزارته فى عهد الدولة الفاطمية - وبنى الكنائس والأديرة ،

١- ص ٩٤ .

٢- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٣٠٦-٣٠٧ .

٣- ابن الأثير : الكامل ، حوادث عام ٣٨٧هـ ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص٧٣-٧٤ .

استنجد الأمراء برضوان بن الولخشى والى الغربية ، فهزم بهرام عام ٥٣١هـ (١١٣٦م) ، ورحل إلى أسوان ، «ولكنها امتنعت عليه بكنز الدولة وأهلها » ، فاضطر إلى الإقامة فى الموضع الحصين المعروف بالأديرة البيض ، وقد فارقه أكثر الأرمن [١].

وقد مر بنا من قبل ، كيف أن الدولة الأيوبية إثر قيامها ، واجهت خطر مؤامرة للإطاحة بها عام ٥٦٤هـ (١١٦٩م) وهى مؤامرة السودانيين ، وبعد أن تمكن صلاح الدين من القضاء عليها ، فرت الفلول السودانية إلى أسوان تنشد المأوى ، ومن أسوان دخلت بلاد النوبة [٢].

أما فى عصر المماليك ، فإن أسوان أصبحت خير ملجأ أمين يلجأ إليه الفارون من وجه العدالة ، والأمثلة على ذلك كثيرة فى المصادر العربية التى تناولت عصر المماليك البحرية والجراكسة (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م) . ففى عام ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م) هرب بيبرس الجاشنكير خشية أن يقع فى قبضة السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، واتخذ من أسوان وجهة له ، ولكنه ما أن وصل إلى أطفيح حتى قبض عليه وأحضر إلى القاهرة [٣]. وفى عام ٨٨٢هـ (١٤٧٧م) استطاع يونس بن اسماعيل الهوارى أمير هوارة الهروب إلى أسوان ، ومنها إلى بلاد النوبة[٤] . وفى عام ٨٩٢ هـ (١٤٨٦م) هرب جانم الأجرود الأنيالى كاشف منفلوط إلى بلاد النوبة عبر أسوان ، وكان السلطان الأشرف قايتباى قد أمر بالقبض عليه ، ففر خوفا على حياته [٥].

ولبعد الشقة بين أسوان والقاهرة ، فإنها صارت منفى لكبار رجالات مصر والمغضوب عليهم فى دولة المماليك البحرية ، وأوائل دولة المماليك الجراكسة . وقد اتخذ سلاطين المماليك من أسوان منفى ، ليسهل عليهم مراقبة أحوال المنفيين ، ورصد تحركاتهم . كذلك من المعروف فى دولة المماليك أن أول عمل كان يقوم به كل سلطان عقب توليه العرش هو التخلص من مناوئيه بقتلهم أو سجنهم أو نفيهم . وكان النفى فى الغالب إلى الكرك أو الحجاز أو

١- ابن ميسر : تاريخ مصر ، ص٧٩ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ص١٥٩-١٦٢ .

٢- انظر ص٤٠-٤٢ .

٣- ابن حجر : عقد الجمان ، حوادث عام ٥٧٩هـ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص٧٥ .

٤- ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٣ ص١٤٦ .

٥- المصدر السابق ، جـ٣ ص٢٤١ .

قوص أو أسوان ، ففي عام ٧٢٢هـ (١٣٢٢م) تغير السلطان الناصر محمد بن قلاوون على الصاحب كريم الدين بن السديد ناظر الخواص الشريفة - وهو أول من باشر هذه الوظيفة - ، فقبض عليه وصادره ، ونفاه إلى الشوبك ، ثم إلى القدس ، ثم عاد فنفاه إلى أسوان ، ولم يطق الصاحب كريم الدين صبراً في أسوان ، فانتحر بأن ربط عمامته في رقبته ، ثم وقف على قفص ، ودفعه برجليه ، فمات عام ٧٢٤هـ (١٣٢٣م) [١]. وفي عام ٧٢٤هـ (١٣١٤م) توجه جركتمر بن بهادر إلى أسوان للاحتفاظ على المنصور أبي بكر وإخوته [٢]. وفي نفس العام أيضا ، توجه الأمير طوغان إلى الكرك لإحضار أحمد بن السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، متحفظا عليه ، لينفى إلى أسوان [٣]. وفي عام ٧٦٠هـ (١٣٥٨م) تخلص السلطان المنصور صلاح الدين محمد بن حاجي من بكتمر المؤمني - الذى ولى الإسكندرية ثم حلب - ، فأخرجه منفيا إلى أسوان [٤]. وفي آخر ربيع الأول عام ٧٦٨هـ (نوفمبر ١٣٦٦م) تنكر الأمير يلبغا الخاصكي القائم بدولة السلطان الأشرف شعبان بن حسين على الأمير الطواشي الأشرف سابق الدين مثقال الأنوكي مقدم المماليك « لكلام نقل له عنه » فضربه ستمائة عصا ، ثم نفاه إلى أسوان [٥]. وفي صفر عام ٧٦٩هـ (أكتوبر ١٣٦٧م) أغرق السلطان في النيل جماعة من المماليك الذين اتفقوا على قتله وسمر البعض من أعيانهم ووسطهم ، ونفى الباقي إلى الشام وأسوان [٦].

١- ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ٦ص٦٣؛ ابن شاكر : فوات الوفيات ، جـ٢ ص٨-١٤ ؛ ابن حجر : عقد الجمان ، حوادث عام ٧٢٤ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ ص٤٣ .

٢- المقريزي : السلوك ، جـ٢ ص٥٧٣ .

٣- ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ١٠ ص٢٣ .

٤- المقريزي : السلوك ، جـ٣ ص٦٦ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٢ ص٢١ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور، جـ١ ص٥٨١ .

٥- المقريزي : الخطط ، جـ٢ ص٣٩٢ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٣ ص٦٣ ، بدائع الزهور ، جـ١ القسم الثاني ص٤٣-٤٤ .

٦- المقريزي : السلوك ، جـ٢ص١٥٤ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ القسم الثاني ص٧١ .

وفى أواخر دولة المماليك الجراكسة ، لم تعد أسوان منفى للمغضوب عليهم من قبل السلطنة . ويرجع السبب فى ذلك إلى كثرة ثورات العربان[١] ، التى أدت إلى خروج الصعيد بأكمله عن قبضة السلاطين . وإذا كانت المصادر المعاصرة قد صمتت عن ذكر نفى أى شخصية من شخصيات تلك الدولة إلى أسوان ، فإن الاسكندرية صارت المعتقل الوحيد فى مصر للمغضوب عليهم من عظماء الدولة [٢].

أما العربان فى الوجه القبلى ، فإن قبائلهم سببت المتاعب للحكام والمحكومين سواء ، فارتبط تاريخهم عصر المماليك (١٢٥٠-١٥١٧م) بالثورات وحوادث النهب والاعتداء على الآمنين من أهل القرى والمدن ، حتى أن المراجع لاتشير غالبا إليهم إلا تحت عنوان (فساد العربان) . وبالرغم من الهزائم المتكررة التى حلت بالعربان فى دولة المماليك البحرية ، إلا أنها لم تفت فى عضدهم ، فكانوا فى كل مرة تحل بهم الهزيمة يعودوا إلى العصيان والتمرد من جديد [٣].

وازدادت شوكة العربان بالصعيد فى دولة المماليك الجراكسة ، وذلك أن تلك الدولة لم يعد فى وسعها دفع ثوراتهم وفتنهم كما كان الحال دولة المماليك البحرية ، وتأثرت مدن الصعيد بتلك الثورات ، فتعرضت للنهب والسلب والقتل ، فضلا عن قطع الطرق المؤدية إليه .

وكانت أسوان من المدن التى لم تسلم من إغارات العربان وعبثهم . ففى أواخر القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) دأب العربان على شن الإغارات على أسوان من ناحية الشمال، فى الوقت الذى كان فيه بنو الكنز يوجهون ضرباتهم إليها من الجنوب بغية استعادة نفوذهم فيها . ولم تتحمل الضغط عليها من الجانبين ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى وقوعها فريسة فى أيدى العربان .

ونستطيع القول أن السلطان الظاهر برقوق ، قد ساهم بطريق غير مباشر فى اشتداد خطر العربان بالوجه القبلى . ففى عام ٨٧٢هـ (١٣٨٠م) نقل برقوق قبيلة هوارة من بلاد البحيرة

١- لم تعد القبائل العربية يطلق عليها فى المصادر المعاصرة مصطلح «العرب» بل صار يطلق عليها لقبًا أقل احترامًا وهو العربان أى البدو .

٢- المقريزى : السلوك أماكن متفرقة ؛ ابن حجر : عقد الجمان أماكن متفرقة .

٣- سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٣١٤-٣١٥ .

بالوجه البحري إلى الصعيد الأعلى ، وأقطعهم ناحية جرجا ، فعمروها [١]. غير أن تلك القبيلة وسعت نفوذها في الوجه القبلي فانتشرت في أرجائها « انتشار الجراد » وبسطت يدها من الأعمال البهنساوية حتى نهاية الوجه القبلي عند أسوان وما بعدها بقليل ، وأذعنت لتلك القبيلة سائر العربان بالوجه القبلي قاطبة ، وانحازوا إليها ، وصاروا طوع يدها [٢]. وكانت الإمرة في قبيلة الهوارة - زمن القلقشندي (ت٨٢١هـ) - في بيتين ، البيت الأول : بنو عمر ، ومنازلهم بجرجا ومنشأة أخميم ، وأمرهم نافذ من الأشمونين إلى أسوان ، والبيت الثاني : أولاد غريب ، ومنازلهم دهروط (ديروط) وما حولها ، وبيدهم بلاد البهنسا[٣] .

ويبدو أن فرعي قبيلة هوارة كانا منقسمين على أنفسهما ، ففرع عمر كانت له الإمارة والسيادة على فرع أولاد غريب ، فضلا عن أن الفرع الأول كان مواليا للسلطنة والدليل على ذلك أن جماعة من هوارة تنتمي إلى فرع أولاد غريب تحالفت مع عرب الأحامدة[٤] وبني الكنز للإغارة على ثغر أسوان عام ٧٩٨هـ (١٣٩٦م) فأطبقوا عليه بغتة ، وغادروا الثغر بعد أن نهبوه [٥]. وإزاء ذلك أصدر السلطان برقوق أمره إلى نائب الوجه القبلي بالتوجه إلى ثغر أسوان للقبض على عرب الأحامدة وهوارة التي تنتمي لفرع علي بن غريب ، وتلى ذلك أن طلب السلطان من أمير عربان هوارة - الموالي له - عمر بن عبد العزيز السير مع نائب الوجه القبلي ومساندته ، واتجه الجميع إلى أسوان ، ثم أوغلوا في بلاد النوبة ، غير أنهم لم يقفوا للعربان على أثر ، فرجعوا من حيث أتوا [٦].

١- المقريزي : البيان والإعراب ، ص٥٨ .

٢- القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ٤ ص٦٩ .

٣- نفس المصدر والمكان .

٤- عرب الأحامدة من آل ملي سكان دامة وما فوقها إلى جهة ينبع بالحجاز ، ثم انتقلوا إلى الصعيد الأعلى ، فنزلوا فيه واتخذوه وطنا . (انظر ابن حجر : إنباء الغمر ، حوادث عام ٨١٨هـ) .

٥- ابن الفرات : تاريخه ، جـ٢ ص٤٤٠ .

٦- المصدر السابق والجزء ، ص٤٤٠-٤٤١ .

وتكررت إغـارة قـبـيلة هوارة على أسوان ، فـزحفت على أسوان عـام ٨١٥هـ (١٤١٢م) ، وهناك حـاربت أولاد الكنز وأوقـعت الهـزيمة بهم ، ولم تـكتف هوارة بذلك ، بل سبت النسـاء والأطفال ، ومضت بسبيها بعد أن تركت أسوان خرابا بلقعا[١] .

ومن الواضح أن دولة المماليك الجراكسـة قـد مـحى نفـوذها من أسـوان ابتـداء من القـرن التاسع الهـجرى (الخامس عشر الميلادى) ، إذ غـدت فى أيدى العربان عرضة لحوادث النهب والسلب . وقـد عـملت تلك الحـوادث على قطع الطرق المؤدية إليـهـا ، شـأنها فى ذلك شأن الصعيد الأعلى الذى صار أهله غير آمنين على حياتهم وأموالهم . وبسبب ضعف تلك الدولة، أخذت قـبـيلة هوارة تشن إغـاراتهـا على جنوب مـصـر ، ولم تجـد من يمنعـهـا من حرق القـرى ونهبها ، وأدى ذلك فى النهاية إلى خراب الصعيد ، ودثور أكثر بلاده [٢].

وليت الأمر كـان قاصراً على قـبيلة هوارة وحدها ، فـمـا فـعلتـه تلك القـبيلة من فـسـاد فى أسوان تطرفـت فـيـه قـبـيلة بنى الكنز . ومن الملاحظ أواخر دولة المماليك الجراكسـة ، أن دور السلاطين صـار لايتعدى إرسال حملات تأديبية خاطفة إلى بنى الكنز بأسوان من حين لآخر ، ثم العـودة من حيث أتت بخفى حنين . مـن ذلك أن السلطان جقـمق أرسل عـام ٨٤٨هـ (١٤٤٤م) أيتـمش بن أزوباى المؤيدى استادار الصحبة ومعه خمسون مملوكا من المماليك السلطانيـة إلى أسوان لمحاربة الكنز ، « فـضـعف أيتمسن بمن معه عن قـتالهم » [٣]. وإزاء ذلك الفـشل الذى أحاط بتلك الحملة ، أرسـل السلطان حملة أخرى علها تحقق شيئا من النجاح . فأصدر أمراً فى ربيع الآخر ٨٤٨هـ (٢١يوليـو ١٤٤٤م) إلى الأمـير شـادى بك ، والأمـير غليظ الرقبـة ، أن يتوجهـا إلى الصـعيـد لدفع فـسـاد العرب من الكنوز ، وبعـد أن قضى المماليك مـا يقرب من ثلاثة شـهـور عـادوا فى ٢ رجب من نفس العـام ، ومـعـهم رءوس مـن بنى الكنز مـعلقـة على رماح[٤]. ويدل ذلك على أن المماليك قد فشلوا فى كسر شوكة بنى الكنز فى أسوان .

ومهما يكن من أمر ، فقد ظل العربان مصدراً للفتن والقلاقل في أسوان ، دون أن تبذل دولة المماليك الجراكسة جهداً جديا فى سبيل إعـادة الأمن والاسـتـقرار إليـهـا ، وأدى ارتباك دولة المماليك ، وفساد نظامها فى القرن الخامس عشر الميلادى إلى عجزها عن ثورات العربان .

١- المقريزى : السلوك ، جـ٤ ص٢٢٧ .

٢- المقريزى : السلوك ، جـ٤ ، ص٦٠٣ .

٣- ابو المحاسن : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، جـ١ ص١٢-١٣ .

٤- السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، ص٩٣ ؛ ابن حجر : عقد الجمان ، حوادث عام ٨٤٨هـ .

الفصل الثانى

الأهمية الاقتصادية لأسوان

الزراعة فى أسوان :

ضيق الرقعة الزراعية - طريقة الزراعة - أسوان نقطة مراقبة هامة لمياه الفيضان - المحاصيل الزراعية - الثروة الحيوانية - الثروة السمكية .

الصناعات الشعبية فى أسوان :

حجارة الطاحون - الأوانى الفخارية - الطين الأسوانى - استغلال خامات البيئة - صناعة الكحل .

التجارة فى أسوان :

أ- تجارة مصر مع النوبة عبر أسوان : التجار المسلمون - معاهدة البقط - سوق بلاق - صعوبة منطقة الشلال - وصول تجار النوبة إلى أسوان - التبادل التجارى فى منطقة المريس - حرمان التجار الأجانب من التوجه إلى النوبة - الرسوم الجمركية .

ب- طرق القوافل المتجهة من أسوان إلى النوبة والسودان : الطريق النيلى بين أسوان وعيذاب - تجارة أسوان مع عيذاب - الصكوك - انتعاش أسوان - حملة أرناط الصليبى على عيذاب - ظهور قوص وارتباطها بتجارة البحر الأحمر - تجار الكارم .

د- أهم السلع التى ترد من السودان والصحراء الشرقية إلى أسوان : الذهب - الزمرد - الرقيق - العاج - الأبنوس - قرن الخرتيت - التمر الهندى - اللبان - الصمغ العربى - ريش النعام - الشب - الإبل - المسك - القردة .

هـ- التجارة الداخلية فى أسوان : أسوان ملتقى طرق القوافل - الملاحة فى النيل الطريق البرى من القاهرة إلى أسوان - سوق أسوان - التعامل التجارى فى السوق - المحتسب - أسواق القرى فى أسوان .

و- تدهور النشاط التجارى لأسوان فى أواخر العصور الوسطى : ضعف المماليك الجراكسة - سياسة الاحتكار التجارى - تدهور عيذاب ثم سقوطها - ثورات العربان - كساد التجارة - فساد حكام الأقاليم فى الصعيد - اختلال الصعيد وخرابه .

لا جدال فى أن بعض مدن مصر فى العصور الوسطى اكتسبت مكانتها المرموقة من أهميتها الاقتصادية ، فمنها من قامت شهرتها على إنتاجها الزراعى الوفير ، والبعض كانت له شهرة خاصة فى الصناعة ، والبعض الآخر احتل مركزاً هاما فى التجارة . ومن هذا النوع الأخير كانت أسوان ، إذ ظلت طوال عصور تاريخها سوقا هائلا لتجارة الصادر والوارد . والواقع أنه توافرت لها ظروف عديدة أكسبتها أهميتها فى التجارة ، منها الموقع الجغرافى ، إذ كانت أسوان فى العصور الوسطى حلقة اتصال بين شمال الوادى وجنوبه ، فضلا عن أنها كانت ملتقى طرق القوافل الآتية من الشرق ووسط أفريقية . ويكفى أن اسم أسوان - كما سبق القول - - مشتق من كلمة «سيينى» ومعناها السوق نسبة إلى شهرتها فى النشاط التجارى .

وإذا كانت الشهرة التاريخية لأسوان فى العصور الوسطى قد ارتكزت أساسا على الدور الذى لعبته فى محيط التجارة ، فإن هذا لايعنى أنها خلت تماما من أوجه النشاط الاقتصادى الأخرى مثل الزراعة والصناعة ، هذا وإن كانت شهرة أسوان فى مجال الزراعة والصناعة لايمكن مقارنتها بشهرتها فى ميدان التجارة فى العصور الوسطى . وسنحاول أن نتناول بالدراسة جميع أوجه النشاط الاقتصادى لتلك المدينة ، حتى تصير الصورة متكاملة الجوانب .

الزراعة :

تنحصر أرض أسوان بين حافات مرتفعة تكاد تخنق أرضها ، فلاتترك سوى شريط ضيق من الأراضى الزراعية . وبالرغم من أن محافظة أسوان تقتطع مسافة طويلة من مجرى النيل ، إلا أن المساحة الاجمالية لسهله الفيضى فيها - التى تبلغ ١٠٦,٠٠٠ فدان - تأتى فى الذيل بالنسبة لبقية المحافظات الأخرى[١] . ونخرج من ذلك إلى أن الأراضى الزراعية لأسوان ظلت ضيقة الرقعة ، لاتسمح بفائض فى الإنتاج يمكن استغلاله فى أغراض تجارية وبعبارة أخرى ، فإن انتاجها الزراعى كان للاستهلاك المحلى فقط ، ولايزيد غالبا عن حاجة السكان .

والمعروف أن الزراعة اعتمدت فى مصر عموما طوال العصور الوسطى على مياه الفيضان . وقد روى الاصطخرى[٢] قائلا : «وزروعهم (زرع مصر) على ماء النيل ، تمتد فتعم المزارع من

١- صفى الدين أبو العز : مرفولوجية الأراضى المصرية ، ص١٥٣-١٥٥ .

٢- المسالك والممالك ص١٠ ، الإدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ص١٤٣ .

حد أسوان إلى حد الإسكندرية وسائر الريف ، فيقيم الماء من عند ابتداء الحر إلى الخريف ، ثم ينصرف فيزرع ثم لايسقى بعد ذلك » . وتلك الطريقة هى التى تعرف برى الحياض ، فاذا ورد ماء الفيضان غمر الأراضى ومكث فوق سطحها مدة كافية من الزمن حتى يمكن للأرض أن تتشبع بالماء تماما ، وحتى يتيسر رسوب الطمى الذى يكسبها قوة الخصب . وبعد ذلك يأخذ الفلاحون فى صرف الماء تدريجيا عن الأرض ورده مرة أخرى إلى النهر . وعقب الانتهاء من تلك العملية كان الفلاحون يتركون المحصول حتى أوان النضج ، ثم يشرعون فى الحصاد .

غير أن الزراعة فى أسوان لم تقف على زرع محصول واحد طول العام ، بل انقسمت إلى قسمين : زراعة شتوية ، وزراعة صيفية . وتبدأ الزراعة الشتوية فى ديسمبر وتمتد حتى مارس، وذلك فى الأراضى التى استفادت إلى أقصى حد من مياه الفيضان ، ولهذا لم تعد فى حاجة إلى الرى الصناعى حتى أوان الحصاد[١] . أما الزراعة الصيفية ، فكانت تمتد من أبريل حتى حوالى آخر يوليو ، وقد اقتصرت تلك الزراعة على الأماكن الواقعة على ضفتى النهر . وكان الفلاحون فى هذه الحالة يرفعون الماء من النيل بالسواقى[٢] والشادوف .

ولما كانت أرض أسوان الزراعية وغيرها من أراضى مصر خاضعة لمشيئة الفيضان ومقدار زيادته وارتفاعه ، فقد اهتم العرب - عقب الفتح العربى مباشرة - ببناء مقاييس للنيل فى مصر . وقيل أن عمرو بن العاص ابتنى مقياسا للنيل عند جزيرة أسوان[٣] الواقعة تجاه المدينة. وفى الحقيقة أن أسوان كان بها من قبل مقياسًا للنيل ، ذكره الجغرافى استرابون[٤] (٦٦-٢٤ق.م) ، ومن المحتمل أن عمرو بن العاص جدده وأصلحه .

والجدير بالذكر هنا ، أن أسوان كانت نقطة مراقبة هامة لمياه الفيضان الآتية من الحبشة ، نتيجة هبوب الرياح الموسمية الصيفية عليها ، وفى ذلك قال المقريزى[٥] : « ومنها أن أهل

١- راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، ص٦٦-٦٧ .

٢- ناصر خسرو : سفر نامة ، ص٧١ ؛ راشد البراوى : المرجع السابق ، ص٦٧ .

٣- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٥٧ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٢ ص٣١٠ ؛ سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص٢٦٨-٢٦٩ .

٤- وهيب كامل : استرابون فى مصر ، ص١١٦ .

٥- الخطط ، جـ١ ص٥٤ .

أسوان إنما يرقبون بلوغ الردع (حد وفاء النيل) إليهم مراقبة ، ويحافظون عليه بالنهار محافظة ، فإذا جن الليل أخذوا حقة خزف فوضعوا فيها مصباحا ، ثم يضعونه على حجر معد عندهم لذلك وجعلوا يرقبونه ، فإذا أطفئ المصباح بطفو الماء عليه ، علموا أن الردع قد وصل غايته المعهودة عندهم ... فحينئذ يأمر بكسر الأسداد التى على أفواه فرص المشارب ، فيفيض الماء على أرض مصر دفعة واحدة . ومنها إذا فتحت تلك الأسداد ، وكسرت الخليج ، وفاض النيل على بطائح أرض مصر ، شعر بذلك أهل أسوان للحين ، وقالوا : فى هذه الساعة كسرت الخليج وفاض ماء النيل على أرض مصر ، لأن ذلك يتبين لهم بتحول الماء دفعة ».

وعندما يأتى موسم الفيضان[١]، وتغمر مياهه الأراضى ، كان أهالى أسوان يتنقلون بين قراها بواسطة المراكب ، ولهذا السبب شيد الأهالى بيوتهم على المرتفعات والتلول - بعيداً عن الأراضى الزراعية - حتى لاتغرق [٢].

وقد فكر العالم الرياضى الهندسى أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم البصرى (ت٤٣٠هـ) فى الاستفادة من مياه النيل جنوبى أسوان درءاً لأخطار الفيضان ، وتنظيما لسقاية الأرض . فيروى عنه أنه قال : « لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال هو فى طرف الإقليم المصرى» ، فلما سمع الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى بنظريته ، بعث فى استدعائه وأكرم وفادته ، ثم طالبه بتنفيذ ما وعد به من أمر النيل ، فأخذ ابن الهيثم معه جماعة من الصناع ، وتوجه بهم إلى موضع الجنادل (الشلال الأول) جنوب أسوان ، وحين اختبر بآلاته منحدر النيل تبين له عجز هذه الأدوات وقصور الامكانات المتاحة عن أن تحقق فكرته . فعاد إلى القاهرة واعتذر للحاكم ، فقبل عذره[٣] . وإذا كان ابن الهيثم قد عجز عن تنفيذ فكرته ، فإنه يعتبر صاحب السبق الأول لفكرة إنشاء السد العالى التى حققتها ثورة ٢٣ يوليو المجيدة بعده بألف عام .

١- موسم الفيضان يزيد قليلا عن ثلاثة أشهر هى أبيب (يوليو) ومسرى (اغسطس) وتوت (سبتمبر) وأيام من بابه (اكتوبر) ، ثم يبدأ فى النقصان تدريجيا ابتداء من حوالى ٢٠ بابة .

٢- ناصر خسرو: سفر نامة ، ص٤٢ ؛ جاستون ڤييت: المواصلات فى مصر العصور الوسطى، ص٣٤ .

٣- ابن العبرى:مختصر الدول ص٣١٦-٣١٧ ؛ جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٣٤٢؛ Huart , Histoire des Arabs , p. 369 .

أما عن الأراضى الزراعية بأسوان[١] ، فإنها عرفت بخصوبتها . ويبدو أن الفلاحين قد اعتنوا بتسميدها ، فبالرغم أن السماد السائد فى العصور الوسطى ، كان ما يخرج من روث البقر والغنم وغيره[٢]، إلا أن الأراضى الزراعية فى أسوان كان يتم تسميدها بطفل حجرى هش - يبدو أنه يحتوى على نترات - يطلق عليه الأهالى هناك اسم «المرّوج» ويؤخذ من التلال والمرتفعات التى تحف بالنيل ، ولازال الفلاحون من أهل أسوان يستخدمون ذلك السماد إلى جانب الأسمدة الكيميائية الحديثة .

ومن المحاصيل الزراعية التى كانت تزرع فى أسوان ، القمح الذى وصف بكثرته ، فضلا عن غيره من سائر أنواع الحبوب مثل الذرة والشعير ، كما زرع بها سائر البقول مثل الفول والعدس والحمص ، والزيتون ، والفواكه مثل البطيخ الذى كان يطلق على نوع منه اسم «الدلاع» [٣]. وقد مدح الأدفوى[٤] بطيخ أسوان ، فذكر أنه كثير الحلاوة ، «والبطيخ الأخضر منه كبير الحبة ، بحيث ما يكاد يستقل بحمل الحبة الواحدة إلا الرجل الشديد القوة ! ومن الفواكه التى اشتهرت بها أسوان العنب، إذ ذكرها الأدفوى أيضا فى الطالع السعيد[٥] قائلا: «رأيت بها (أسوان) قطف عنب جاءت زنته ثمانية أرطال بالليثى ، ووزنت حبة عنب جاء زنتها عشرة دراهم » .

أما القطن الذى وجدت منه كميات كبيرة فى بلاد النوبة عندما غزاها تورانشاه أخو صلاح الدين الأيوبى عام ٥٦٩هـ (١١٧٣م) ، الأمر الذى يدل على زراعته فى تلك البلاد ، فإننا لانستطيع أن ننفى أو نؤكد زراعته فى أسوان زمن العصور الوسطى .

١- المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ص٢٢ .

٢- الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار ، ص٥٧ ؛ ميتز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ص٢٩ .

٣- المقريزى : الخطط ، جـ ص١٩٦؛ ناصر خسرو : سفر نامة، ص٧١ ؛ الإدريسى : نزهة المشتاق ص٢١ .

٤- الطالع السعيد ، ص٢٨ .

٥- نفس المصدر والصفحة ؛ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ص٣٣ .

٦- مروج الذهب ، جـ٢ ص٢٢ .

ولانجد جغرافيا أو مؤرخا فى العصور الوسطى ، إلا وحدثنا عن النخيل فى أسوان ، فقد اشتهرت بكثرة النخيل بها بسبب خصوبة أراضيها ، ومناخها المناسب لزراعته ، ويدل على ذلك قول المسعودى [١]: « تودع النواة الأرض فتنبت نخلة ، ويؤكل من ثمرها بعد سنتين ، وليست ترتبهم (تربة أسوان) كتربة البصرة ولا الكوفة ولاغيرهما من أرض النخل ، لأن النخل بالبصرة لاينبت من النوى بل ينبت من الثال والفسيل ، وهو النخل الصغير ، وما يخرج من النواة فليس بتمر ولايفلح » . وقد امتازت أسوان بأنها أكثر نخيلا من غيرها فى جهات الصعيد ، إذ بلغ مجموع محصولها من التمر فى سنة واحدة ستة وثلاثين ألف أردب [٢]. وبالإضافة إلى ذلك ، فإن أصناف التمر فى أسوان كانت - ولاتزال - متعددة . فجميع أصناف التمر الموجودة فى بغداد والكوفة والحجاز والبصرة يوجد مثيل لها فى أسوان [٣]، علاوة على أنها انفردت بأنواع من التمور لايوجد منها فى تلك البلاد[٤] . ويروى أن الخليفة العباسى هارون الرشيد طلب أن يحمل إليه أنواع التمور من أسوان ، من كل صنف ثمرة واحدة، فجمعت له ويبة [٥]. وثمة فارق بين تمر أسوان وتمر بلاد العراق والحجاز التى اشتهرت بزرع التمور ، أوضحه ياقوت الحموى[٦] قائلا : « ولايعرف فى الدنيا بسر يصير تمراً ولايرطب إلا بأسوان ، ولايتمر من بلح قبل أن يصير بسراً إلا بأسوان . وسألت بعض أهل أسوان عن ذلك فقال لى : كلما تراه من تمر أسوان لينا فهو مما تمر بعد أن يصير رطبا ، وما رأيته أحمر مغير اللون فهو مما يتمر بعد أن صار بسرا ، وما وجدته أبيض فهو مما يتمر بعد أن صار بلحا » . والتمر فى أسوان منه ما هو يابس مثل السكوتى والجنديلة والبرتموده والمقرشى ، ومنه ما يؤكل أخضر ذا لون أحمر أو أصفر ، من ذلك النوع الذى يطلق عليه أصابع الست وهو أحمر طويل ، ومنه أيضا رطبا أخضر كخضرة السلق « عجيب المنظر ، حسن المخبر» [٧].

١- مروج الذهب ، جـ٢ ص٢٢ .

٢- الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٢٧ .

٣- ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص١٤٦ .

٤- الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٢٧ .

٥- ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ١ ص٢٤٩ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٩٨ .

٦- معجم البلدان ، جـ١ ص٢١٩ .

٧- ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ١ ص٢٤٩ ؛ ابن ظهيرة : الفضائل الباهرة ، ص١٣٥ ، على مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ٨ ص٦٦ .

على أن النخيل لم تقتصر فائدته على قيمته الغذائية كفاكهة رخيصة لذيذة الطعم فى متناول الجميع ، بل كان الفلاحون فى أسوان العصور الوسطى - ولا زالوا - يستفيدون من خشبه وجريده وسعفه فى عمل السقوف لمنازلهم . وفضلا عن عن ذلك استخدم سعف النخيل فى صناعة الحصير والسلال والأكياس ، كما استخدم لوف النخيل فى عمل الحبال [١].

وينبت بأسوان النباتات التى تحتاج لجو حار ، من ذلك العشر والأهليلج[٢] ، والفلفل والأراك والخيار شنبر والقرظ [٣](شجر السنط) . ويتميز السنط بأنه لايخلف رمادا عقب احتراقه ، وهو خير أنواع الفحم النباتى . وقد احتكرت سلطنة المماليك خشب السنط ، فلا يتصرف فيه بالبيع والشراء إلا مستخدمو الديوان ، لشدة الحاجة إليه فى صناعة المراكب [٤].

وبالإضافة إلى الثروة الزراعية التى تميزت بها أسوان فى العصور الوسطى ، فإنها عرفت أيضا بكثرة الأسماك والغزلان والإبل والبقر والماعز والحملان والغنم [٥]. ومن الطبيعى أن البقر كثر استخدامه عن الجاموس ، لأن الأخير لايتحمل حرارة المنطقة . ومن ناحية أخرى ، فإن الجاموس حيوان حديث العهد فى البيئة المصرية ، ذلك أن السلالة الأفريقية منه لم تستأنس على الإطلاق ، أما السلالة المستأنسة فآسيوية وصلت إلى مصر من الهند عن طريق فارس والشرق الأوسط فى أواخر القرون الوسطى أى حوالى القرن السادس عشر الميلادى على ما يبدو ، فالجاموس المستأنس لم يكن معروفا فى مصر الفرعونية ولا فى مصر العربية الأولى[٦]. وتعتبر منطقة أسوان أكثر جهات مصر اهتماما بتربية الإبل ، خاصة وأن شهرة

1- Marlow , Four Aspects of Egypt , p . 81 .

٢- نبات الاهليج ثمرة اللالوب ، وهى فى شكل ثمر النخيل إلا أنه مغلف بقشرة وطعمه حلو مر ، ويستعمل كمسهل بنقعة فى الماء وشربه على الريق (نعوم شقير : تاريخ السودان ، جـ١ ص٣١) .

٣- المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص٢٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص١٧٥ .

٤- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٠٩- ١١٠ ، جـ٢ ص١٩٣ .

٥- ابن الوردى : فريدة العجائب وفريدة الغرائب ، ص٤٠ ، القروانى : أخبار الدول وآثار الأول ، ص٤٢٨ ؛ الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٣٣ .

٦- سليمان حزين : حضارة مصر أرض الكنانة ، ص٢٨٠ . ومما يذكر أن ابن إياس قال فى أحداث عام ٨٢٩هـ (١٤٢٥م) : «وفيه كثر الموت فى الجاموس ، حتى قل الجبن واللبن جداً بسبب ذلك وتضعضع أحوال الفلاحين ...» أنظر بدائع الزهور ، جـ٢ ص١٠٣ .

أسوان قامت على التجارة . والجمل هو الحيوان الأساسى الذى بواسطته تنقل البضائع الصادرة والواردة عبر الصحراء ، وسيتضح لنا أهمية الجمل عندما نتناول النشاط التجارى لأسوان فى العصور الوسطى .

أما عن أغنام أسوان ، فقد كانت بالغة فى الطيب والسمن [١]، وفضلها الأطباء على غيرها لأنها - فى نظرهم - أشد حرارة وأحلى طعما[٢]. وعندما قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون بمشروعه الهام للعناية بالثروة الحيوانية فى عام ٧٢٨ هـ (١٣٣٧م) استورد الأغنام الممتازة من بلاد الصعيد والنوبة بعد أن تتبع مراعيها[٣]. ونرجح أن أغنام أسوان ، كانت من بين الأغنام التى استوردها الناصر للتشابه التام بينها وبين أغنام الصعيد الأعلى وبلاد النوبة .

واشتهر ثغر أسوان كأحد مصايد الأسماك فى العصور الوسطى ، فمن أسماكه ما يملح ويوضع فى الأمطار (أوانى من الفخار) فإذا انضج عرف باسم «الملوحة والصير» - وهى لاتزيد فى حجمها عن قدر الأصبع - ثم يعرض للبيع ، وكان للمصايد ديوان أنشأه أحمد بن المدبر عامل الخراج على مصر قبل أن يتولى أحمد بن طولون حكمها فى عام ٢٥٤هـ (٨٦٨م)، واستمر هذا الديوان قائما ، وخصص موظفين من قبل الحكومة لمباشرة الصيد ، إلى أن أهملت المصايد فى أسوان - زمن المقريزى المتوفى عام ٨٤٥هـ - لخروج الثغر عن يد سلطنة المماليك الجراكسة ، وتغلب أولاد الكنز عليه[٤] .

كما وجدت فى أسوان حيوانات أخرى لا علاقة لها بالثروة الحيوانية ، مثل حيوان «السقنقور» الذى كان يتعالج بشحمه فى بعض الأغراض [٥].

١- الادريسى : نزهة المشتاق ، ص٢٢ الحميرى : الروض المعطار ، ص٥٧ .

٢- الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٢٨ .

٣- المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص٤٣٣-٤٣٤ ؛ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٩ ص١١٩ - ١٢٠ ، جمال الدين سرور : دولة قلاوون فى مصر ، ص٢٩٤ .

٤- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٠٦-١٠٧ .

٥- ابن حوقل : صورة الأرض ، ص١٥٠ .

الصناعات الشعبية :

لم تكن أسوان مدينة صناعية كالمدن التى اشتهرت بالصناعة فى مصر فى العصور الوسطى ، مثل تنيس ودمياط والأشمونين والفسطاط وغيرها . فأسوان قامت شهرتها – فى المحل الأول – على التجارة . بيد أنه يمكننا القول أن بعض الصناعات البسيطة البدائية قامت فيها . فالأهالى فى أسوان استغلوا موارد البيئة المحلية ، وصنعوها صناعة بسيطة ، لانستطيع أن نطلق عليها وصف صناعة بالمعنى المفهوم لتلك الكلمة فى العصور الوسطى ، وإن كان يمكننا أن نسميها صناعات شعبية أو حرف يدوية محلية ، لم تتجاوز حدود أسوان .

ومن الواضح أن أسوان اشتهرت منذ فجر التاريخ بمحاجر الجرانيت الغنية التى تتميز بالصلابة ، وقد استخدمها الفراعنة طوال عصور مصر القديمة فى بناء المعابد والمسلات والتماثيل . أما فى العصور الوسطى ، فلم تستغل تلك المحاجر كما كانت من قبل ، اللهم فيما عدا حجارة الطاحون التى كانت تقطع منها [١].

ومن الصناعات القديمة التى عرفها الإنسان ، صناعة الفخار ، فالأوانى المعدنية لم تكن معروفة فى العصور القديمة والوسطى ، ومن الفخار صنع الإنسان : الأزيار والقدور والأباريق وأوعية الخل والعسل والنبيذ والسمن ، وغير ذلك من الأوانى التى لا غنى عنها فى الحياة اليومية . وقد برع أهالى أسوان فى صناعة أنواع جيدة من الفخار « لايوازيه شئ من نوعه[٢]، استخدم فيه الطين الأسوانى[٣] . ويؤخذ ذلك الطين من جبل أطلق عليه المؤرخون العرب اسم «جبل الطفل» ، وكان ذلك الطين مفضلا فى صناعة «كيزان الفقاع» وهى أوان استخدمت فى شرب نوع من الشراب يتخذ من الشعير[٤] ، وقد سمى بالفقاع لما يعلوه من

١– المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٥٨ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، مادة أسوان .

٢– الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٣٣ .

٣– الطين الأسوانى عبارة عن طبقات من صخر دقيق يمتاز بارتفاع نسبة سليكات الألومنيوم فيه ، فهو أصلح لذلك من طمى النيل العادى لصناعة الأوانى الخزفية الممتازة ، وقد تكون هذا الصخر فى عصر جيولوجى قديم حيث كان البحر غامراً هذا الجزء من الأرض حتى أسوان وما فوقها ، وفى مياهه تكونت هذه الرواسب قرب مدينة أسوان . ويستخدم الطين الأسوانى أيضا فى صناعة الطوب الحرارى الممتاز (كتيب أصدرته مديرية «محافظة » أسوان عام ١٩٤٩) .

٤– الأدفوى : الطالع السعيد ، ص١٧ ؛ ابن دقماق : الانتصار ، ص٣٤ .

الزبد والفقاع . كذلك مهر أهالى أسوان فى صنع أوعية الفخار التى تسمى « البرام» امتازت بجودة الطبخ فيها ، وهى تصنع من حجر يسمى «حجر البرام» فيجوف ذلك الحجر نحو ثلاثة أو أربعة سنتيمترات، وأحيانا يسحق قدر معين منه، ويضاف إليه مثله من الطين الأسوانى، ويمزج ويعجن أربع ساعات ثم يعمل منه أوعية البرام. وتجفف فى الشمس والهواء مدة يومين ، ثم توضع على نار خفيفة فى حفرة مخصصة لذلك تسع نحو عشرة أبرمة أو اثنى عشر دفعة واحدة [١] .

ومن الصناعات الشعبية التى انفردت بها أسوان صناعة المراوح من سعف النخيل والدوم ، تلك النباتات التى جادت بها تربة أسوان ، وقد استخدمت تلك المراوح فى التهوية من حر الصيف القائظ ، وروى أن الفقيه القاضى محمد بن سليمان بن فرج الكندى(ت ٦٨٧هـ) ، اتخذ من عمل المراوح بيده فى أسوان حرفة يأكل من ثمنها ، حتى أنه عرف بالمراوحى [٢].

ومهر النوبيون فى أسوان - وخاصة فى قرى ونجوع غرب أسوان - فى صنعة الحصر والسلال والأطباق من سعف النخيل وشجر الدوم ، فقد أشادت إحدى الرحالات التى زارت أسوان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى بجودة تلك الصناعة ودقتها ومتانتها، فضلا عن تنوع أشكالها وزخارفها ، كما نوهت بالحصر والسلال التى تشبه مثيلاتها المصورة على جدران المعابد الفرعونية ، وتعتبر تلك الصناعة وظيفية ، بمعنى أن يقوم بها الفتيات من سن السابعة حتى زواجهن ، وكل فتاة تتعلم تلك الحرفة على يدى أمها أو أيدى النساء والعجائز [٣].

كذلك برع أهالى أسوان فى صناعة الكحل التى عرفت فى العصور الوسطى باسم «صناعة اليد» ومن الذين أجادوا تلك الصنعة ، ونبغوا فيها ، الطبيب هبة الله بن صدقة الأسوانى (ت ٦٤٢هـ) ، إذ توارث أبناؤه تلك الصناعة ، واشتهروا بها فى القاهرة [٤].

تلك هى الصناعات البسيطة المحلية التى وجدت فى أسوان ، وهى شئ غير ذى بال إذا قورنت بالصناعات الهائلة التى اشتهرت بها بعض المدن فى مصر زمن العصور الوسطى .

١- على مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ٨ ص٦٧ .

٢- الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٥٢٢ .

٣- سعد الخادم : الصناعات الشعبية فى مصر ، ص٣٥ ، ص٩٣ .

٤- الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٦٩٠ - ٦٩١ .

التجارة :

شهدت أسوان نشاطا بارزا فى التجارة فى العصور الوسطى ، فتكاتفت عليها ظروف عديدة ، وجعلتها تتبوأ مكانة مرموقة فى التجارة ، منها الموقع الملائم فهى تتاخم حدود النوبة من ناحية الجنوب ، وتنتهى إلى مداخلها طرق القوافل الآتية من السودان والصحراء الشرقية ، فضلا عن أنها تتصل بالعاصمة بالطريق البرى الممهد ، والطريق النهرى الخالى من العقبات التى تعترض مجراه .

(أ) تجارة مصر مع النوبة والسودان عبر أسوان :

يرجع التعامل التجارى بين مصر والنوبة إلى العصور القديمة ، فوحدة وادى النيل مبدأ أوجدته الطبيعة وفرضته ، إذ تمكن المصرى الذى عاش فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد أن يجوب مناطق الوادى فى بلاد النوبة السفلى والعليا إلى حدود بلاد كوش أو الحبشة ، ووصلت قوافل التجارة المصرية إلى تلك البلاد على ظهور الحمير أو بطريق السفن فى النيل فى عهد الأسرة الخامسة (٢٤٩٤ - ٢٣٤٥ ق.م تقريبا) ، ومن البضائع التى حملتها مصر إلى النوبة فى ذلك الوقت نسيج الكتان والعطور وأسلحة من النحاس والزيوت والتمائم ، وتعود القوافل محملة بخشب الأبنوس والجلود والصمغ وريش النعام والبخور [١]. وقد أشرف حاكم أسوان - فى عهد الأسرة الخامسة - على تلك المناطق ، وأيضا على البعثات التى أرسلتها مصر إلى تلك البلاد ، كما وجد فى أسوان سوق عامة ترسو فيها القوافل ، ويتبادل رئيس القافلة المصرية وهو عادة مندوب من حكومة فرعون ، أطيب التحيات مع رؤساء قبائل أرتيت والكنوز والنحسيين (Iret - ian - Neha) ثم يتم تبادل السلع بينهم [٢].

والمتتبع لتاريخ أسوان على مر العصور ، وخاصة فى مضمار العلاقات بين مصر والنوبة ، لابد وأن يسترعى انتباهه أن تلك المدينة كانت السوق الطبيعية لتجارة النوبة وأواسط أفريقية[٣] . وبمعنى آخر ، فإن أسوان تعتبر أهم أبواب مصر الجنوبية بالنسبة لتجارة النوبة ، فعن طريقها شهدت مصر نشاطا تجاريا كبيرا [٤].

١- سامى جبرة : وحدة وادى النيل ، ص١٨٦-١٨٧ .

٢- المرجع السابق ، ص٨٧ .

٣- دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أسوان .

٤- سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٢٩٠ .

أما الرومان ، فالبرغم من عدم اهتمامهم بتجارة البحر الأحمر وموانيه البطلمية ، فإنهم لم يهملوا تجارة النوبة والسودان ، بل حاولوا الحصول على منتجات تلك البلاد ، فكان يحمل إلى مصر مقادير عظيمة من الذهب والعاج ، ومن أجل تجارة النوبة والسودان بسط الرومان نفوذهم على إقليم دوديكاسخوينوس Dodekaschoinos الذى يمتد من أسوان إلى المحرقة ، وذلك لتحكمه فى الطرق المؤدية إلى الأقاليم الجنوبية [١].

أما العرب الذين أتوا إلى مصر فى القرن السابع الميلادى ، فلم تكن تنقصهم الدراية بالتجارة . فهم كما نعلم أهل تجارة ، ويكفينا شهادة الجغرافى استرابون Strabo الذى قال فيهم «العرب كلهم أهل تجارة » ، والقول المعروف عن أهل مكة قبل الإسلام « من لم يكن تاجراً فليس عندهم بشئ » . ولايجب أن نغفل أن من الأمور التى حببت التجارة إلى المسلمين، أنها كانت مهنة النبى ﷺ فى فتوته وشبابه ، فقاد التجارة ومارسها أثناء موسم الحج إلى مكة المكرمة ، وقد جاء عنه الحديث الشريف : «عليكم بالتجارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق» [٢].

ومنذ الفتح العربى لمصر ، أخذت قوافل التجار المسلمين ، تذهب إلى النوبة ، وتعود بالرقيق من أسواقها . وليس أدل على وجود التعامل بين مصر والنوبة - منذ الفتح العربى - من أن اتفاقية البقط نظمت ذلك التعامل وحددت أصوله ، فقد نصت تلك المعاهدة على حرية المرور التجارى بين القطرين « على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم غير مقيمين فيه ، وعليكم من نزل بلدكم أو بطرفه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم » . ومعنى هذا أن تجار المسلمين كان باستطاعتهم أن يتوجهوا إلى بلاد النوبة ، والإقامة فيها بصفة مؤقتة لحين انتهاء مهامهم التجارية علاوة على تأمين أموالهم وأنفسهم، ومن المحتمل أن تجار المسلمين من العرب كانوا قد بدأوا يدخلون النوبة قبل إبرام المعاهدة (٣١هـ) ، وأن هذه المعاهدة لم تكن تشرع للمستقبل بقدر ما تفرض حقيقة واقعة[٣]. والمعروف أن اتفاقية البقط تضمنت أن تستورد مصر الرقيق من النوبة ، وفى مقابل ذلك تصدر إليها القمح والعدس والحبوب .

١- قسطنطين زريق : التجارة الاسلامية ، ص٥٤٨ ؛

Camb - Med - Hist . Vol - 4 , p . 286 .

٢- حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية ، ص٢٨٦ .

٣- المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ص٢٢ .

وجرى التبادل التجارى بين مصر والنوبة ، عقب الفتح العربى ، فى قرية بلاق التى كانت بمثابة سوق تأتى إليه سفن النوبة وسفن المسلمين من مصر وأسوان [١]. والجدير بالذكر هنا أن حدود مصر الجنوبية - عند أسوان - كانت تنتهى فى بلاق ، وآخر حدود النوبة التى تواجه مصر تنتهى فى قرية القصر ، والمسافة بين القريتين تبلغ ميلا واحدا [٢]. وتبعد بلاق عن أسوان مسافة أربعة أميال (ثمانية كيلو مترات) ، ويقوم الشلال الأول فاصلا بينهما ، ومنطقة الشلال صعبة مليئة بالصخور ، لاتستطيع المراكب السير فيها إلا بالحيلة ، ودلالة ذلك - كما يروى المقريزي[٣] - من يخبر ذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك .وإزاء ذلك كان لابد لسفن النوبة أن تتوقف عند بلاق لعدم استطاعتها السير شمالا خلال منطقة الشلال الوعرة ، كذلك كان من المحتم أن تتوقف سفن المسلمين الآتية من أسوان ، إذ لاتستطيع السير جنوبا إلا بصعوبة . إذاً لم يكن اختيار قرية بلاق ، كأحد الأسواق للتعامل التجارى بين مصر والنوبة اختياراً عفويًا ،بل هو اختيار حتمته الظروف الطبيعية فى منطقة الشلال .

والملاحة النهرية من أسوان إلى وادى حلفا تتصف بالصعوبة والمشاق ، إذ أن النيل جنوبى أسوان لايهيئ طريقا سهلا للمراكب . فالشلال الأول - كما سبق أن ذكرنا - ملئ بالصخور التى كانت تعوق السفر جنوب مصر . غير أن الأهالى اتخذوا لمرور السفن بين الشلالات طرقا معينة يعرفونها ، كربطها بأحبال وجرها بين تلك الصخور حتى تمر فيها بسلام [٤]. أما الشلال الثانى (شلال حلفا) المعروف بشلال عبكة ، فيعد أعظم شلال بعد شلال أسوان ، إذ يبلغ طوله حوالى ١٢ كيلو مترا ، وكانت أغلب السفن السودانية التى تقصد مصر بالسلع ترسو فى موردة وادى حلفا ،حيث عرفت منذ القدم لاتساعها ، وتجتمع فيها السفن الصاعدة أو الهابطة بالمتاجر المصرية والسودانية على البرين [٥]. ومن المناطق التى كانت تجد فيها المراكب صعوبة فى السير ، منطقة كروسكو ، فالنيل فى تلك المنطقة ينعطف إلى الشمال الغربى بصورة قوس، فضلا عن أن الرياح الشمالية والشمالية الغربية ، لاتساعد على سير السفن الصاعدة ،

١- المقريزى :الخطط ، جـ١ ص١٨٩ ؛ ابو صالح الأرمنى : تاريخه ، ورقة ١٠١أ .

٢- الخطط ، جـ١ ص١٩٨ .

٣- اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، جـ٢ ص٧٣ .

٤- المرجع السابق ، جـ٢ ص٧٣ .

فيسحبها الملاحون بالجبال . وكانت عادة السفن قديما أن تشحن بالبضائع من موردة كروسكو إلى الشلال الأول ، فإن كان وقت فيضان النيل ، أمكن للسفن أن تستمر حتى أسوان ، وإلا نقلت من السفن عند الشلال الأول وحملت على الجمال إلى أسوان ، ثم تنقل ثانية بسفن تسير بها ناحية الشمال [١].

وعلى أية حال ، فإن الصخور والشلالات جنوب أسوان تقف عائقا فى وجه السفن ، وتزيد السفر فى النيل مشقة وخطرا ، بخلاف نيل مصر من أسوان فنازلا شمالا ، فإنه يخلو من الصخور والشلالات ، ويسهل السفر بالسفن الشراعية من أقصى البلاد إلى أقصاها ، وهذا هو الذى جعل مصر منذ أقدم العصور بلاداً واحدة حدها الطبيعى أسوان [٢].

وإذا كانت تجارة النوبة بجلب سلعهم بالسفن إلى بلاق لمقابلة التجار المسلمين وتبادل السلع معهم ، بل كانت قوافلهم تأتى إلى أسوان بوصفها أكبر سوق تجارى فى جنوب مصر ، فضلا عن أنها السوق الوحيد الذى لايتجاوزه شمالا . وفى ذلك يقول المسعودى[٣] : « والنوبة متصلة بتجارتها وقوافلها بمدينة أسوان » .

وإذا كانت تجارة النوبة قد وقفت عند بلاق أو أسوان ، ولم تتوغل شمالا أبعد من ذلك ، فإن التجار المسلمين كانوا على العكس من ذلك فساروا بسلعهم جنوب قرية القصر - اخر الحد الشمالى للنوبة المسيحية - حتى نهاية منطقة المريس ، فتلك المنطقة التى تقع بين الشلال الأول والثانى ، خضعت لنفوذ حاكم عرف فى المراجع المعاصرة باسم «صاحب الجبل » . ويبدو أن صاحب الجبل اتخذ من قرية «المقس الأعلى» عند الشلال الثانى ، مقراً لمباشرة نفوذه ، فعند تلك القرية لم يكن مسموحًا لأي شخص أن يتجاوز حدودها جنوبا ، حتى «ولو كان ملك من الملوك» إلا بإذن من ملك النوبة . إذاً فالمنطقة التى سمح فيها للتجار المسلمين بمزاولة نشاطهم التجارى ، كانت تنحصر بين قرية القصر عند الشلال الأول حتى قرية المقس الأعلى عند الشلال الثانى، أما جنوب تلك القرية، فلم يكن مسموحًا لأى تاجر بمزاولة نشاطه فيها[٤].

١- المرجع السابق ، جـ٢ ص٧٣ - ٧٤ .

٢- نعوم شقير : تاريخ السودان ، جـ١ ص١٦-١٧ .

٣- مروج الذهب ، جـ٢ ص٢٦ .

٤- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٨٩ .

وفى منطقة المريس ، كان التبادل التجارى بين المسلمين والنوبيين يتم بطريقتين : الدفع المباشر (النقد) ، والمقايضة ، ففى الجزء الأسفل منها كانت حركة البيع والشراء تتم بطريق الدفع أما فى الجزء الأعلى منها ، فتتم بطريق المقايضة . ويدل على ذلك قول المقريزى [١]، نقلا عن عبدالله بن أحمد بن سليم الأسوانى : « ولايجوزها (قرية المقس الأعلى) دينار ولا درهم ، إذ كانوا لايتبايعون بذلك إلا دون الجنادل (شلال وادى حلفا) مع المسلمين ، وما فوق ذلك لابيع بينهم ولا شراء ، وإنما هى معاوضة بالرقيق والمواشى والجبال والحديد والحبوب» . كما يروى أبو صالح الأرمنى فى تاريخه[٢] ، أن البيع والشراء فى قرية المقس الأعلى كان يتم بطريق المقايضة .

ومما يسترعى الانتباه أن العلاقات العدائية بين مصر الإسلامية ومملكة النوبة المسيحية فى القرون الإسلامية الأولى ، لم تؤثر فى النشاط التجارى بين البلدين . فبالرغم أن النوبيين نقضوا اتفاقية البقط مرارا ، وامتنعوا عن الالتزام بما جاء بها من شروط ، إلا أنهم لم يمنعوا التجار المسلمين من دخول الأراضى النوبية لمزاولة النشاط التجارى . وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن مزاولة النشاط التجارى يغلب عليه - فى معظم الأحيان - الطابع السلمى . ونستطيع القول أن مملكة النوبة المسيحية ، كانت تسير على مبدأ فحواه أن العلاقات التجارية بين البلدين ، لا دخل لها بالعلاقات العدائية بينهما .

وذهب بعض الباحثين إلى أن تجارة مصر مع النوبة ، لم تكن بأيدى المصريين ، وإنما كان تجار النوبة هم الذين يأتون فى النيل حتى منطقة الجنادل (الشلال الأول) ، ثم ينقلون بضائعهم على ظهور الجمال إلى أسوان[٣] . كما غالى البعض ، فأضاف بقوله أن المصريين نادراً ما يتوجهون إلى بلاد النوبة بهدف التجارة [٤]. ويبدو أن هؤلاء الباحثين قد جانبهم الصواب فكثيراً ما تردد التجار المسلمون إلى النوبة لجلب السلع والبضائع من هناك . ويؤيد رأينا ، ما

١- المصدر السابق ، جـ١ ص١٩٠ .

٢- ورقة ٦٥ ب .

٣- سيدة كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٢٨٠ .

٤- آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ص٣٤١ .

رواه الرحالة ناصر خسرو[١] ، الذى شاهد بنفسه تجار أسوان يذهبون إلى بلاد النوبة ، ومعهم الخرز والأمشاط والمرجان ، ويجلبون معهم الرقيق . هذا بالإضافة إلى أن منطقة المريس ، صارت مزدحمة بالمسلمين فى القرون الثلاثة الأولى التى أعقبت الفتح العربى . ولم يكن الاستقرار نتيجة فتح لتلك المنطقة ، بل جاء عن طريق التسلل السلمى للمسلمين ، ومن المؤكد أن ذلك التسلل كان من أسبابه النشاط التجارى الذى تركز فى تجارة الرقيق الأسود للحاجة إليهم فى أنحاء الدولة الإسلامية ، إذ أن منطقة المريس الجدباء لاتغرى بالبقاء فيها .

وأتيحت الفرصة للتجار المسلمين ، أن ينفذوا بسلعهم إلى ما وراء حدود منطقة المريس . وذلك عندما قام داود ملك النوبة بالإغارة على ثغر أسوان عام ٦٧١هـ (١٢٧٢م) ، الأمر الذى أغضب بيبرس وجعله يثور ، وزاد من ثورته أن أسوان كانت أهم منفذ تجارى يطل على بلاد النوبة ، مما زاد من خطورة ذلك الاعتداء ، لذلك أرسل بيبرس حملة عام ٦٧٥هـ (١٢٧٦م) ، مكنت مصر من بسط سيطرتها على مملكة النوبة [٢]. وبذلك فتح بيبرس الباب على مصراعيه للتجار المسلمين لمزاولة نشاطهم التجارى فى جميع أنحاء بلاد النوبة . ودرج المماليك - بعد وفاة بيبرس عام ١٢٧٧م - على التدخل فى شئون النوبة الداخلية ، حماية لتجارتها ، وتأمينا لطريق التجارة بين مصر والنوبة[٣] .

ولصعوبة الطريق بين مصر وبلاد النوبة والسودان ، فضلا عن مشقته وبعده وانعدام الأمن فى بعض الأحيان ، فإن تجارة السودان كانت تتكلف النفقات الباهظة التى لايقدر عليها غير التجار الذين يحملون رءوس أموال ضخمة[٤] . وبالرغم من ذلك فإن التجار المسلمين كثيراً ما ترددوا على السودان لجلب بضائعه التى كانوا يجنون من ورائها الأرباح الطائلة ، وفى ذلك

١- سفر نامة ، ص٤١ ؛ زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص١٨٠ ومن المعروف أن الرحالة ناصر خسرو قام برحلة بين ٤٣٧ و ٤٤٤ هـ ابتدأها من مرو فى خراسان ، ماراً بأذربيجان وأرمينية بالشام وفلسطين ومصر والحجاز ونجد وجنوبى العراق ، ثم عاد إلى فارس ، وقضى من رحلته ثلاث سنوات ذهب أثناءها إلى الحجاز عن طريق أسوان - عيذاب - وقد مكث فى أسوان ٢١ يومًا أمدنا عنها بمعلومات بالغة الأهمية . انظر عبد الوهاب عزام عن رحلة ناصر خسرو .

٢- سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص١١٨-١١٢ .

٣- سعيد عاشور : مصر فى عهد دولة المماليك البحرية ، ص٨٢ .

٤- ابن خلدون : المقدمة ، جـ٣ ص٩١٨ .

يقول ابن خلدون (١) : «سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء ، وكذلك سلعنا لديهم، فتعظم بضائع التجار من تناقلها ، ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك » .

على أن دور تجار النوبة لم يكن قاصراً على جلب سلع بلادهم لأسوان فقط ، بل قاموا بدور الوساطة التجارية بين مصر والحبشة ، فأهل الحبشة ليسوا بأهل تجارة ، ونادراً ما يتاجرون بعيدا عن أوطانهم ، فكانوا يبيعون بضائعهم لسكان النوبة ، ثم يقوم هؤلاء باحضارها إلى مصر لتصريفها فى سوق أسوان (٢).

ولم يكن مسموحًا لأي تاجر أوربى تحت أى ظروف ما أن يسافر بتجارته جنوبا إلى بلاد النوبة . والسبب الظاهرى لهذه السياسة ، خوف سلاطين المماليك أن يتآمر الأوربيون مع الحبشة ضد الإسلام ، أما السبب الحقيقى فهو حرص سلاطين المماليك على أن تبقى طرق التجارة فى الأراضى المملوكية سراً من أسرارهم ، لايصل الأوربيون إلى معرفته(٣). ومما يؤيد ذلك الرأى ، أن ثغر أسوان لم يكن ضمن الثغور المصرية التى فرضت فيها رسوم جمركية على السلع التى يأتى بها التجار الأوربيون مثل ثغر الاسكندرية (٤).

وفى ذكر الرسوم الجمركية ، كانت أسوان أهم المراكز التى تجبى فيها الرسوم الجمركية على السلع التى تمر بها (٥). فقد زاد من أهميتها أنها إحدى نهايات طريق القوافل والبضائع الواردة من عيذاب ، فضلا عن أنها كانت آخر محطة تجارية تقف عندها سلع النوبة والسودان . وقد بلغ إيراد الرسوم الجمركية فى ثغر أسوان عام ٥٨٥هـ (١١٨٩م) ٢٥,٠٠٠ دينار (٦)، أى ما يوازى ١٥,٠٠٠ جنيه بالعملة المصرية المتداولة عام ١٩٣٠ م (٧). ولاريب أن هذا الإيراد قد زاد فى عصر دولة المماليك ، بسبب ازدهار التجارة ونموها فى تلك الدولة .

١- المقدمة ، جـ٣ ص٩١٨-٩١٩ .

2- Wiet , Memoires sur l'Egypte , p . 80 .

3- Ziada , Foreign Relations of Egypt in the fifteenth Century , vol . I , p . 216 .

٤- ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص٣٤٩ .

٥- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٠٨ ؛ ابن جبير : الرحلة ، ص٦١-٦٣ .

٦- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٩٧ .

٧- عمر طوسون : مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن ، ص٥٩ .

(ب) طرق القوافل المتجهة من أسوان إلى النوبة والسودان :

أما عن طرق القوافل التجارية التي تربط مصر والنوبة والسودان عند أسوان فقد كانت ثلاثة : الطريق الأول وهو الطريق النيلى التى تسير فيه القوافل بحذاء النيل ، والطريق الثانى كانت تخترقه القوافل عبر الصحراء الشرقية وفيافيها الشاسعة ، والطريق الثالث كانت تجوبه القوافل فى الصحراء الغربية ويسمى درب الأربعين [١].

وسنتناول بالدراسة كل طريق على حدة ، حتى يتبين لنا مدى ما كانت تعانيه القوافل التجارية من تعب ومشاق ، من أجل تبادل السلع والبضائع بين مصر والسودان .

١- الطريق النيلى :

وفيه تسير القوافل التجارية - بعد مغادرتها لأسوان - على الجانب الشرقى من نهر النيل، فتمر على جزيرة فيلة (أنس الوجود) على بعد أربعة أميال من أسوان إلى أن تصل قرية ساق الجمل من أعمال دابود ، ثم أودية السيالة وعبدون ودهميت ، ومن دهميت تواصل القوافل سيرها إلى قرتاس ، ثم لمجمع الجامع ، ثم تيفة ، ثم قرية دار موسى ، ثم وادى كلابشة وهو أكبر الوديان التى تمر بها الجمال منذ قيامها من أسوان[٢] . ومن وادى كلابشة تواصل القوافل سيرها إلى قرية الشقيق ، ووادي هور ، وتمر على قرية دندور ، ووادى أبيض ، وقرى ماريا (مريم) وقرشة وكشتمنة وجبل حياتي وقرية كوبان التى تقع تجاه معبد الدكة على الضفة الغربية للنيل ، إلى أن تصل العلاقى[٣] . ومن العلاقى تستمر القوافل فى سيرها مارة بأودية المحرقة والسيالة ونعمة والنصرلاب والمضيق والسبوع والعرب وسنقارى إلى أن تصل كروسكو. ومن كروسكو إلى قرية بشير نيرقة ، ثم ضراب ، ثم وادى عشرا ، ثم وادى الشباك ، ثم وادى بستان (الجنينة) ، ثم قرية توشكى ، ومنها إلى قرية أرمنا ، ثم عقبة فريق حيث يقع أمامها على الضفة الغربية معبد أبى سمبل ، ثم قلعة إدا التى تواجهها على الضفة الغربية

1- Longfield , The Growth of Sudan Communication , pp . 310-311 , Charlesworth , Trade - Routes and Conmerce of the Empire , p. 19 , 64 .

٢- بوركهارت : رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان ، ص٣-١٠ .

٣- رحلات بوركهارت ، ص١١-١٤ .

٤- رحلات بوركهارت ، ص١٥-١٧ .

قرية بلانة ، ثم قرى قسطل وأدندان وفرس وسرة غرب ودبيرة وأشكيت ودبروسة وسقوى ، إلى أن تصل وادى حلفا [١]. وبعد أن تغادر القوافل وادى حلفا تصل إلى وادى عبكة ، ثم وادى مرشد وقرية ست الحاجة ، ووادى سرس ، ووادى أتيرى، وعقبة جبل دوشة ، ووادى أمبقول ثم وادى أم قناصر [٢]. ومن وادى أم قناصر تسير القوافل فى وادى جبلى حتى تصل إلى وادى لامولة ، وبعد ذلك الوادى تنفرج الأرض حتى تصل إلى وادى أكمة ، ثم مقابل جزيرة كولب وهى الطرف الشمالى لإقليم السكوت ، ثم وادى دال ، ثم قرية سركاماتو . ومن سركاموتو تستمر القوافل فى سيرها إلى الدابة ، ثم مجموعة من النجوع تسمى فركة ، ثم قرية مكركة ، ثم قرية كنيسة ، ثم نجع الشيخ محدرة ، ثم قرية عمارة التى تعتبر النهاية الجنوبية لإقليم السكوت [٣]. ومن جنوب عمارة يبدأ إقليم صاى فتسلكه القوافل مارة بقرية عبرى وجزيرة صاى وقرية قويق ، ووادى حميدة ، ووادى عبود ، إلى أن تصل عند أرو وهى الحد الجنوبى لإقليم صاى[٤] . ثم تواصل القوافل سيرها إلى الوادى . ثم مجموعة من النجوع تجاه وادى تينارى ، ثم تواصل السير فى إقليم المحس ، مارة بأهم بلاده: دلقوه ، وكوكة ، ونورى ، وبرجة، وفريق ، إلى أن تصل حاتك حيث يبدأ جنوبها سهول دنقلة الفسيحة [٥].

على أن ذلك الطريق النيلى الذى كانت تسير فيه القوافل التجارية من أسوان حتى دنقلة ، محاذية للضفة الشرقية للنيل ، لم يكن سهلا ، فالطبيعة الصخرية لبلاد السودان على حذاء النيل بين وادى حلفا وأسوان ، فضلا عن شدة الجفاف ، كل ذلك جعل المواصلات البرية بين مصر والسودان صعبة وشاقة [٦]. وبالرغم مما يكتنف ذلك الطريق من وعورة ، إلا أن له محاسنا منها أن ذلك الطريق كان آمنا ، كذلك كانت القوافل ترد النيل للاستقاء وحمل الماء اللازم إلى اليوم التالى[٧] . أما الطريق النيلى على الضفة الغربية ، فكانت القوافل تشقه بسهولة عن الضفة الشرقية ، فأرضه رملية سهلة السلوك ، لا صعود فيه ولاهبوط ، ويمكن السير فيه بلا خبير لوضوحها [٨].

١- رحلات بوركهارت ، ص١٧-٣٧ .

٢- رحلات بوركهارت ، ص٣٨-٤٣ .

٣- رحلات بوركهارت ، ص٤٣-٤٧ .

٤- رحلات بوركهارت ، ص٤٨-٥٠ .

٥- رحلات بوركهارت ، ص٥١-٥٧ .

6- Arkell , A Hist . of the Sudan , p. 36 .

٧- على مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ١٧ ص٤١ .

٨- نفس المرجع والمكان .

٢- طريق درب الأربعين :

أما طريق درب الأربعين ، فقد سميت بهذا الاسم لأن القوافل تقطعها فى مدة أربعين يوما من أسيوط إلى دارفور ؛ وهى طريق قديمة ، طرقتها القوافل منذ أيام الفراعنة ، وقد خلف لنا قواد القوافل من الأسرة السادسة (٢٣٤٥-٢١٨١ ق.م تقريبا) نقوشا على مقابرهم التى تقع على الضفة الغربية لأسوان ، وذكروا فيها رحلاتهم التى قاموا بها من أسوان ، ومن أعظم القوافل حرخوف الذى خرج فى رحلته الثالثة من منطقة أسوان متخذا طريق الواحات ، ولو تتبعنا رحلته لعرفنا أنه سار على الضفة الغربية للنيل ، إلى أن وصل قبيل وادي حلفا عند مكان يقال له « ساقية العبد » ، ثم سار فى طريق يصل إلى واحة سليمة على درب الأربعين الذى ينتهى إلى دارفور[١] . والمعروف أن الصحراء الغربية تمتاز بسلسلة من الواحات تمتد بحذاء النيل ، فكانت القوافل تخرج من أسيوط ، وتمر جنوبا بالواحات الخارجة التى يبلغ طولها حوالى مائة ميل ، وبسلسلة من الواحات الصغيرة والقرى والآبار حتى تصل إلى واحة سليمة ، ومنها تسير إلى بئر السلطان حتى دارفور ، وهذه الطريق الرئيسية - عبر الصحراء الغربية - يمكن الوصول إليها بطريق متقاطعة تؤدى إلى الصحراء من جرجا أو سوهاج أو أرمنت أو الأقصر أو إدفو ، وبوجه خاص من أسوان التى تقع تجاه قرية المكس فى هذه الطريق[٢] . والطريق التى تصل أسوان بدرب الأربعين ، تتجه نحو الجنوب الغربى ، فتسير فيها القوافل التجارية مارة بواحتى كركر ودنقل ، وبئر أبى نجيل ، ثم إلى واحة سليمة على درب الأربعين[٣]. وبالإضافة إلى طريق درب الأربعين التى كانت تتصل بها القوافل عند أسوان ، ثم تخترق الصحراء الغربية ، كان هناك طريق أخرى تسلكها القوافل التى تخرج من أسوان ، فبدلا من سيرها عبر الصحراء ، كانت تسير بحذاء النيل على الضفة الغربية حتى تصل إلى دنقلة ، ومنها تتجه إلى دارفور ، وهى طريق سهلة طالما سلكتها القوافل [٤]. وإذا

١- أحمد فخرى : الواحات المصرية فى التاريخ ، ص١٧٧ ؛

Arkell , op , cit ., p p . 42-43 .

2- Shaw , Darb el Arbain , (S.N.R. vol ., XII) , pp . 65-67 .

٣- سليم حسن : مصر القديمة ، جـ١٠ ص٥٥ .

4- Mac Micheal , Nubian elements in Darfur. (S.N.R. vol . I) p. 31, Shaw , op. cit p. 67.

كانت القوافل التجارية التى تسير فى طريق درب الأربعين عبر الصحراء الغربية بعيدة عن النيل ، تصادف مشقة وصعوبة أثناء سيرها ، إلا أنها كانت تصل إلى دارفور فى زمن أقصر من الزمن الذى تستغرقه لو سلكت الطريق النيلى إلى دنقلة ومنها غربا إلى دارفور [١].

٣- طريق الصحراء الشرقية :

أما الطريق الثالثة التى تصل بين أسوان والنوبة ، فهى طريق وحيدة سار فيها الرحالة بوركهارت ، عبر الأودية التى تخترق الصحراء الشرقية . ولم تكن هذه الطريق تجلب تجارة النوبة والسودان فحسب ، بل كانت تأتى أيضا بسلع الصحراء الشرقية التى تعتبر أسوان وقرية دراو - مدينة حالية تقع شمال أسوان - السوقان الطبيعيان لها . وقد شرح بوركهارت الأودية التى تتخلل الصحراء الشرقية شرحا دقيقا ، وأعطانا صورة واضحة عن نباتاتها وآبارها وأشجارها وجوها . وقد اتخذ بوركهارت من قرية دراو نقطة البداية إلى رحلته لبلاد النوبة عبر الصحراء الشرقية بدلا من أسوان . وأول واد تصل إليه القوافل بعد مغادرتها دراو هو وادى أم ركبة ، ثم وادى قريب من عين ماء اسمها أبو كبير ، إلى أن تصل عقبة تنتهى عندها الرمال ، وبعد أن تعبر القوافل تلك العقبة تصل إلى مكان قريب من أسوان يسمى أبو عجاج ، ويبدأ خلف أبى عجاج درب ضيق بين الصخور لاتمر فيه الجمال المحملة إلا بصعوبة ، ثم وادى هود ، وهو واد عريض يحف بالشجيرات والأعشاب ، ثم وادى أم الحبال الذى عرف بذلك لكثرة ما به من منحنيات [٢]. وبعد أن تغادر القوافل وادى أم الحبال تصل مكانا ماؤه عذب اسمه دمحيت ، وإلى الجنوب الغربى منه نبع ماء صاف يدعى المويلح تؤمه القوافل الخارجة من أسوان ، ثم تستأنف القوافل السير حتى تصل إلى جبل أم حريزل وجبل هزرية وصخور بيبان إلى أن تصل وادى نقيب الذى يحفل بأشجار السنط، ثم وادى حيمور وفيه آبار ومذاقها عاق كريه ، ثم بئر المرة وهى جديرة باسمها حين يقارن ماؤها بماء النيل العذب [٣]. وبعد ذلك تصل القوافل إلى وادى علاقى الذى يمتد من الشرق إلى الغرب ، وينتهى أحد طرفيه قرب البحر الأحمر ، والآخر قرب النيل ، والوادى عامر بالكلأ والشجر الكثير ، ثم بعد ذلك وادى أم قات وهو حافل بأشجار السنط الكثيرة ، ثم تدخل القوافل سهلا رمليا فسيحا

1-Shaw , op. ci , p. 64 .

٢- رحلات بوركهارت ، ص١٣٨-١٤١ .

٣- رحلات بوركهارت ، ص١٤٢-١٤٩ .

إلى أن تصل إلى وادى الطواشى ، ثم تنحرف إلى الجنوب بميل قليل للشرق حتى تصل إلى وادى أبى بروش ، ثم وادى أم برد . وتواصل القوافل السير فى سهل رملى ينتهى بوادى نابه الذى تنتشر فيه أشجار الدوم ، وبه آبار بعضها ضارب إلى الملوحة ، والآخر لابأس به ، ثم تدخل القوافل وادى طرفاوى وهو منسوب إلى أشجار الطرفاء التى تنمو ، وتستمر فى السير جنوبا إلى أودية كورع وصفيحة وأم دوم [١]. وتغادر القوافل وادى أم دوم ، فتدخل جبال شقرة، ثم تسير باتجاه إلى الجنوب مع انحراف قليل للغرب مارة بوادى قبقبة ووادى زيناتيب[٢].

والجدير بالذكر أن طريق القوافل منذ خروجها من أسوان أو دراو طريقا عريضة مطروقة ، لايمكن أن يضل عنها من خرج فى رحلة من قبل ، إذ قل أن تغير الطريق اتجاهها ، ويستطيع المسافر أن يهتدى بمعالم الجبال الواضحة على الجانبيين ، أما إلى الجنوب من شقرة فلا تجد دربا مطروقا أو جبالا يهتدى بها ، لذلك لاتستغنى القافلة فى سيرها عن بصر الدليل القوى وخبرته الطويلة . ثم تواصل القوافل سيرها صوب الجنوب الغربى فوق سهل فسيح إلى أن تصل وادى ديموكايب ، ثم وادى ضى ، ثم آبار النجيم ، ثم تمر القوافل على وادى حليب ووادى عامور الحافل بأشجار السلم[٣]. وبعد ذلك تواصل القوافل سيرها صوب الجنوب الغربى ملتزمة نهر النيل تقريبا ، حتى تصل إلى وادى قليل الشجر هو وادى الحمار ، ثم تخترق عدة وديان إلى أن تصل إلى وادى زاخر بالشجر يدعى وادى بلم (أو سلم) ، وعند ذلك تدنو القوافل من النيل حتى تصل قرية النخيرة أهم قرية فى إقليم بربر . وتستغرق المسافة من دراو - أو أسوان - إلى إقليم بربر ما يقرب من ستة أو سبعة عشر يوما على ظهور الحمير ، أما على ظهور الجمال فإنها تستغرق ثمانية أيام ، وقد تستغرق رحلة القوافل إلى بربر شهراً إذا هطل المطر بغزارة وجرى الماء على الطريق [٤]. وبعد أن تغادر القوافل إقليم بربر تصل إلى إقليم رأس الوادى ، ثم إلى نهر مقرن الذى يمثل الحد بين إقليم رأس الوادى والدامر ، وبعد ذلك تبتعد القوافل عن النيل حتى تبلغ حواية ، ثم تمر بقرى قباتى وجبيل أم على ودوا حتى تصل إلى سهل بيوضة ، ومنه إلى مدينة شندى [٥].

١- رحلات بوركهارت ، ص١٥٧-١٦٠ .

٢- رحلات بوركهارت ، ص١٦٠-١٦٤ .

٣- رحلات بوركهارت ، ص١٦٥-١٦٩ .

٤- رحلات بوركهارت ، ص١٦٩-١٧٠ .

٥- رحلات بوركهارت ، ص٢٠٠-٢١٤ .

(جـ) دور أسوان فى تجارة البحر الأحمر :

لعب البحر الأحمر دوراً كبيراً فى التجارة بين الشرق والغرب فى العصور القديمة والوسطى . فقد سيطر القدماء المصريون منذ تاريخهم المبكر على البحر الأحمر ، وازدادت خبرتهم فى ممارسة الملاحة فى مياهه ، ووصلت أساطيلهم حتى أقاصى بلاد بونت Punt جنوبا ، ويشمل اسم بونت منطقة واسعة من الأراضى المطلة على المحيط الهندى من جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج العربى ، ومدخل مضيق باب المندب ، وساحل شرق أفريقية . وسجل التاريخ مناظر الرحلة التى أرسلتها الملكة حتشبسوت (١٤٩٠-١٣٦٩ ق.م) إلى تلك البلاد ، والتى سجلت على جدران معبدها البحرى[١]. وفى العصر البطلمى كان ميناء برينيقى (برينيس)Berenice هو الميناء الرئيسى للتجارة الخارجية على ساحل البحر الأحمر ، ومنه كانت تنقل تجارة الشرق عبر وديان الصحراء الشرقية حتى مدينة قفط حيث ينتهى طريق التجارة فى جنوب مصر[٢]. ومن قفط كانت السلع تسلك طريق النيل حتى مدينة الاسكندرية - عاصمة البلاد آنذاك - ومنها إلى الغرب الأوربى عن طريق البحر المتوسط . وفى بعض الأحيان كانت السفن تواصل سيرها فى البحر الأحمر ، حتى تصل إلى ميناء القلزم (السويس حاليا) فى الشمال ، ثم تسير فى القناة الفرعية التى تربط بين النيل والبحر الأحمر عن طريق البحيرات المرة ووادى طميلات ، وقد حفر الفراعنة تلك القناة ، ثم اهتم بها البطالمة والرومان ، وبعد ذلك تصل السفن إلى الاسكندرية [٣].

ولما فتح العرب مصر فى القرن السابع الميلادى ، أصبح البحر الأحمر أشبه ما يكون ببحيرة تفصل بين مركز الدولة الاسلامية فى المدينة المنورة ، وبين أهم الأقاليم التى تتبعها وهى مصر، ولأجل ذلك ظهرت موانى وثغور على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر ربطت بين مصر والحجاز ، ومن أهم تلك الثغور عيذاب التى حظيت بشهرة واسعة [٤].

١- محمود الحويرى : ساحل شرق إفريقية من فجر الاسلام حتى الغزو البرتغالى ، ص١٢-١٣ .

2- Klunzinger , Upper Egypt , p. 249 .

٣- سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص١٦٦ .

٤- سعاد ماهر : محافظات الجمهورية ، ص١٨١-١٨٢ .

وبالرغم من إجماع المؤرخين المسلمين على أن عيذاب تقع تجاه مدينة جدة على الساحل الشرقى للبحر الأحمر ، إلا أن الباحثين المحدثين اختلفو فى تحديد موقعها . فبكر Becker يرى أن عيذاب كانت أحد الموانى البطلمية التى عرفت بميناء عديب Aidip وهو يقع على الخرائط الحديثة جنوب خط عرض ١٢ درجة شمالا . ويرى البعض أن عيذاب تقع فى شمال رأس علبة فى منتصف المسافة بين برينيس ورأس راوية ، وإن كان البعض يرجح أن موقعها رأس علبة ، فوق خط عرض ٢٢ درجة بقليل [١]. كما يرى البعض أن عيذاب تقع فى المكان المعروف الآن برأس راوية . أما الرحالة بنت Bent [٢]، فيرى أن موقعها الحالى ميناء يسمى سواكن الكاضم التى تقع شمال مرسى حلايب ، إذ عثر فى ذلك المكان على بقايا بيوت قديمة وسط التلال ، غير أن البعض يرى أن سواكن الكاضم تقع إلى الشمال من جدة ، الأمر الذى يخالف ما كتبه الجغرافيون المسلمون الذين يؤكدون أن عيذاب تقع تجاه جدة ، ويرجح أن رأس الحدارية هو المكان الحالى لعيذاب القديمة [٣].

وعلى أية حال ، فإن عيذاب بدأت صغيرة أول الأمر ، ثم أخذت فى النمو تدريجيا حتى غدت تنافس ميناء القصير التى لعبت دوراً كبيراً في تجارة البحر الأحمر قبل القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، وازدهرت فى القرنين الخامس والسادس للهجرة ، إذ صار التجار والحجاج - خاصة فى العصر الفاطمى - يفضلونها على ميناء القصير ، ومن الأسباب التى أدت إلى ازدهار التجارة فى عيذاب تحول طريق التجارة الفاطمية صوب الجنوب ، لاشتداد النزاع بين الفاطميين وسلاجقة بغداد ، واستيلاء الصليبيين على أيلة عام ٥١٠هـ (١١١٦م)[٤] . ومما زاد فى أهمية عيذاب أن الفاطميين اتخذوها قاعدة حربية لهم على البحر الأحمر . وظلت عيذاب ميناء مصر الرئيسى حتى قيام دولة المماليك عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م) ، فقد شاءت ظروف تلك الدولة أن يكون قيامها مرتبطا بازدهار طريق البحر الأحمر، واضمحلال

١- نعوم شقير : تاريخ السودان ، جـ١ ص٦٨ .

2- Visit to Northern Sudan (J . R . S. 1896) , p. 336 .

٣- سليمان عطية سليمان : سياسة المماليك فى البحر الأحمر ، ص٦ .

٤- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص٦٠٢ .

ما عداه من طرق التجارة الأخرى التى تصل بين الشرق والغرب ، نتيجة لاستيلاء المغول على بغداد عام ١٢٥٨م ، وتعطل طريق التجارة بين الصين من ناحية وآسيا الصغرى ، وموانى البحر الأسود من ناحية أخرى [١].

وطرق القوافل بين عيذاب والنيل تنتهى عند ثلاث نهايات : أسوان وإدفو وقوص ، غير أن أسوان كانت أقدمها [٢]. وقد وصف لنا الرحالة ناصر خسرو[٣] الطريق من أسوان إلى عيذاب ، عندما غادر الأولى فى ٥ ربيع الأول عام ٤٤٢هـ (٢٩ يوليو ١٠٥٠م) لأداء فريضة الحج ، فقال : « بعد ثمانية فراسخ من رحلتنا (أسوان) بلغنا جهة تسمى «ضيقة» ، وهى واد فى الصحراء على جانبيه حائط من الجبال ، وسعته مائة ذراع ، وقد حفر فيه بئر يخرج منه ماء كثير ، ولكنه ليس عذبا . وبعد أن تركنا ضيقة ، سرنا خمسة أيام فى صحراء لا ماء فيه، وكان مع كل منا قربة ماء . ثم بلغنا منزلا يسمى «الحوض» وهو جبل حجرى فيه عينان يتفجر منهما ماء عذب يستقر فى حفرة ، ولم يكن بد من أن يذهب رجل إلى حيث العينين ليحضر الماء لشرب الأبل ، التى مضى عليها سبعة أيام لم تشرب فيها ولم تأكل ، إذ أن علفها قد نفذ كله . وكانت تستريح مرة فى الأربع والعشرين ساعة ، وذلك من الوقت الى تشتد فيه حرارة الشمس حتى صلاة العصر ، وتسير بقية الوقت . والمنازل التى ينزلون بها معلومة ، فليس ممكنا النزول فى أى مكان ، لتعذر وجود ما توقد به النار . أما فى هذه المنازل فإنهم يجدون بعر الإبل ، فيتخذونه وقوداً يطبخون عليه ما تيسر ، وكأن الإبل تعلم أنها إن أبطأت ماتت عطشا ، فهى تسير غير محتاجة لأن يسوقها أحد ، متجهة من تلقاء نفسها ناحية المشرق فى هذه الصحراء حيث لا أثر أو علامة تدل على الطريق . وهناك أمكنة يقل فيها الماء مسافة خمسة عشر فرسخا ويكون ملحا ، وأمكنه لايوجد فيها ماء قط ، مسافة ثلاثين أو أربعين فرسخا ، وفى العشرين من ربيع الأول عام ٤٤٢هـ (٢ أغسطس ١٠٥٠م) بلغنا مدينة عيذاب ، ومن أسوان حتى عيذاب التى بلغناها بعد خمسة عشر يوما مائتا فرسخ بالتحديد» .

١- سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٢٨٤-٢٨٥ .

2- Ency . of Islam. Art . Aidhab .

٣- سفر نامة ، ص٧٢ .

ورغم هذه الصعوبات التى نجدها فى وصف ناصر خسرو لطريق أسوان - عيذاب والتى منها شدة الحرارة ، وقلة الماء فى الصيف ، إلا أن ذلك الطريق امتاز عن طريق قوص - عيذاب بقصره ، فالطريق الأول تقطعه القوافل فى خمسة عشر يوما . أما الطريق الثانى فتقطعه القوافل فى سبعة عشر يوما [١]. هذا بالإضافة إلى أن طريق أسوان - عيذاب كانت آمنة [٢]. ومن الراجح أن التجار كانوا يفضلون السفر إلى عيذاب من أسوان بدلا من قوص . وربما يعترض سائل أن قوص أقرب من أسوان ، ولكننا نرد عليه أن نهر النيل كان خير سبيل للسفر المريح من قوص إلى أسوان . فضلا عن أن أسوان كانت ثغراً هاما للتجارة مع النوبة ، الأمر الذى يتيح الفرصة للتجار المسافرين لتبادل التجارة .

وكان لتجار أسوان وكلاء فى عيذاب لتسهيل التجارة ، واستقبال السلع وتصديرها من ذلك الميناء . ويؤكد ذلك أن نصر خسرو[٣] لما أراد مغادرة أسوان فى طريقه إلى عيذاب ، ومنها إلى الحجاز ، أخذ من تاجر فى أسوان يدعى أبو عبد الله محمد بن فليج كتابا إلى وكيله فى عيذاب جاء فيه : « اعط ناصراً ما يريد ، وهو يعطيك صكا للحساب». فلما أنفق ناصر خسرو ما معه من المال فى عيذاب أعطى الورقة التى يحملها للوكيل ، فأعطاه ما أراد بعد أن أخذ منه صكا بذلك ، وقام الوكيل بدوره بارسال الصك إلى أسوان . ونلمس من ذلك ضخامة حجم التجارة بين أسوان وعيذاب ، فضلا عن تقدم المعاملات الاقتصادية ، فقد استخدم تجار أسوان ما يشبه النظام المصرفى الحديث فى طريقة دفع الأموال ، حتى تكون الأموال مأمونة من الضياع ، وبعيدة عن متناول اللصوص وقطاع الطرق .

ولا جدال فى أن تحول التجارة إلى عيذاب ، قد أدى إلى انتعاش كبير فى حالتها الاقتصادية ، لما تبع هذا التحول من جباية المكوس على السفن الآتية من الحبشة وزنجبار واليمن[٤] والشرق الأقصى . كما استفاد الأهالى من اشتغال عدد كبير منهم فى شحن السلع وتفريغها ، مما أدى إلى رخاء أهل عيذاب ونشر الأمن بينهم[٥]. ولاريب أن رخاء عيذاب قد

١- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٢٠٢ .

٢- المقدسى : أحسن التقاسيم ، ص٢١٥ .

٣- سفر نامة ، ص٧٤ .

٤- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٢٠٢

٥- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص٥٩٧ .

انعكس على أسوان نتيجة الحركة التجارية التى شهدها ذلك الميناء ، ولابد وأن أهالى أسوان ربحوا من جراء نقل البضائع من عيذاب إلى أسوان وبالعكس . ويبدو أن أجور النقل كانت محددة ولا تترك لحرية الأفراد ، فقد دفع ناصر خسرو ديناراً ونصف دينار للعبور من أسوان إلى عيذاب [١] . ولايعتبر الأجر مرتفعا بالنسبةإلى هذه المسافة التى تقطعها الإبل فى خمسة عشر يوما فى طريق يتصف بشدة الحرارة وقلة الماء ، فكانت أجرة الجمل فى اليوم الواحد درهما ونصف درهم بأعتبار الدينار يساوى ١٥ يوما [٢] .

هذا بالاضافة الى ان استخدام طريق اسوان - عيذاب مسلكاً للحجيج فى ذهابهم الى جدة وايابهم منها ، ما يزيد عن قرنين من (الزمان) منذ عام ٤٦٠ هـ (١٠٦٧م) - ايام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى - حتى عام ٦٦٦هـ (١٢٦٨) ، وهو التاريخ الذى اعاد فيه بيبرس طريق الحج القديم [٣]، زاد من رواج التجارة فى أسوان . فمن البديهى ان الحجيج كانوا يقضون حوائجهم من مواد تموينية وغيرها من أغراض من أسوان ، أثناء ذهابهم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وعودتهم .

وتنبه الصليبيون إلى المكانة التى احتلتها عيذاب فى تجارة الشرق ، فحاولوا القضاء عليها . فقاد أرناط الصليبى - صاحب حصن الكرك - حملة صليبية عام ٥٧٨هـ (١١٨٣م) بهدف الاستيلاء على الحرمين الشريفين ، وتحطيم تجارة البحر الأحمر . وتمكن أرناط من تحطيم السفن التجارية الراسية فى عيذاب ، ولكن صلاح الدين الأيوبى أسرع بإصدار تعليمات عاجلة إلى أخيه العادل ، فأعد الأخير أسطولا قويا أسند قيادته لحسام الدين لؤلؤ ، الذى استطاع إحباط تلك المحاولة الصليبية[٤] .

وإذا كانت أسوان أقدم محطة تجارية ارتبطت بعيذاب ارتباط وثيقا ، إلا أن ذلك الإرتباط قد خفت حدته نتيجة لظهور مدينة قوص كمنافس خطيرة لأسوان . فما من مرجع معاصر لدولة

١- ناصر خسرو : سفر نامة ، ص٧١ .

٢- راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، ص٢٦٦ .

٣- المقريزى : الخطط ، جـ ص٢٠١ .

٤- الكامل ، حوادث عام ٥٧٨هـ ، ابن جبير : الرحلة ، ص٥٧-٥٩ ؛ المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٨٥؛ ابن أيبك : كنز الدرر ، ورقة ٥١ .

المماليك تناول الحديث عن تجارة البحر الأحمر ، إلا ذكرها مقترنة بمدينة قوص ، صحيح أن أسوان أقدم فى النشاط التجارى من قوص ، إذ أن الأخيرة لم يظهر نشاطها إلا منذ القرن الخامس الهجرى ، عقب أفول المركز التجارى لمدينتى قفط والأقصر[١]. وفى تصورنا أن قوص أخذت مكانة أسوان فى تجارة البحر الأحمر منذ بداية عصر المماليك . وربما يرجع السبب فى تضييق الصلة التجارية بين أسوان وعيذاب لعاملين : العامل الأول يتركز فى تحول طريق الحج من أسوان إلى شمال مصر ، عندما أخرج السلطان الظاهر بيبرس قافلة الحاج بالطريق البرى عام ٦٦٦هـ (١٢٦٨م) كما سبق أن ذكرنا . أما العامل الثانى فيرجع إلى أن نسبة كبيرة من تجـــار الكارم[٢] فى عصر المماليك ، قد اتخذت من قوص مركزاً هاما ، وسوقا واسعا لتجارتها ، علاوة على أن تجار الكارم قد أسسوا فى قوص نقابة لأنفسهم ، سيطرت على تجارة التوابل والبخور والعاج واحتكرتها أحيانا ، وصار لهذه النقابة رئيس معترف به من قبل حكومة المماليك ، أطلق عليه اسم رئيس الكارمية [٣].

ومن المعروف أن تجارة البحر الأحمر - بين الشرق والغرب - هيمن عليها تجار الكارمية منذ العصر الأيوبى ، حتى أضحوا أهم طبقة تجارية[٤] . وازدادت أهميتهم فى دولة المماليك التى قامت ثروتها على التجارة . فكانوا يجلبون إلى دولة المماليك أهم سلع تهافتت عليها الأوربيون ، ودفعوا فيها الثمن المرتفع ، ومن تلك السلع التوابل والفلفل والبهار والبخور

١- راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، ص٢٩٠ .

٢- أورد القلقشندى أن تجارم الكارم عرفوا بذلك الاسم نسبة إلى مملكة الكانم وهى منطقة فى السودان الغربى ، كما عرفوا أحيانا باسم التكرور نسبة إلى ملك التكرور (انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ص٢٠٩) . ويفترض البعض أن هذا الاسم قد أخذ عن متاجر التجار نفسها ، إذ وجد أن لفظة (Kua-rarima) الأمهرية تعنى «الحبهان» وهو من التوابل التى تاجروا فيها ثم حرفت هذه الكلمة وأصبحت (كارم) وأطلقت على هؤلاء التجار وثمة تفسير لكلمة (كارم) مفاده أن أصل هذه الكلمة ليس عربيا ولكنه هنديا ، لأن لغة جنوب الهند (التاميل) توجد بها كلمة (كاريام) Karyam ، وهى تعنى «الأعمال» . للوقوف على مزيد من التفصيلات ، انظر عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، ص٩١-١٠٤ .

٣- سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٢٩١ .

٤- صبحى لبيب : التجار الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، ص١١ .

بالقرنفل ، ويقتصر النشاط التجارى لطائفة الكارمية على تجارة البحر الأحمر ، بل ساهموا فى النشاط التجارى للسودان وأواسط أفريقية ، وجلبوا سلعها إلى مصر . ولضخامة حجم التجارة الكارمية ، فإن التاجر الكارمى درب أولاده ومن تخيرهم من عبيده ذوى الفطنة، على مباشرة أعماله التجارية الواسعة ، فأرسلهم إلى الأسواق الكبرى فى مصر والحجاز واليمن والهند وبلاد التكرور[١] وغيرها ، كما اتخذ الوكلاء والعبيد لجلب سلع تلك البلاد التى يفدون إليها أو يستقرون بها [٢]. ومن الطبيعى أن تجار الكارمية أو وكلاءهم جابوا مناطق السودان من أجل جلب السلع التى تميزت بها ، مثل الرقيق وريش النعام والأبنوس والعاج وغيرها . ولهذا ، فإنهم اتخذوا من ثغر أسوان مركزاً هاما ، لتشغيل حركتهم التجارية فى السودان .

(د) أهم السلع الواردة من السودان والصحراء الشرقية إلى أسوان :

(الـــذهـــب) : اتخذت معادن الذهب فى تاريخ مصر القديمة مكانة كبيرة ، فقد أرسل الفراعنة حملاتهم العسكرية إلى الصحراء الشرقية لجلب الذهب ، وأجبروا وأهالى تلك المنطقة للعمل فى مناجم الذهب ، واستغل البطالمة والرومان من بعدهم تلك المناجم حتى القرن الرابع الميلادى ، ومنذ ذلك الوقت توقف استخراج الذهب [٣].

ولما فتح العرب مصر ، استعادت مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية نشاطها ، وبدأت القبائل العربية تفد إلى أسوان بأعداد هائلة فى القرون الاسلامية الأولى طلبا للذهب ، لقرب مناجمه بالعلاقى من أسوان . فالمسعودى[٤] يقول :« وأقرب العمارة إليه (معدن الذهب بالعلاقى) مدينة أسوان» . وتستغرق المسافة من أسوان إلى العلاقى مسيرة خمسة عشر يومـــا[٥]. على أن مناجم الذهب الموجودة بالصحراء الشرقية لم تقتصر على منطقة العلاقى

١- يرى بوركهارت فى رحلاته ص٣٢١ أن اسم التكرور لاينسب إلى بلد تدعى تكرور ، كما يظن جميع الجغرافيون العرب ، وإنما هذا الاسم مشتق من الفعل تكرر (أى تنقى) بمعنى أن المشاعر الدينية للتكارنة قد تنقت وتطهرت بحفظ القرآن والحج . ونعتقد أن رأى بوركهارت فى هذا الصدد خروج عن المألوف .

٢- صبحى لبيب : التجار الكارمية ، ص٣١ .

3- Bloss , Relics of Ancient gold miners . (S.N.R. vol . XIX) , p . 313 .

٤- مروج الذهب ، ص٢٦ .

٥- الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص٤٢ .

فقط بل وجدت مناجم أخرى كثيرة حدد أماكنها اليعقوبى فى كتابه البلدان[١] قائلا : «فمن أراد الذهب خرج من أسوان إلى موضع يقال له الضيقة بين جبلين ثم البويب ، ثم البيضية ، ثم بير ابن زياد ، ثم عذيفر ، ثم جبل الأحمر ، ثم جبل البياض ، ثم قبر أبى مسعود ، ثم عفار ، ثم وادى العلاقى ، وكل هذه المواضع معادن التبر التى يقصدها أصحاب المطالب .ومن العلاقى إلى موضع يقال له وادى الجبل (كذا) مرحلة ، ثم إلى موضع يقال له عتب (كذا) ، ثم إلى موضع يقال له كنار (كذا) يجتمع الناس به لطلب التبر . ومن العلاقى إلى معدن يقال له بطن واح مرحلة . ومن العلاقى إلى موضع يقال له أعماد مرحلتان ، وإلى معدن يقال له ميزاب ، وإلى معدن يقال له عرناتعما (كذا) مرحلتان . ومن العلاقى إلى بركان (كذا) وهى آخر معادن التبر التى يسير إليها المسلمون ثلاثون مرحلة . ومن العلاقى إلى معدن يقال له سختيت عشر مراحل فهذه المعادن التى يصل إليها المسلمون ويقصدونها لطلب التبر » .

ولما كان الطريق الذى يؤدى إلى مناجم الذهب بالصحراء الشرقية يبدأ السلوك إليه من أسوان ، لذا كان من الواضح أن تتجه كميات الذهب التى يتم استخراجها إلى تلك المدينة ، ومن ثم صارت أسوان سوقا كبيراً يتبادل فيه التجار بيع وشراء الذهب . ويدل على ذلك قول اليعقوبى[٢] عن أسوان « وبها تجار المعادن» .

أما عن طريقة استخراج الذهب بالعلاقى ، فكان طلابه يتجولون هناك فى الليالى التى يضعف فيها ضوء القمر (أو ليالى الشهر العربى) ، فيضعون علامة على مواضع الرمال التى يرون فيها شيئا مضيئا ، ويبيتون هناك ، حتى إذا أصبح الصباح حملوا أكوام الرمل التى علموا عليها ، وذهبوا بها إلى آبار هناك ليغسلوها بالماء ويستخرجوا منها الذهب ، ثم يمزجونه بالزئبق ، ويسبكونه فى البوادق . ولم تكن تلك الطريقة هى الوحيدة التى يتم بها استخراج الذهب ، بل كان للتجار وغيرهم عبيد يعملون فى الحفر ، ثم يستخرجون الذهب من مناجمه كالزرنيخ الأصفر ويسبكونه[٣] . ويبدو أن استخراج الذهب من منطقة العلاقى كان يكلف نفقات باهظة، فأبو الفدا[٤] يقول : «يتحصل منه (الذهب) بقدر ما ينفق فى استخراجه».

١- ص٣٣٤-٣٣٥ .

٢- ابن الوردى : فريدة العجائب وفريدة الغرائب ، ص٦٥ .

٣- اليعقوبى : البلدان ، ص١٢١ .

٤- تقويم البلدان ، ص١٢١ .

وفى منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، توافد على أسوان كثير من لمغامرين الطامعين فى معدن (الذهب بالعلاقى والمناجم الأخرى . ومن أولئك عبد الرحمن لعمرى الذى أتى إلى أسوان بعد أن سمع بأخبار الذهب ، واشترى عبيداً للحفر فى المناجم ، ثم نزح بهم من أسوان إلى العلاقى [١].

ولهذا أصبحت أسوان مركز إمدادات التموين للقبائل العربية العديدة الموجودة فى مناجم الذهب ، فدأب تجار أسوان على التوجه إلى مناجم الذهب ومعهم المواد التموينية . فمن ذلك عندما كتب العمرى إلى أسوان يسأل التجار المساعدة والخروج إليه بالجهاز ، خرج إليه رجل يعرف بعثمان بن حنجلة التميمى فى ألف راحلة [٢].

ومن الملاحظ أن معدن الذهب الذى يتم استخراجه من مناجم الصحراء الشرقية ، كان يكفى لتزويد دور سك النقود حتى العصر الفاطمى . أما فى نهاية عام ٥١٦هـ (١١٢٢م) - أى فى عصر الأيوبيين - فقد خف الذهب نتيجة لإنهاك مناجمه ، ففى نهاية عهد صلاح الدين الأيوبى ، صارت دور السك اثنتين بعد أن كانت خمسة ، وندر وجود الدنانير الذهبية ، وفى دولة المماليك صارت سبائك الذهب ترد من مملكة مالى (التكرور) فى غرب السودان التى وصفت فى المصادر المعاصرة ببلد الذهب [٣].

(الزمرد) : عرف المصريون القدماء مناجم الزمرد بالصحراء الشرقية فى المناطق المتاخمة لأعالى الوجه القبلى ، فقد ذكرها استرابون وبلينى ، وحددا موقعها فى تلال البحر الأحمر ، على نفس خط عرض أسوان ، وإلى الشمال قليلا من الميناء البطلمى (برينيس)[٤] .

والجدير بالذكر هنا ، أن مناجم الزمرد لاتتجاوز حدود مصر ، وبعبارة أخرى لايوجد الزمرد فى بلاد النوبة، بل تقع مناجمه فى بلاد البجة (الصحراء الشرقية) فى مرتفعات البحر الأحمر

١- المقريزى : المقفى ، ص٤ .

٢- المصدر السابق ، ص٧-٨ .

3- Darrag , L`Egypt sous le regne de Barsbay , pp . 91-92 .

4- Kirwan , Studies in the later Hist . of Nubia , (L . A.A.A., vol . xxiv , p . 78 , Heyd , Histoire du Commerce de levant au Moyen Age vol . II , pp . 651-652 .

على حدود مصر والنوبة [١] ، «فى برية منقطعة عن العمارة» [٢] . وقد حدد التيفاشى الذى مارس مهنة المعدنيين فى مصر ، وكان على اتصال بهم فى عهد السلطان الكامل الأيوبى (٦١٥-٦٣٥هـ / ١٢١٨-١٢٣٨م) مكان استخراج الزمرد قائلا : « الزمرد يتكون فى التخوم بين بلاد مصر والسودان خلف أسوان جبل ممتد كالجسر ، فيه معادن تحفر ، فيخرج منه الزمرد قطعا » [٣].

كانت الطرق المؤدية إلى مناجم الزمرد فى الصحراء الشرقية ثلاثة : منها طريق تسلكها القوافل بعد أن تغادر مدينة قفط ، حتى تصل إلى أول منجم فى تلك الصحراء يسمى «خربة الملك» بعد أن تقطع مسافة تبلغ ثمان مراحل [٤] . كما كان التجار يسلكون الطريق إلى مناجم الزمرد من قوص ، حتى يصلوا إليها بعد ثمانية أيام من السير المعتدل [٥]. أما أقرب الطرق التى توصل إلى مناجم الزمرد ، فهى التى تبدأ من أسوان [٦]. ومن الملاحظ أن مناجم الزمرد تقع فى منطقة جبلية قاحلة ، بعيدة عن العمران ، ولعدم وجود آبار كان العاملون فى المناجم يحصلون على مياه الشرب من الماء الذى يتسرب فى الأودية نتيجة هطول المطر النادر، وتبعد تلك المياه مسيرة نصف يوم أو أزيد [٧].

والزمرد الموجود فى صحراء البحر الأحمر المتاخمة لأقاصى مصر العليا ، نوع يعرف فى علم المينرالوجيا بالبريل «Berylle » وتركيبه الكيميائى هو :

« Be 3 Al 2 (Sio3) 6 » ، وهو يتبلور بصفة منشور مضاعف ذى شكل مسدس يحوى هرمين ، تتراوح صلابته بين ١-٢ و ٧-٨ ووزنه النوعى ٢,٦٧ - ٢٢,٧٦ ويكون شفافا فى صفاء الماء أو نصف شفاف، وله لمعان زجاجى ، ويتراوح لونه فى مصر خاصة بين الأخضر والأزرق الكاشف ونادراً ما توجد فيه خضرة كاشفة ممزوجة بصفرة[٨]. أما نوعد الزمرد المرغوب

١- البيرونى : الجماهر فى معرفة الجواهر ، ص١٦٢ ؛ Heyd , op , cit ., vol - II , p . 652 .

٢- الحميرى : الروض المعطار ، ص٥٨ .

٣- التيفاشى : ازهار الأفكار فى جواهر الأحجار ، ص١٤ .

٤- اليعقوبى : البلدان ، ص٣٣٣ .

٥- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٢٣٢ .

٦- الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص٢٢ .

٧- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٢٣٢ .

٨- محمد يحيى الهاشمى : الزمرد فى مصر ، ص٦٩٨ .

بالإضافة إلى ذلك السلع التى ترد من السودان إلى مصر . وعلى أية حال ، فإن هذا الكتاب لاغنى عنه لباحث التاريخ عند دراسة أى موضوع يخص بلاد السودان .

هذا فضلا عن عدد آخر كبير من المراجع العربية الحديثة التى ذكرناها فى قائمة المصادر والمراجع فى نهاية البحث .

ومن المراجع الأجنبية التى اعتمدت عليها كتاب :

Catalogue general du Musèe Arabe du Caire . Steles Funeraires .

وقد ضم ذلك الكتاب شواهد القبور التى أسفرت عنها الحفريات فى مدن مصر الإسلامية لاسيما الفسطاط وأسوان . ولاريب أنى أفدت من هذا الكتاب خير إفادة ، حينما تناولت وصف البناء الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطي . فقد جاءت على شواهد القبور نقوش بالخط الكوفي موضح بها اسم المتوفى ، والقبيلة التى ينتمى إليها ، والسنة التى توفى فيها. وهناك حفريات فى جبانة أسوان قام بها الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب فى المدة من ديسمبر سنة ١٩٦٠م حتى منتصف سنة ١٩٦٣م ، أسفرت عن اكتشاف العديد من شواهد القبور فى أسوان ، ساعدتنى - أيضا - نقوشها فى دراسة العناصر السكانية التى تألفت منها أسوان . وقد طبع من تلك الشواهد ثلاثة أجزاء بعنوان :

Steles Islamiques de la necropole d`Assouan , puplièes par Abd Al- Rahman M. Abd Al - Tawab , revision et annotation de Solange Ory .

وثمة مراجع أخرى تتمثل فى المجلات الدورية التى تصدر باللغات الأوربية ، استفدت منها فى ثنايا البحث ، وأخص بالذكر مجموعة Sudan Notes and Records . وإذا كان من المعروف أن تلك المجموعة تقتصر على تاريخ السودان ، إلا أنها كانت من المراجع التى خدمت البحث ، ولاعجب فالصلة وثيقة بين أسوان والسودان ، فالأولى حلقة الوصل بين مصر والسودان .

وأخيرا ، فإن هناك كتاب :

Klunzinger : Upper Egypt : its people and its products .

أفادني فى بحث تجارة العبيد ، وكيفية صيدهم ، والظروف التى تحيط بهم منذ أن وقعوا فريسة فى أيدى صائدى الرقيق حتى يباعوا فى أسواق مصر والعالم الإسلامى .

وغيـرهما [١]. وتزايد الطلب للرقيق فى الدولة الإسلامية واتخذت الأغلبية منه جندا ، خاصة فى مـصـر فى عـهـد الطولونيين[٢] ، وازداد العـدد بشكل ملحـوظ أيام الإخـشـيـديين والفاطميين[٣].

وتجارة الرقيق فى مصر بدأت في الانتـشار منذ الفتح العربى لها ، فإن المؤرخ ابن عبد الحكم[٤] يحدثنا عن وجود سوق بالفسطاط بدار البركة يباع فيها الرقيق ، ويدلنا ذلك على أن مصر كانت من أكبر أسواق الرقيق فى العالم الإسلامى .

وارتبطت أسوان بتجارة الرقيق ارتباطا متينا ، فقد ساهم تجارها فى جلب الرقيق الأسود من النوبة والسودان ، ثم عرضه فى أسواق الصعيد وغيرها من أسواق مصر لبيعه ، ثم نقله إلى مختلف البلاد الإسلامية لشدة الحاجة إليه .

وهنا نلاحظ أن المكان الأصلى الذى كان يجلب منه الرقيق غير معروف على وجه التأكيد ، ويرجع السبب فى ذلك - إلى حد ما - إلى أن كلمتى النوبة والسودان متداخلتان تقريبا ، واستخدمتا فى المصادر الإسلامية المعاصرة بصورة غير محددة يغلب عليها الخلط بينهما . فبلاد النوبة المعروفة بقلة سكانها لم يكن بوسعها أن تمد المسلمين بأعداد كبيرة من العبيد على حساب سكانها حتى لاتقفر البلاد منهم . وإذا كانت معاهدة البقط قد تضمنت أن يدفع ملك النوبة إلى مصر عدداً من الرقيق كل عام ، فقد كان يحصل عليه بأسر جيرانه فى جنوب مملكته . ولهذا فإن غالبية العبيد لم يكونوا فى الحقيقة من النوبة ، بل كانوا يجلبون من المساحة الواسعة المترامية الأطراف فى داخل السودان [٥]. ويذكر الاصطخرى أن العبيد السود فى العالم الإسلامى ليسوا من النوبيين والبجة والأحباش ، بل كانوا أشد سواداً يجلبون من وراء بلاد النوبة ، وعندما زار ناصر خسرو مصر رأى أعداداً ضخمة من الجنود السود فى جيش الدولة الفاطمية، كان يتم الحصول عليهم من منطقة تقع إلى الجنوب من النوبة ؛ فى حين

١- شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول ، ص١٦١ .

2- Zaki Hassan , Les Tulunides , p . 159 .

٣- يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية ، ص١١٤ .

٤- فتوح مصر والمغرب ، ص١٣٤ .

5- Yusuf Fadl Hasan, The Arabs and the Sudan , p . 45 .

يروى ياقوت الحموى أن بعض العبيد كانوا يقعون فى أسر أبناء جلدتهم ، ثم يحملون إلى بلاد لإسلام ؛ ونخرج من ذلك إلى أن العبيد كانوا يجلبون من بلاد السودان بمعناها الواسع [١].

ومن مواطن تجارة الرقيق فى السودان كردفان ، إذ كان الرقيق أهم سلعة تباع هناك ، كما أن الأبيض كانت أحد مراكز تجارته ، فإلى هذا المكان كان يساق العبيد ليس فقط من الجهات المجاورة ، ، بل من المناطق البعيدة أيضا مثل قولا وباند وواتجة وباقرمة وبيجو ، ومن أبعد من ذلك . وكذلك كانت دارفور والبلاد التى تقع جنوبها وجنوبها الغربى أحد مواطنه ، وهى بلاد وثنية [٢].

أما رقيق النوبة ، فإن القبائل العربية التى أقامت فى منطقة المريس فى القرون الأولى من الإسلام ، تاجرت فيه ، فكانت تقوم بخطف بعض النوبيين وبيعهم للتجار فى مصر [٣]. كما أن الغزوات التى شنتها مصر على النوبة المسيحية ، أسفرت عن أخذ النوبيين كسبى ، تاجرت فيه القبائل العربية . ويروى المقريزى[٤] أن عبد الرحمن العمرى عندما انتصر على النوبيين فى الموضع الذى يعرف بشنقير (بين بربر وأبى حمد) «كثر السبى عند أصحابه حتى أن أحدهم كان يحلق رأسه ، فيعطى المزين رأسا» .

وبالإضافة إلى ذلك ، كان صيادو العبيد يقومون برحلات إلى السودان ، لصيد العبيد فى مناطقهم الأصلية التى عاشوا فيها . وهناك أكثر من طريقة لصيدهم ، منها صيدهم أطفالا صغارا . فالمعروف أن الطفل من الرقيق يعيش فى منطقة استوائية تتميز بمناخها القاسى ، فعندما يحين المساء يخرج الطفل من كوخ والديه للترويح عن نفسه ، ويتجول بعيداً عنه بضع خطوات إلا أنه يباغت بيد قوية تمسك به فى الظلام الدامس ، وتضع فى فمه شكيمة (كمامة) تمنعه من الصراخ ، ثم يحمل إلى مكان بعيد يقدم له فيه الطعام والشراب ، ولكنه يرفض من شدة فزعه ما يقدم له ، وينفجر باكيا طالبا أمه ، ويظل يبكى ، إلى أن ينتهى به الأمر

1- Ibid , p . 45 .

٢- نسيم مقار : الرحالة فى السودان فى النصف الأول من القرن التاسع عشر (الرحالة بالم) ، ص٤٦-٤٧ .

٣- رحلات بوركهارت ، ص٢٥٢ .

٤- ابن المقفع : سير البطاركة ، ص١٨٧ ؛ Yusuf Fadl , The Arabs and the Sudan , p . 45 .

مستسلمًا للنعاس العميق بعد أن يكون الحزن والتعب قد نالا من جسده الصغير [1]. وعندما يستيقظ الطفل فى الصباح يسمع لغة مألوفة لديه كالتى كان يسمعها فى قريته ، بيد أن الوجوه غريبة عنه ، ولم تكن تلك الوجوه إلا الحشود الكبيرة من الأطفال الرقيق - من جميع المراحلة السنية - الذين قام صيادو الرقيق بخطفهم ، وسرعان ما ينسى الطفل الصغير البرئ والديه [2].

وكذلك كان قناصة العبيد من أهالى أسوان يقومون برحلات إلى السودان ، فيأخذون معهم الخبز والقمح والزبيب والتين ، ويرمون بها للأطفال العراة الذين يعيشون عيشة بدائية ، فيجرى هؤلاء وراءها ، ثم يلقون إليهم بكميات أخرى على مسافة أبعد ، والأطفال بدورهم يجرون وراءها ، وهكذا حتى يبتعد الأطفال عن مساكنهم ، ومن ثم يأخذهم الصيادون ، ويأتون بهم إلى أسواق مصر ، حيث يباعوا لتجار الرقيق [3].

وفى بعض الأحيان ، كان تجار الرقيق الأشداء يقومون فجأة بالإغارة على إحدى القرى التى يتواجد بها الرقيق ، ويدخلون فى معركة مع أهلها ، تنتهى بأسر بعض النساء والأطفال، يذهب بهم التجار بعيداً عن القرية بعد أن يكونوا السبب فى تشتيت شمل كل أسرة فيها ، وبعد ذلك ينتقل الأطفال والنساء عبر التلال والأودية فى الصحراء ، حتى يصلوا إلى نهر النيل، فيحشدهم التجار فى مركب كبير ، ونظرا لقسوة المناخ الاستوائى ، فضلا عن الأمطار الجارفة ، فإن البعض من الرقيق تنتابه الحمى ويلقى حتفه ، فيدفن فى الرمال ، أما من عاش من الأصحاء منهم فإن القوافل بعد ذلك تواصل السير به فى الصحراء [4] . ويحاول البعض من الرقيق الهرب ، ولكن محاولته سرعان ما تبوء بالفشل ، فيمسك به فى الحال ، ويضرب ثم يقيد ، ويجر مع القافلة ، ومع أن الفتيات من الرقيق بعضهن فى سن صغير ، إلا أنهن يقعن فريسة لشهوة رجال القافلة ، ولذلك يعد من النادر وجود فتاة من الرقيق لم يمسها رجل قبل عرضها فى الأسواق، وعندما يحين موعد الراحة للقافلة، ينزل التجار إحدى البلاد المتناثرة

1- Klunzinger , Uppeer Egypt : its people and its products , pp . 35-36 .

2- Ibid , p . 37 .

3- Adler , Jewish Travellers , p . 61 .

4- Klunzinger , Upper Egypt ., p . 36 .

فى طريقهم ويحبس الرقيق فى مكان، وفى الليل يخرجهم التجار مقيدين للنزهة بعض الوقت[١] .

وما أن تصل قوافل الرقيق إلى أسوان أو غيرها من مدن الصعيد ، حتى ينزل التجار بأحد الخانات ، أما الرقيق فإنهم يحبسون فى أفنية كبيرة بها غرف مهدمة يقضون الليل فيها ، وفى الصباح يجلس الرقيق فى هيئة مجموعات لعرضهم على المشترين ، أو التوجه بهم إلى السوق فى اليوم المعين له حيث يتم بيعهم فى مزاد علنى [٢].

وهناك طريقة أخرى لوقوع العبيد فى أيدى جلابة الرقيق ، فهؤلاء الجلابة يتقدمون فى المناطق المجاورة لقرى الرقيق ، بالبضائع التى يستبدلون بها الرقيق من أسرى الحروب ، أو المخطوفين بمعرفة اللصوص الذين لايتوانون عن خطف أطفال قريتهم وحملهم إلى المكان المتفق عليه من قبل للمبادلة [٣]. ثم تأتى بهم القوافل لبيعهم فى أسوان مصر .

وتكاد قوافل العبيد التى تأتى إلى مصر لاتنقطع ، فلا ينقضى عام من الأعوام إلا وتصل فيه القوافل آتية من السودان ، وبرفقتها أعداد هائلة من الرقيق لبيعه فى أسوان مصر [٤]. على أن قوافل تجار الرقيق التى تأتى من السودان بالطريق النيلى ، كانت تصل إلى أسواق مصر فى مواسم معينه [٥].

كان الرقيق المجلوب من النوبة والسودان مرغوبا فى العالم الإسلامى ، ويجد رواجا هائلا فى أسواق الرقيق ، فقد اشتهر الرجال من عبيد النوبة بحفظ النفوس والأموال ، والرجال من الزنوج بالكد والخدمة[٦] . أما النوبيات فيقع عليهن الاختيار لتربية الأطفال ، « لأنهن من جنس فيه رحمة وحنين على الولد » كما نصح الأطباء باختيار نساء الزنج « لأن حرارتهن نحو الأثداء منتجة للبن » [٧].

1- Ibid ,. p. 37 .

2- Ibid ., pp . 34-35 , Combes , Voyage en Egypte. , vol , I p. 101 .

٣- نسيم مقار : الرحالة فى السودان ، ص٤٧ .

4- Wiet , Memoires Sur l'Egypte , p. 79 .

5- Combes , op . cit ., vol . I , p. 103 .

٦- ابن بطلان : رسالة فى شرى الرقيق ، ص٣٥٢ .

٧- المصدر السابق ، ص٣٨٧ .

وقد قسم تجار الرقيق العبيد حسب أعمارهم إلي ثلاث فئات : الخماسي وهم دون العاشرة أو الحادية عشر ، والسداسي وهم فوق الحادية عشرة ودون الرابعة أو الخامسة عشر ، والبالغون وهم من الخامسة عشر فصاعداً ، وأغلى هؤلاء عندهم السداسي [١].

ومن الوصايا التى كان ينصح بها مشترى الرقيق فى العصور الوسطى أن لايشترى الرقيق من أول لحظة ، بل يتروى، ويمعن النظر ، لأن إمعان النظر يكشف التصنع ويظهر التدليس[٢]. كما يوصى شاري الرقيق أن يحسس جسد الرقيق للتأكد من سلامته من الأمراض الجلدية مثل البهاق أو البرص أو القرحة وغيرها ، فضلا عن مناسبة أعضاء الرقيق للطول أو القصر ، وهناك عيوب إذا شابت العبد كان من حق مشتريه أن يرده ، وأهمها الشخير بالليل ، والتبول فى النوم ، وتحريق الأسنان فى النوم ، إذ كان المعتقد أن صاحب تلك العادة لايرجى منه أن يدين بالولاء لصاحبه [٣].

وفى سوق أسوان وغيرها من المدن الأخرى ، كانت رحلة العذاب بالنسبة إلى الرقيق تأتى إلى نهايتها . ففى اليوم المعين للسوق ، يعرض تجار الرقيق أعداداً هائلة من الرقيق للبيع ، كما يؤم السوق الراغبون فى الشراء . وبعد أن يقوم الراغبون فى الشراء بمعاينة الرقيق ، يتحسس أطرافه ، وجعله يقفز وفتح فمه كما لو كان حصانًا ، يدخلون فى مساومات مع تجار الرقيق ، إلى أن يقع المزاد على أحد المشترين ، فيأخذ ما رغب من الرقيق . وهنا تحين لحظة الفراق بين الأصدقاء من الرقيق الذين جمعتهم تجارة الإنسان فى أخيه الإنسان ، فتنساب الدموع مودعة ؛ والجدير بالذكر هنا ، أن تجار الرقيق المسلمين كانوا يمنعون عند البيع أن ينفصل الأخ عن أخته ، والأطفال عن آبائهن[٤] . ومن المسلم به أن المالك الجدير يعامل الرقيق الذى اشتراه برأفة ورحمة ، فيعطى الأطفال الأرقاء كميات طيبة من الطعام ، كى يستردوا صحتهم التى فقدوها بسبب ما لاقوه من مشاق الرحلة ، ثم يقوم بدوره - إذا كان من التجار- ببيعهم ، وهكذا فإن الرقيق ينتقل من يد تاجر لآخر ، ومن مكان لآخر ، رغبة فى المزيد من الربح . وفى الوقت الذى يكبر فيه الرقيق وينمو ، يكون قد نال قسطا من الحضارة والمدنية ،

١- رحلات بوركهارت ، ص٢٥٢ .

٢- ابن بطلان : رسالة فى شرى الرقيق ، ص٣٥٤ .

٣- رحلات بوركهارت ، ص٢٦١ .

4- Klunzinger , Upper Egypt , p . 37 .

فضلا عن اعتناق الدين الاسلامي ، وبذلك يغيب كل أثر يربط الرقيق بأوطانه التي جاء منها ، يصير مسقط رأسه الأصلي نسيا منسيا [١].

(العاج) : يعتبر العاج من السلع الرئيسية التي كانت ترد من السودان إلى مصر عبر أسوان . فقد كانت القوافل تأتي محملة بسن الفيل من دارفور [٢] . ومن مصادره أيضا اثيوبيا التي فاق عاجها عاج الهند ، فهو أطول وأثقل منه ، فضلا عن وفرته [٣] ، ويبدو أن العاج كان يجلب بكميات ضخمة في العصور الوسطى ، فقد دهش الرحالة ماركو بولو من كميات العاج الضخمة التي رآها في طريقه ، والتي كان يجلبها التجار من زنجبار ومدغشقر على ساحل أفريقية الشرقي [٤] . وفي دولة المماليك استخدم العاج في الترصيع والتطعيم ، وصناعة بعض التحف النادرة معظمها علب صغيرة عليها زخارف نباتية وهندسية رائعة [٥].

(الأبنوس) : تفوقت صناعة النقش على الخشب في العصور الوسطى ، فقد كان الصناع يستخدمون الأخشاب المحلية من الجميز والسنط والنبق والسرو ، ولكن هذه الأخشاب لم تكن تمتاز بالمتانة والصلابة ، فاضطر الفاطميون إلى جلب الأبنوس من السودان [٦]. وبرع النجارون في عصر المماليك في صناعة التحف الدقيقة ، مثل المنابر والدكك والكراسي والصناديق وغيرها التي كانت ترصع بقطع صغيرة من الأبنوس [٧] . كما كانت بعض مقابض المدى تصنع من الأبنوس [٨] .

(قرن الخرتيت) : من السلع الغالية التي كانت ترد من السودان قرن الخرتيت ، إذ كان يصنع منه في القاهرة مقابض السيوف والخناجر ، وقد أطلق في السودان على حيوان الخرتيت اسم «أم قرن» [٩].

1- Loc . cite .

٢- رحلات بوركهارت ، ص٢٤٢ ؛ Toylor , Journey to Central A Frica , p. 387 .

3- Heyd , Histoire du Commerce ., Vol , II , p . 629 .

4- Ibid ., vol . II . pp . 623-624 .

٥- سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص٣٨٤ .

٦- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص٥٩٢ .

٧- سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص٣٨٤ .

٨- رحلات بوركهارت ، ص٢٤٣ .

٩- رحلات بوركهارت ، ص٢٤٢-٢٤٣ .

(التمر الهندى) : عرف العرديب فى مصر بالتمر الهندى ، لأن بعضه كان يجلب من جزر الهند الشرقية ، غير أن الصنف الذى كان يرد من السودان يفوقه فى الجودة ، ومواطن العرديب فى السودان دارفور وكردفان ، وكانت القوافل المصرية التى تذهب إلى السودان للتجارة تأتى به فى شكل أقراص صغيرة ويجهز بتعريض لبه وحبه للشمس إلى أن يوشك على التعفن ثم يعجنان أقراصا(١).

(اللبان) : وهو نوع من الصمغ يجمعه البدو ساكنو الصحارى فى السودان ، ويقال إنه يفرز من ساق شجرة على نحو ما يفرز الصمغ العربى ، ولونه أغبر ، له رائحة نفاذة ، وهو صنفان أحدهما أخشن من الآخر (٢).

(السنا) : وهو نبات طبى ينمو فى مصر العليا والنوبة وفى سنار فى السودان يوجد فى الأراضى الرملية التى تصل إليها مياه النيل ، وهناك نوعان الأول منه أوراقه مدببة ، والثانى أوراقه عريضة ، وتأتى منه كميات كبيرة من مصر العليا إلى بولاق والقاهرة(٣).

(الصمغ العربى) : كانت القوافل تأتى به من أسواق شندى وكردفان ودارفور فى السودان، وأغلى أصنافه ما يجلب من كردفان وهو الأبيض الناصع(٤) . وفى العصور الوسطى كان الإقبال على الصمغ شديداً ، إذ كان يستخدم فى صنع بعض العقاقير الطبية ، فضلا عن استخدامه فى عمل مواد الصباغة ، وتثبيت الألوان (٥).

(ريش النعام) : من المعروف أن النعام كثير الانتشار فى أرجاء السودان ، وأغلى ريشه ما يجلب من كردفان ودار فور ، وكانت القوافل تحمله إلى مصر عبر طرق التجارة ، وخاصة طريق درب الأربعين (٦).

١- رحلات بوركهارت ، ص٢٢٧ .

٢- إلهام محمد ذهنى : مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، ص١٨٣-١٨٤ .

٣- رحلات بوركهارت ، ص٢٢٧ ، Toylor ,.op . cit ., p. 387 .

4- Heyd , Histoire du Commerse , vol . II , pp . 623-624 .

٥- رحلات بوركهارت ، ص٢١٨ .

٦- رحلات بوركهارت ، ص٢٧، ٣٠ .

(الشـب) : يوجد الشب في الصحراء الغربية بالسودان على مسيرة ثلاثة أيام من وادى حلفا. كما كان يستخرج حول بحيرة تشاد بالسودان ، ويعتبر التجارة الرئيسية لهذه البلاد[١]. ومن مناطق استخراجه أيضا الوجه القبلي والنوبة ، وكان يتم نقله بطريق النيل إلى الإسكندرية التي كان بها مستودعات ضخمة للشب ، ومن الاسكندرية يصدر إلى أوربا [٢]. والشب من السلع التي كثر عليها الطلب في العصور الوسطى ، إذ كان يستخدم في تثبيت الألوان والطباعة على الثياب - وخاصة الجوخ والحرير - فيعطيها لمعانا زاهيا ، كما كان يستخدم في الرسم والدباغة [٣]. وقد اهتم التجار الأوربيون بالحصول على الشب . لذلك احتكرت الدولة الأيوبية بيعه ، فليس لأحد أن يتصرف فيه بالبيع أو الشراء غير الديوان السلطاني ، وإذا حدث أن وجدت كمية منه عند أحد من الناس ، تصادر ويتعرض صاحبها للعقوبة [٤].

(الإبـل) : ليس من شك فى أن الجمل لعب الدور الرئيسى فى نقل السلع والبضائع فى مصر العصور الوسطى ، لما تميز به من صبر على تحمل الجوع والعطش ، وتعتبر بلاد البجة فى الصحراء الشرقية المتاخمة للسودان ، أكبر المناطق رعيا للإبل[٥] . فالبجة أهل بادية لا يعرفون الزراعة ، وإنما هم يتبعون الكلأ حيثما كان للرعى ، وجل ثروتهم الحيوانية الإبل التى لاتزال حتى وقتنا الحاضر . وأكبر سوق للجمال فى مصر يتجه إليه البجة هو سوق دراو (٣٥ كيلو متر شمال أسوان) ، إذ يعتبر نهاية أهم الطرق الصحراوية القديمة من الصحراء الجنوبية الشرقية والسودان إلى مصر ، وقد أدى سوق دراو - ولايزال - دوراً هاما فى عملية التغير الحضارى ، ففى ذلك السوق يقف عبابدة الصحراء (أسلاف البجة) وجها لوجه أمام حضارة مادية أغنى من حضارتهم ، مما يؤدى إلى تأثرهم بالحضارة الأغنى[٦] .

١- آدم ميتز : الحضارة الإسلامية ، جـ٢ ص٢٦٥ .

2- Heyd , op . cit ., vol . II ., p. 567 .

3- Heyd , op . cit . vol . II ., p. 570 .

٤- ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص٣٢٨-٣٢٩ ؛ الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ، ص١٩٢ .

٥- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٩٣ .

٦- محمد رياض : العبابدة ، ص١٣٠ .

(المسك) : كانت النوبة مورداً هاما لمادة المسك الذى يستخرج من حيوان يطلق عليه «فأرة المسك» ، ويعيش ذلك الحيوان فى الجهات المدارية على نبات السنبل البرى الذى ينمو بكثرة على التلال والهضاب ،وتروج تجارة المسك زمن الحج ،إذ يتهافت عليه الحجاج ليتضمخوا به ، وأحيانا حرقه فى الحرم الشريف لرائحته العطرة [١].

(القردة) : درج بعض الأفراد على التوجه إلى النوبة والسودان لشراء صغار القرده[٢] . وفى مصر كان القرادون يدربون صغار القردة على بعض الألعاب التى يتسلى بمشاهدتها أهالى المدن فى مصر ، غير أن هؤلاء القرادة كانوا محل التحقير والازدراء من النوبيين ، لأنهم - على حد قولهم - ينفقون حياتهم كلها فى إضحاك الناس عليهم ، والسخرية بهم [٣].

(هـ) التجارة الداخلية فى أسوان :

سبق أن ذكرنا أن أسوان لعبت دوراً هاما فى تجارة مصر زمن العصور الوسطى ، لأنها كانت ملتقى طرق القوافل التجارية الآتية من السودان والصحراء الشرقية . غير أنها لم تكن أحد المنافذ الهامة لتجارة مصر الخارجية فقط ، بل كانت أحد المراكز الهامة للتجارة الداخلية ، ونهر النيل من العوامل الهامة التى جعلت أسوان تتبوأ مركزاً رائعا للتجارة الداخلية ، إذ ربط بينها وبين العاصمة وسواحل البحر الأبيض المتوسط ، كما أنه امتاز بصلاحية الملاحة فيه شمال أسوان لخلوه من العقبات التى تعترض سير المراكب ، وساهمت الطرق البرية السهلة فى خدمة التجارة الداخلية بأسوان ، فالرحالة ناصر خسرو [٤] يحدثنا عن الطريق البرى الذى مهده الفاطميون بحذاء النيل من الفسطاط إلى أسوان ، وبلغ من الاهتمام به أن عينوا له موظفا للإشراف على صيانته ، وخصصوا لذلك الغرض مبلغا سنويا قدره عشرة آلاف دينار .

ومن الثابت أن حركة التجارة الداخلية فى أسوان زمن العصور الوسطى ، قد اتسمت بالسعة والضخامة ، فماج سوقها الواسع بالتجار الذين ترددوا عليه من كافة البلدان الإسلامية لشراء سلع الشرق الأقصى ووسط أفريقية . وما من مؤرخ أو جغرافى مسلم

١- سليمان عطية سليمان : سياسة المماليك فى البحر الأحمر ، ص٣٠ .

2- Wiet , Menoires sur l` Egypt ., p. 79 .

٣- رحلات بوركهارت ، ص٢٤٢-٢٤٣ .

٤- سفر نامة ، ص ٤٢ ؛ جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص١٤٦ .

إلا وذكر أسوان فى كتاباته وأثنى على تجارتها الداخلية . فعلى سبيل المثال ، وصفها المقدسى [١] بقوله : « قصبة الصعيد ... بها خيرات وتجارات وهى من الأمهات» ، وابن خلدون[٢] قال عنها : « قاعدة الصعيد » . كما قال عنها ابن حوقل[٣] : « وهى أكبر مدن الصعيد » ، وأيضا ذكرها اليعقوبى[٤] قائلا : « مدينة أسوان العظمى بها تجار المعادن ، وهى ذات تجارات مما يأتى من بلاد النوبة والبجة» . وكذلك قال المقريزى[٥] عنها : «وبها تجارات وبضائع » . كما وصفها ياقوت الحموى[٦] بأنها «مدينة كبيرة للتجارة » ووصفها أيضا أبو صالح الأرمنى[٧] بقوله : « وأسوان الثغر الأعظم» .

وفى سوق أسوان لم تنقطع حركة البيع والشراء طول أيام السنة ، وهو فى هذا يشبه أسواق المدن الكبرى فى مصر زمن العصور الوسطى ، مثل الفسطاط والقاهرة والاسكندرية وقوص وغيرها ، وبمعنى آخر فإن سوق أسوان ينطبق عليه اصطلاح «سوق دائم» . أما السوق الأسبوعى الذى كان يقام فى أسوان فى يوم معين من أيام الأسبوع ، ففى تصورنا أن الصفقات كانت تعقد فيه . وقد غلب على كل سوق فى أسوان صفة التخصص ببيع أصناف معينة من البضائع ، فهذا السوق يختص ببيع سلعة كذا ، وذلك يختص ببيع سلعة أخرى ... وهكذا ؛ ومن محاسن هذا النظام أن التاجر لم يستطع أن يشذ عن جيرانه برفع أسعار السلعة التى يتجر فيها ، لأن منافسيه على مقربة منه ، كما أن المشترى إذا لم يرقه صنف السلعة أو ثمنها ، فإنه يستطيع أن ينتقل فى سهولة من متجر لآخر دون أن يتحمل أدنى مشقة ، أما عيوب هذا النظام ، فأهمها أن المشترى إذا رغب فى شراء عدة أصناف مختلفة من البضائع ، فإنه كان يجوب المدينة طولا وعرضا حتى يقضى حاجاته ، لأنه لن يجد فى السوق الواحد

١- أحسن التقاسيم ، ص٢٠١ .

٢- المقدمة ، جـ١ ص٢٩٣ .

٣- صورة الأرض ، ص١٥٩ .

٤- البلدان ، ص٣٣٤ .

٥- الخطط ، جـ١ ص١٩٦ .

٦- معجم البلدان ، جـ١ ص٣٤٨ .

٧- تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى ، ورقة ١٠١أ .

سوى نوع معين واحد من البضائع[١] . ويبدو أن السبب فى انفراد كل سلعة أو بضاعة بمكان منفرد بعيداً عن الأخرى ، كان من أجل المحافظة على الصحة العامة « حتى لاتتجاور الصنائع الخسيسة مع الصنائع النفيسة» فأصحاب الصناعات التى ينتج عنها قذارة - مثل المسالخ المدابغ ومسابك الزجاج وأناتين الجير - يقيمون منعزلين فى الأطراف[٢] . وقد امتازت حوانيت الأسواق بصغر حجمها ، فمتوسط مساحة الواحد منها بلغ خمسة أقدام مربعة يكدس فيها التاجر كل بضائعه[٣]. وأصحاب هذا النوع من الحوانيت ، هم التجار المستقرون ، أما التجار المتنقلون ، فهم الذين يبقون بالسوق لفترة متأخرة من النهار ثم يبارحونه ليعودوا إليه فى اليوم التالى [٤].

ولم تترك حركة البيع والشراء فى سوق أسوان دون رقيب أو حسيب ، فهناك المحتسب الذى كان من اختصاصه الطواف بالسوق للتفتيش على البضاعة ، وضبط من يحاول التلاعب فى الأسعار أو الأوزان أو المكاييل أو غش أصناف السلع ، فضلا عن سرعة البت فى المخالفات التى ترتبط بالمعاملات التجارية [٥]. وقد اشترط فى المحتسب أن يكون ذا مهابة ، ثقة فى دينه وأمانته[٦] .

أما قرى أسوان ، فقد أقيم بها أيضا أسواق محلية ، تعقد مرة كل أسبوع . والواقع أن سوق القرية الأسبوعى ، يعتبر صورة مصغرة من سوق المدينة الأسبوعى ، ففى سوق القرية يجتمع بائعو كل صنف فى ركن من أركان السوق ولهذا يسهل على المشترى تمييز كل سلعة

١- سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٢٩٦-٢٩٧ ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص٨٦ .

٢- الحسن بن عبد الله : آثار الأول فى ترتيب الدول ، ص١٦٥ .

٣- سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص٨٦ - ٨٧ .

٤- نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ، ص٢٤٤ .

٥- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٤٦٢-٤٦٣ ؛ سعيد عاشور : العصر المماليكى ص٢٩٧-٢٩٩ ، مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ، ص١٥٥ .

٦- الحسن بن عبد الله : آثار الأول ، ص١٦٥ .

عن الأخرى . وفى سوق قرى أسوان ، كان البائعون - ولازالوا - يفترشون الأرض [١]، تحت مظال من الحصير تسندها أعمدة متقابلة من غصون الأشجار ويوجهون هذه المظال أية جهة درءاً لحرارة الشمس ، وطلبا للظل الكافى . كما يبيع البائعون فى ذلك السوق بضاعتهم بالقطعة أو بالكوم أو بالوزن ، وبدلا من اسعمال الصنجات فإنهم يستخدمون قطعا من الأحجار مساوية لها فى الوزن[٢] . ويبدو أن حركة البيع والشراء فى سوق القرية ، كانت تتم بنظام المقايضة ، فالأهالى يشترون حوائجهم ببيض الدجاج ونخال الدقيق [٣]، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن القرية كانت تسير على مبدأ الاكتفاء الذاتى ، ومن ثم لاتدعو الحاجة فيها إلى استعمال النقود لتعامل تجارى بسيط ومحدود .

وعلى أية حال ، فإن أسوان بحكم موقعها عند نهاية طرق القوافل الآتية من السودان والبحر الأحمر ، بالإضافة إلى وتوعها فى منطقة زراعية ، ووفرة الثروة السمكية بها ، كل ذلك جعل منها سوقا واسعا حافلا بمختلف السلع التى لقيت رواجا فى العصور الوسطى . ويمكننا القول أن الأسعار فى أسواق أسوان ، كانت تتميز بالرخص ، ولا أدل على ذلك من قول المقريزى [٤]: «وكانت أسعارها أبداً رخيصة » ، كذلك قول الإدريسى[٥]: «وأسعارها مع الأيام رخيصة » .

(و) تدهور النشاط التجارى لأسوان أواخر العصور الوسطى :

استمرت أسوان تؤدى دورها الحيوى كمدينة تجارية هامة فى العصور الوسطى ، إلا أنها أخذت تفقد ذلك الدور ، وتسير فى طريق الذبول ، منذ عصر دولة المماليك الجراكسة ، وقد آل الأمر أخيراً إلى تدهورها وخرابها .

1- Klunzinger , Upper Egypt ., p. 33 .

2- Ibid ., p. 34 .

٣- المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص٦٩ .

٤- الخطط ، جـ١ ص١٩٦ .

٥- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ص٢١ .

وإذا كان من المعروف أن سلاطين دولة المماليك الأولى ، قد بذلوا جهداً عظيمًا من أجل الحفاظ على مكانة مصر التجارية بين الشرق والغرب ، فإن الأمر كان على عكس ذلك فى دولة المماليك الثانية . فمن جراء اختلال نظام الإقطاع المملوكى ، وتطرق الفساد إليه ، فضلا عن ضعف الإنتاج الزراعى وحاجة سلاطين المماليك للأموال الوفيرة لسد مطالب الحروب وغيرها ، كل ذلك دفع السلاطين للاشتغال بالتجارة ، فاتبعوا سياسة الاحتكار التجارى للحصول على أكبر قدر من الأموال ، وقد أدت تلك السياسة التى بلغت مداها فى عصر السلطان برسباى (٨٢٥-٨٤٢هـ / ١٤٢٢-١٤٣٨م) إلى إنزال ضربة قاصمة بتجارة الأوربيين مثل الفلفل والبهار[١] . كما دفعت سياسة الاحتكار التجارى إلى فتور العلاقات بين مصر والدول الأوربية ، الأمر الذى حملها على محاولة التخلص من أهمية مركز مصر التجارى بين الشرق والغرب[٢]. ولجأت الدول الأوربية إلى مضاعفة جهدها من أجل الوصول إلى الهند وتجارة الشرق الأقصى عن طريق المحيط الأطلسى ، حتى تمكن فاسكودى جاما من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى كاليكوت أهم موانئ ساحل ملبار الهندى فى ٢٠ مايو سنة ١٤٩٨م ، وكان هذا الكشف نذيراً بتدهور مكانة مصر الاقتصادية فى أواخر عصر المماليك ، ولم يلبث أن أدى إلى إضعافهم ، ثم سقوط دولتهم بعد أن حرموا من المورد الأساسى الذى طالما أمدهم بالقوة والمال [٣].

ومما زاد الأمر سوءاً فى تدهور النشاط التجارى لدولة المماليك الجراكسة أن البدو من أهالى الصحراء الشرقية عملوا على مهاجمة القوافل المتجهة من قوص إلى عيذاب ، ونهبها وقتل أصحابها ، ونتيجة لذلك أخذت عيذاب تفقد أهميتها شيئا فشيئا فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، فى الوقت الذى أخذت فيه ميناء سواكن تكتسب أهمية فى التجارة [٤]. ومنذ القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، نمت سواكن وازدهرت ، ووصلت إليها أول سفينة محملة بالبضائع من كاليكوت فى عام ٨٢٦هـ (١٤٢٢م) [٥]. ولم

١- سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٢٩٥ .

٢- صبحى لبيب : التجار الكارمية ، ص٢٤٣ .

٣- سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٢٩٦ ؛ محمود الحويرى : ساحل شرق أفريقية ، ٧٤-٨٥ .

4- Bloss , The Story of Suakin . (S.N.R. vol . xix) , p. 283 .

5- Newbold , The Beja tribes of the Red Sea Hinterland , p. 151 .

يتوقف بدو الصحراء الشرقية عن مهاجمة القوافل التجارية التى تعبر تلك الصحراء محملة بالسلع والبضائع ، الأمر الذى دفع السلطان برسباى إلى إرسال حملة عن طريق البحر الأحمر لمهاجمة ميناء عيذاب وتخريبها ، وتمكنت تلك الحملة من أداء مهمتها حوالى عام ١٤٢٨-١٤٢٩م (١). وتبع ذلك أن انتقل مركز الثقل التجارى دفعة واحدة من ميناء عيذاب إلى سواكن ، حتى غدت الأخيرة الميناء الرسمى لمصر ، وظلت باقية إلى أن حل محلها ميناء بورسودان فى أوائل القرن الحالى (٢).

ومن العوامل المباشرة التى أدت إلى تدهور التجارة فى أسوان ، اضطراب الأحوال الداخلية لبلاد النوبة فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) . فأصبحت تلك البلاد - فى نهاية ذلك القرن - مسرحًا للفوضى فى قطع طرق المواصلات التجارية بين أسوان والنوبة ، مما أدى فى النهاية إلى شل الحركة التجارية بين مصر والسودان ، وزاد الأمر سوءاً أن بنى الكنز دأبوا على مهاجمة حدود مصر الجنوبية التى أصبحت مصدر قلق لدولة المماليك الجراكسة . ومنذ نهاية القرن الرابع عشر الميلادى ، ازدادت هجماتهم العنيفة المخربة على أسوان ، حتى خرجت عن يد السلطنة ، وتلى ذلك خرابها (٣).

كذلك تضاعف خطر العربان بالصعيد فى دولة المماليك الجراكسة ، وخاصة بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٤١هـ(١٣٤٠م) . فلم تستطع الحملات التى أرسلها السلاطين لتأديب العربان أن تكسر من شوكتهم . بل زاد أمرهم فساداً ، فدأبوا على قطع الطرق ، ونهب المسافرين من التجار . وفى هذا الصدد تذكرهم المصادر المعاصرة بالمفسدين من العربان ، ومن الملاحظ أن لاتكاد تخلو سنة من السنوات فى أواخر عصر المماليك من ثورة يقوم بها العربان ، والأمثلة على ذلك عديدة ، منها ما حدث فى سنوات ٧١٩هـ (١٣١٩م) ، ٧٣١هـ (١٣٣٠م) ، ٧٥٥هـ (١٣٥٤م)(٤) ؛ ففى السنة الأخيرة ، أى فى عهد الناصر حسن ابن قلاوون ، صارت الطرقات فى «غاية الفساد من العربان» (٥) .

1- Bloss, op . cit ., p. 285 ' Garcin , un centre Muulman de la Haute - Egypte Medievale : Qus , pp . 420-421 .

2- Newbold , op . cit ., p. 151 .

٣- انظر الفصل الأول ص٣١-٤٩ .

٤- المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص١٩٤ ، ٣٣٥ ، ٨٧٦ ، ٩٠٧ - ٩١٥ .

٥- ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٥ ص٢١٣-٢١٤ .

وفى أوائل القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، تزايد ضرر العربان وعبثهم فى الصعيد ، وقد أدى ذلك إلى كساد التجارة فى الوجه القبلى وتدهورها . ويتضح ذلك من وصف المقريزى[١] لتدهور التجارة بقوله : « وقد كثر عبث المفسدين وقطاع الطريق ببلاد الصعيد ، وفحش قتل الأنفس ، وأخذ الأموال هناك . ومع ذلك فالأسواق كاسدة ، والبضائع بأيدى التجار بايرة ، والأحوال واقفة ، والشكاية قد عمت ، فلا تجد إلا شاكيا وقوف حاله ، وقلة مكسبه ، وجور الولاة والحكام وأتباعهم متزايد ، فنسأل الله حسن العاقبة » .

وشمل الخراب إقليم الصعيد ، وألمت به المحن والنكبات منذ عام ٨٠٦هـ (١٤٠٣م) ، فذبل ثغر أسوان ، وتدهور حاله ، بعد أن كان من أعظم الثغور الاسلامية ، واستمر ثغر أسوان على تدهوره وخرابه سنين عديدة[٢] .

ولم يقتصر الأمر على ما قام به العربان من فساد وفوضى بالصعيد ، فإن ما قام به الأمراء وحكام الأقاليم فى الصعيد من نهب وفساد بمدنه وقراه ، زاد الأمر سوءاً على سوء . ففى عام ٨١٦ هـ (١٤١٣م) قدم الأمير فخر الدين بن أبى الفرج من بلاد الصعيد ، ومعه خيل وجمال وأبقار وأغنام كثيرة جدا ، وجمع المال من الأهالى ، واغتصب حلى النساء « وعمل فى بلاد الصعيد كما تعمل رءوس المناسر إذا هم هجموا ليلا على القرية وتمكنوا بها ، فانه كان ينزل على البلد فينهب جميع مما فيها ... بحيث لايسير عنها إلى غيرها حتى يتركها أوحش من بطن حمار ، فخرب بهذا الفعل بلاد الصعيد تخربا يخشى من سوء عاقبته »[٣] . وفى عام ٨٢٢هـ (١٤١٩م) قدم الأمير أبو بكر الاستادار من الصعيد، ومعه مائتا فرس، وألف جمل، وستمائة رأس جاموس، وألف وخمسمائة رأس بقر، وخمسة عشر ألف رأس من الغنم[٤].

١- السلوك ، جـ٤ القسم الأول ، ص٥٤٩ .

٢- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٩٧ ، ٣٦٤ ، جـ٢ ص٢٤٠ ، السلوك ، جـ٤ ص٢٢٧ ، إغاثة الأمة ، ص٤١-٤٣ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٦ ص٢٧١ (طبعة كاليفورنيا) .

٣- المقريزى : السلوك ، جـ٤ ص٢٧٤-٢٧٥ .

٤- المصدر السابق ، جـ٤ ص٤٩٥ .

وهكذا في القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، اختل إقليم الصعيد وآلت حالته إلى الفوضى والخراب ، وانعدم فيه الأمن . وقاسى أهله من شدة الفقر والبؤس بعد خراب القرى وقلة المواشى ، حتى «لقد صار اللبن عندهم طرفة من الطرف !»[١] ومن الطبيعى أن التجارة في الصعيد ، قد امتد إليها الخراب والفوضى التى انتشرت فى جميع أرجائه ، فالتجارة لا تقوم وتزدهر إلا فى ظل حكومة قوية تحافظ على الأمن ، وتضرب على أيدى المفسدين .

١- المصدر السابق ، جـ٤ ص٥٢١ وأماكن أخرى .

الفصل الثالث

الأهمية الثقافية والدينية لأسوان

(أ) الحياة العلمية :

كثرة العلماء فى أسوان - فقهاء أسوان الشافعية - حفاظ الحديث - التصوف - علم القراءة - مجاورو المدينة المنورة الأسوانيين - علوم الرياضيات والموسيقى والطب والطبيعيات والمنطق - علوم اللغة والنحو - مدارس أسوان .

(ب) الحياة الدينية :

أسوان أحد الثغور الاسلامية - أسوان رباط من أربطة المسلمين - أسوان طريق للحجيج - التشيع فى أسوان قبل العصر الفاطمى - التشيع فى أسوان فى العصر الفاطمى .

(جـ) الحياة الأدبية :

شعراء أسوان - أهم شعراء أسوان - أسرة بنى عرام - الأخوان الشاعران القاضى المهلب والرشيد - شعراء بنى الكنز فى العصر الفاطمى - الشعراء الأسوانيون فى القرن السابع الهجرى - شعراء أسوان فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة - كاتب الإنشاء فخر الدولة إبراهيم بن محمد الأسوانى - مؤرخ النوبة عبدالله ابن سليم الأسوانى .

(د) أسوان معبر رئيسى لنشر الإسلام فى السودان :

ارتباط مصر بالسودان منذ القدم - دور أسوان فى العلاقة بين مصر الاسلامية ومملكة النوبة المسيحية - نزوح الهجرات العربية من مصر إلى السودان عن طريق أسوان والتزامها ضفاف النيل - استقرار القبائل العربية فى أسوان - هجرة القبائل العربية إلى السودان أخذت صفة التدرج - منطقة المريس - استيطان قبيلة ربيعة أسوان - نزوح بنى الكنز إلى شمال النوبة - فتح النوبة فى عهد بيبرس - تدفق القبائل العربية إلى السودان منذ القرن ١٤م - دور أسوان فى نشر الإسلام فى مناطق البجة بالصحراء الشرقية - اختلاط العرب بشعب البجة - تدفق القبائل العربية إلى أوطان البجة فى القرن الثالث الهجرى - طريق الحج من أسوان ساهم فى نشر الاسلام بين شعوب البجة - دور أسوان فى تجارة النوبة والصحراء الشرقية وأثر ذلك فى نشر الإسلام بين شعوب تلك البلاد - معاهدة البقط - تجارة الرقيق جعلت المسلمين يتوغلون داخل أراضى السودان .

(أ) الحياة العلمية :

من المشاهد أن النشاط العلمى فى مصر فى العصور الوسطى ، لم يتركز فى العاصمة فقط، بل نافست العاصمة فى ذلك مدن بعيدة عنها . وإذا لم تستطع تلك المدن أن تتفوق عليها ، إلا أنها لم تقل عنها بأى حال من الأحوال . وتعتبر أسوان من المدن التى شهدت نشاطًا علميا بارزا . وربما كان سبب ذلك النشاط ، عزلتها وبعدها عن العاصمة ، فضلا عن جوها الصحراوى الذى جعل منها بيئة بداوة . وقد ظهر من أبناء أسوان علماء أفذاذ ساهموا بقسط وافر فى الحياة العلمية التى شهدتها مصر . ولا أدل على ذلك من قول الأدفوى فى كتابه الطالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد[1] : « وقد خرج من أسوان خلائق كثيرة لايحصون من أهل العلم والرواية والأدب ... قيل لى أنه حضر مرة قاضى قوص ، فخرج من أسوان أربعمائة راكب بغلة (لايركب البغلة إلا العلماء) ، للقائه ، وكان بها ثمانون رسولا من رسل الشرع» .

نبغ من أبناء أسوان كثير من علماء المذاهب السنية المختلفة ، ففى الفقه المالكى نبغ هارون بن محمد بن هارون الأسوانى (ت٣٢٧ هـ / ٩٣٨م) [2]، ومحمد بن يحيى بن مهدى الأسوانى الذى ولى قضاء مصر[3] ، وكان فتيا أهل مصر فى وقته إليه ، « فهو المشار إليه فى مذهب مالك بمصر» وحلقته فى جامع مصر كان يؤمها معظم المالكيين ، ومات عام ٣٤٠هـ (٩٥١م)[4]. ومنهم أيضا أحمد بن جعفر الأسوانى المتوفى عام ٣٧٦هـ[5] .

وفى الفقه الشافعى نبغ من أهالى أسوان قحزم بن عبد الله بن قحزم الأسوانى ويكنى بأبى حنيفة ، كان أصله قبطيا ، صحب الشافعى ، وأخذ عنه ، وكتب الكثير من كتبه ، وروى عنه

١- ص٢٩ .

٢- السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جـ١ ص١٩١؛ الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٦٨٦ ؛ سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص٣٠٧ .

٣- السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص١٩١ ؛ الكندى : الولاة والقضاة ، ص٥٣٢-٥٣٣ ؛ الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٦٣٨ .

٤- المقريزى: المقفى، جـ٣ ورقة ٢١٩ ب - ٢٢٠أ ؛ ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، ورقة ١٢٣ب.

٥- السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص١٩١ ؛ الأدفوى : الطالع السعيد ، ص١٤٣-١٤٤، ٦٤٣ .

عشرة أجزاء من السنن والأحكام ، وكان آخر من صحب الشافعى موتا ، بلغ فى الفقه شأوا عظيما ، وأفتى على مذهب الشافعى عدة سنين إلى أن مات بأسوان عام ٢٧١هـ (٨٨٤)م[١].

وكان من الممكن لقحزم أن يبلغ مرتبة عظيمة من الشهرة لو أنه اختار مصر (الفسطاط) مقراً له ، لكنه آثر البقاء بأسوان ، الأمر الذى أدى إلى إخمال ذكره فى تلك المدينة النائية[٢]. ومن فقهاء أسوان الشافعية الذين برزوا ، أبو رجاء محمد بن الربيع الأسوانى (ت عام ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م) ، ويقال أنه كان أديبا وشاعراً ، نظم قصيدة طويلة بلغت مائة ألف وثلاثين بيتا ، ذكر فيها قصص الأنبياء وكتاب المزنى والطب والفلسفة [٣]. كما اختصر أبو رجاء الأسوانى من كتب الشافعى ، كتاب «جمل الأصول الدالة على الفروع» فى الفقه ، ويقع فى مجلدين[٤]. ومنهم مفضل بن محمد الأنصارى الأسوانى (ت ٢٥ جمادى الآخرة ٥٨ هـ / ١١٨٩م) ، الذى رحل إلى بغداد ، وتفقه على الإمام أبى القاسم يحيى بن على المعروف بابن فضلان وسمع بها من منو جهر ، ثم أتى إلى القاهرة ، ومكث بها إلى أن أدركته الوفاة [٥]. وكذلك نبغ خاله اسماعيل بن محمد بن حسان الأسوانى (ت ٧ رمضان ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م) ، فقد رحل مثله إلى بغداد ، وتفقه على ابن فضلان ، وسمع من منوجهر ، وحدث بها ، ثم رجع فأقام بأسوان حاكما مدرسا ، ثم غادرها إلى القاهرة ، وظل بها حتى وفاته[٦] . ومنهم أيضا مبادر بن نجيب الأسوانى (ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م) ، الذى جمع بالإضافة إلى ذلك مهنة

١- السيوطى: حسن المحاضرة ، جـ١ ص١٦٧؛ السبكى طبقات الشافعية الكبرى ، جـ٢ ص١٦٠-١٦١؛ ابن عبد البر النمرى : الانتقاء فى فضائل الثلاثة الفقهاء ، ص١١٥ .

٢- الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٤٦٩ .

٣- السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ١٦٨ ؛ الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٤٨٥ ؛ سيدة كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص٣٠٧ .

٤- السبكى : طبقات الشافعية ، جـ٣ ص٧٠-٧١ ؛ المقريزى : المقفى ، جـ١ ورقة ٧١أ - ٧١ب ، المقفى، جـ٥ ص٧١-٧٢ (مطبوع) .

٥- الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٦٥٦ .

٦- السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص١٧١ ؛ الطالع السعيد ، ص١٦٥-١٦٦ .

الطب[١]، وعبد الله بن حسن الأسوانى المتوفى عام ٦٣٩هـ (١٤١٢م) [٢]، وكذلك أيضا الفقيه الشافعى محمد بن يوسف بن سعد الملك (ت بعد ٦٦٠هـ / ١٢٦١م) ، حفظ «الوجيز»[٣]، ومحمد بن عبد العزيز بن عبد العزيز بن الحسين الأسوانى (ت ٦٧١هـ / ١٢٧٢م) فقد انتقل إلى مصر واشتغل بالفقه بها عدة سنين ، ثم عاد إلى أسوان وتولى الحكم (القضاء) بها حتى وفاته [٤] . ومنهم الفقيه القاضى محمد بن سليمان بن فرح الكندى (ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) ، الذى عرف بتقواه وورعه وتقشفه[٥] . ومن أبناء أسوان الذين نبغوا فى الفقه الشافعى أبو بكر بن عرام الأسوانى ، كان يعرف الفرائض ويفتى فيها ، عارفا بالجبر والمقابلة والحساب ، وقد خرج من أسوان شابا ، وأقام بالإسكندرية متصوفا ، وصحب الشيخ أبا الحسن الشاذلى الذى شهد له بالولاية ، وتزوج ابنته ، وظل مقيما بالإسكندرية متصوفا ، إلى أن توفى بها عام ٦٩١هـ (١٢٩١م)[٦] . ومنهم أيضا عمر بن عبد العزيز بن الحسين شمس الدين الأسوانى (ت٦٩٢هـ) ، أخذ الفقه على العلامة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وكان على دراية بالنحو والأدب والشعر ، ويروى عنه أنه رحل من أسوان إلى قوص ، ثم إلى القاهرة ، للاشتغال بالفقه ، وكانت تأتى إليه الكتب من أهله فلا يقرؤها ، «حتى حصل مقصوده من العلم» وظل مقيما بالقاهرة إلى أن أدركته الوفاة بها [٧].

ونبغ من أبناء أسوان فى الفقه الشافعى فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) الحسن بن محمد بن عبد العزيز الأسوانى ، كانت له مشاركة فى النحو والأصول ، وقرأ على عمه عمر بن عبد العزيز الأسوانى ، اشتهر بتدينه ونزاهته ، وتولى القضاء وقام بالتدريس فى أسوان إلى أن توفى عام ٧٠٢ هـ (١٣٠٢م) [٨]. وكذلك محمد بن عيسى بن ملاعب

١- الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٤٧٤ .

٢- المصدر السابق ، ص٢٧٨ .

٣- المصدر السابق ، ص٦٤٣-٦٤٥ .

٤- المصدر السابق ، ص٦٣٤ .

٥- المصدر السابق ، ص٥٢٢ - ٥٢٣ .

٦- المصدر السابق ، ص٧٣٦-٧٣٧ .

٧- الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٤٤٠-٤٤٣ ؛ السيوطى : بغية الوعاة ، جـ٢ ص٢١٩-٢٢٠ .

٨- الأدفوى : الطالع السعيد ، ص٢٠٩ .

الأسواني ، المتوفى عام ٧١٧هـ (١٣١٧م)[١]، وملاعب بن عيسى بن ملاعب الأسواني المتوفى عام ٧١٩هـ [٢]. ومن فقهاء أسوان الشافعية أحمد بن أبي بكر بن عرام الأسواني ، ولد بالاسكندرية ، وهو سبط الشيخ أبي الحسن الشاذلي (الشاذلي جده لأمه) ، وقرأ القرآن على الدلاصي بمكة ، ودرس الفقه على مذهب الإمام الشافعي ، وقرأ النحو ، وسمع الحديث ، وولي نظر الأحباس (الأوقاف) الديوانية بثغر الإسكندرية ، وتصدر لإقراء العربية بجامع العطارين بها ، وصحب الشيخ أبا العباسي المرسي ، وأخذ التصوف عنه، وله شعر ونثر ، وصنف في الفقه والعربية ، وله تعليق على «المنهاج» للنووي و «مناسك» وغير ذلك ، وتوفي بالقاهرة في شوال عام ٧٢٠هـ (١٣٢٠م) [٣]. ومنهم أيضا محمد بن عيسى الجمحي الأسواني ، شارك في النحو ، وله دراية بالتوثيق والحساب وتوفي عام ٧٢٣هـ [٤]. وكذلك نجم الدين حسين بن علي بن سيد الكل الأزدي الأسواني (ت صفر ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨م) ، كان ماهراً في الفقه ، متصوفا ، مفتيا ، تصدر للإقراء بالقاهرة ، وانتفع به الطلبة طبقة بعد طبقة، فضلا عن اشتغاله في غالب العلوم والفنون [٥]. ومنهم محمد بن أحمد بن أبي بكر بن عرام الأسواني (المتوفى عام ٧٧٧هـ (١٣٧٥م) ، حدث وأفتى ودرس وصنف [٦].

وإلى جانب ذلك ، ظهر من أبناء أسوان جماعة من حفاظ الحديث ؛ نذكر منهم بلال بن يحيى الأسواني المتوفى عام ٢١٧ هجرية (٨٣٢م) ، حدث عن مالك بن أنس والليث بن سعد وابن لهيعة[٧]. وكذلك معاوية بن هبة الله الأسواني (ت ٢١٨هـ) ، روى عن مالك ابن أنس والليث بن سعد وعبد الله بن عبد الله بن لهيعة [٨]، ومنهم وليد بن يحى الأسواني

١- المصدر السابق ، ص٦٠٠ .

٢- المصدر السابق ، ص٦٥٩ .

٣- المصدر السابق ، ص٧٢-٧٤ ؛ المقريزي : المقفى ، جـ١ ص٦٨٣ .

٤- الأدفوي : الطالع السعيد ، ص٦٠١ - ٦٠٢ .

٥- ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ٦ ص١٢٠-١٢١ ؛ الطالع السعيد ، ص٢٢٤-٢٢٦ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٣ ص٤٦٣ .

٦- ابن حجر الدرر الكامنة ، جـ٣ ص٤٦٣ .

٧- الأدفوي : الطالع السعيد ، ص١٧٤ .

٨- الطالع السعيد ، ص٦٤٨ .

(ت٢٣٤هـ)[١] ، ومحمد بن عبد الوارث بن جرير بن عيسى الأسوانى (ت٢٩٧هـ) [٢]. ومن حفاظ الحديث أيضا القاضى ابراهيم بن موسى الأسوانى (من مواليد القرن الثالث الهجرى) ، سمع الحديث ، وروى عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وأبى الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح [٣]، أبو الحسن بن يوسف بن يعقوب الأسوانى (ت ٣١٨هـ / ٩٣٠م) روى عنه ابنه أنه كان ثقة ، وفقير بن موسى أبو الحسن الأسوانى ، سافر إلى الفسطاط ، وروى عن أبى حنيفة قحزم بن عبد الله الأسوانى صاحب الشافعى ، وتوفى بأنصنا عام ٣٢١هـ [٤].ومنهم أيضا أحمد بن عبد الوارث الأسوانى ، من موالى عثمان بن عفان ، ويروى عنه أنه كان ثقة ، حدث عن عيسى بن حماد وغيره ، ولكن كتبه التى صنفها احترقت ، ولم يتبق منها سوى أربعة أجزاء ، وتوفى عام ٣٢١هـ بعد احتراق كتبه بسنة واحدة [٥]، ومنهم هارون بن يوسف الأسوانى (ت ٣٣١هـ) من موالى عثمان بن عفان أيضا ، وكان القضاة تقبله[٦] . ومنهم أيضا محمد بن ابراهيم بن خالد أبو بكر الأسوانى (ت ٣٥٠هـ / ٩٦١م) ، حدث عن يونس بن عبد الأعلى وغيره ، وكان مقبول القول عند القضاة [٧]، وإبراهيم بن أحمد الأسوانى (ت ٤١٠ هـ / ١٠١٩م)[٨] ومحمد بن عتيق الأسوانى (ت ٤١٧هـ) [٩]. ومن أبناء أسوان الذين حفظوا الحديث ، محمد بن هلال الشيبى الأسوانى (ت ٤٨٢هـ) ، كان رجلا صالحا ثقة [١٠]، ومحمد بن ابراهيم بن أحمد ابن نصر أبو الحسين الأسوانى ، كان خطيب أسوان وحاكمها ، ولاه الخليفة الفاطمى العاضد لدين الله قضاء أسوان وإسنا وأرمنت عام ٥٥٨هـ (١١٦٢م) ، وتوفى بعد ذلك التاريخ [١١]. وكذلك عيسى بن محمد بن حسان الأنصارى (ت ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م)[١٢]،

١- الطالع السعيد ، ٧٠٦ . ٢- الطالع السعيد ، ص٥٤٣ ؛ المقريزى : المقفى ، ورقة ٧٤ ب .

٣- الطالع السعيد ، ص٦٨ . ٤- الطالع السعيد ، ص٢١٩ .

٥- السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص١٥٦ ؛ الطالع السعيد ، ص١٩٤-١٩٥ .

٦- الطالع السعيد ، ص٦٨٩ . ٧- المقريزى : المقفى ، جـ١ ورقة ٤٤ ب .

٨- الطالع السعيد ، ص٤٨ . ٩- الطالع السعيد ، ص٥٥١-٥٥٢ .

١٠- الطالع السعيد ، ص٣٦٧-٣٦٨ ، المقفى ، جـ٧ ص٤٠٢ .

١١- الطالع السعيد ، ص٤٧٦ ؛ المقفى جـ١ ورقة ٤١ ب ، جـ٥ ص٧٥ .

١٢- الطالع السعيد ، ص٤٦١ .

وابنه يوسف بن عيسى بن محمد بن حسان الأنصارى الأسوانى (ت ٦٤٩هـ) الذى يروى عنه أنه كان أحد الرؤساء [١]. ومنهم محمد بن المفضل بن محمد بن حسان الأنصارى (ت ٦٥١هـ) ، تقلب فى الخدم الديوانية بديار مصر ، ودرس وأفتى وولى القضاء بثغر أسوان [٢].

وفى ميدان التصوف الاسلامى الذى يتسم بالزهد والشفافية الروحية ، قدمت أسوان ابراهيم الخواصى الصوفى الأسوانى المتوفى عام ٢٩١هـ (٩٠٣م) ، وكان أوحد المشايخ فى وقته ، ومن كلامه : « ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العالم من اتبع العلم واستعمله واقتدى بالسنن ، وإن كان قليل العلم » ، وقال أيضا :« دواء القلب خمسة أشياء : « قراءة القرآن بالتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين»[٣] . وكذلك الحسن بن على بن الحسن الأسوانى (ت ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م) ، عرف بزهده وتقواه [٤] ، وابراهيم بن على بن أحمد الأسوانى ، كنيته أبو اسحاق الصوفى ، وكان ينعت بالشرف وهو لقب صوفى ، وقد توفى فى النصف الأخير من القرن السابع الهجرى [٥]. ومن المتصوفين الأسوانيين محمد بن يحيى الصيفى أبو عبد الله الأسوانى ، ويروى عنه الأدفوى فى الطالع السعيد[٦] أنه «كان مشهوراً بالصلاح ، يعتقد بركته وتنقل عنه مكاشفات وكرامات » . وكان أبو عبد الله الأسوانى يدعى أنه يرى النبى صلى الله عليه وسلم ويجتمع به ، وأقام بأخميم ، وعند وفاته فى رجب عام ٦٨٦هـ (١٢٨٧م) دفن برباطه بها . وسار فى سلك الصوفية أيضا ، ابن أخته عمر بن محمد بن عبد الكريم الأسوانى الذى ينعت بالصدر ، وقد جاء والده من قزوين ، وأقام بأسوان ، وتزوج بأخت الشيخ أبى عبد الله الأسوانى ، فولدت له صدر الدين هذا ، «فنشأ فى صلاح وعبادة ، وقرأ القراءات ، ثم تصوف وأقام بالخانقاه ، إمام الصوفية بها ، فتوجه من القاهرة إليها فى قوص ، فقالت له : يا بنى أشتهى أن أبصرك كما كنت أبصر له ، فلما كان الليل توضأ وتوجه ، ثم قال لها : يا سيدتى قومى وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ، فقامت وقالت : يا بنى أرى النجوم ... ، واستمرت تبصر إلى حين وفاتها ،

١- الطالع السعيد ، ص٧٢٥ .   ٢- المصدر السابق ، ص٦٣٣؛ المقفى ، جـ٣ ورقة ١٤٤أ-١٤٤ب.

٣- المقفى ، جـ١ ص١٠١-١٠٢ .   ٤- الطالع السعيد ، ص٢٠٦-٢٠٧ .

٥- الطالع السعيد ، ص٥٨ .   ٦- ص٦٤٠ ؛ المقفى ، جـ٣ ورقة ٢٣ ب .

وتوفى صدر الدين بالخانقاه[١] بالقاهرة فى ٦ جمادى الأولى عام ٦٨٦هـ (١٢٨٧م) [٢]. ومن أبناء أسوان الذين انخرطوا فى سلك الصوفية أيضا ، إبراهيم بن عمر بن عبد الكريم الأسوانى» الذي ينعت بالبرهان ، سمع الحديث من الحافظ عبد المؤمن بن خلف فى ذى الحجة عام ٦٨٧هـ [٣]، وعبد الله بن أبى بكر الأسوانى ، ولد بدمنهور ، وسمع الحديث ، وصحب الشيخ أبا العباس المرسى ، وأمه بنت الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، وذكر عنه أنه كان رجلا صالحا ، له كرامات ، وتوفى بالإسكندرية عام ٧٢١هـ (١٣٢١م) [٤].

أما علم القراءة ، وهو قراءة القرآن الكريم علي نسق القراءات السبعة ، وتهجى كلماته ، وعدد آياته ، وإعجازه وبلاغته ، فقد ظهر من علماء أسوان من يجيد القراءة نذكر منهم أحمد بن أبى عثمان الأسوانى ، ويكنى أبا العباس ، قرأ القرآن الكريم على أحمد بن عبيد الله بن عبد الواحد بالبصرة ، وكان يجيد القراءة بحرف أبى عمرو[٥] . ومنهم الزبير بن على ابن أبى شيخة الأسوانى ، اشتغل بالفقه ، وقرأ القرآن على الزين سلامة ، والسراج عبد الواحد ، ثم رحل إلى مصر ، فقرأت عليه القراآت ، ثم انتقل إلى المدينة المنورة وأقام بها ، إلى أن توفى عام ٧٤٨هـ (١٣٤٧م)[٦] .

ومن علماء أسوان من آثر الإقامة فى رحاب المدينة المنورة أو مكة المكرمة بالحجاز ، ليفيد طلاب العلم ، وينعم بالأماكن المقدسة التى شهدت ظهور الإسلام . وإذا كان بعض كبار العلماء الدينيين قد تمكنوا أثناء مجاورتهم أن يكونوا مدرسة فكرية تنشر آراءهم ، وتجمع الناس حولهم [٧]، فمن كبار المجاورين – من أبناء أسوان – الزبير بن على بن أبى شيخة

١- السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص١٩١ ؛ الأدفوى : الطالع السعيد ، ص١٤٣-١٤٤ ، ٦٤٣ .

٢- السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ص١٦٧ ؛ السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ٢ ص١٦٠-١٦١؛ ابن عبد البر النمرى : الانتقاء فى فضائل الثلاثة الفقهاء ، ص١١٥ .

٣- الطالع السعيد ، ص٥٧ .

٤- الطالع السعيد ، ص٢٧٥ .

٥- ابن الجزرى : غاية النهاية فى طبقات القراء ، جـ١٠ ص٨٠-٨١ ؛ الطالع السعيد ، ص٧٥ .

٦- الطالع السعيد ، ص٢٤٨ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٢ ص٢٠٥-٢٠٦ .

٧- على السليمان : علاقة مصر بالحجاز زمن سلاطين المماليك ، ص٣١١ .

الأسوانى الذى ذكرناه كأحد قراء القرآن الكريم ، وقد جاور الزبير بالمدينة المنورة ، فدرس بها ، وترك من بعده تلاميذ ومحدثين من جميع الأقطار العربية . ومن تلامذته الذين سمعوا عليه «الشفاء» بالمدينة المنورة ، وأجاز لهم : على بن عز الدين الأنصارى الزرندى المتوفى عام ٧٧٢ هـ (١٣٧٠م) [١]، ومحمد بن أحمد بن أبى بكر التلمسانى المتوفى عام ٧٨١هـ (١٣٧٩م) [٢]، ومحمد بن صالح بن اسماعيل المدنى عام ٧٨٥هـ [٣]، ومحمد بن أحمد بن عبد العزيز النويرى المتوفى عام ٨٧٦هـ (١٤٧١م) [٤]، وعبد الله بن أحمد بن محمد بن ابراهيم الطبرى المتوفى عام ٧٨٧هـ[٥] ، ومحمد بن أحمد بن محمد بن على الحسنى الفاسى المتوفى عام ٧٩٦هـ [٦]، وعلى بن عبد الرحمن بن عبد المؤمن الهورينى المتوفى عام ٧٩٧هـ[٧]، وإبراهيم بن على بن محمد بن أبى القاسم ابن فرحون اليعمرى المدنى المتوفى عام ٧٩٩هـ [٨]، ومحمد بن محمد بن على بن ابراهيم الحضرمى المالكى المتوفى عام ٨٠٧هـ (١٤٠٤م) [٩]، ومحمد بن عمر بن على السحولى اليمنى المتوفى عام ٨٠٧هـ [١٠]، وعبد الرحمن بن على بن يوسف الزرندى الحنفى - آخر الرواة عن الزبير الأسوانى وخاتمة أصحابه - المتوفى عام ٨١٧هـ [١١]. ومن مجاورى المدينة المنورة الأسوانيين ، الحسن بن على بن سيد الأهل الأسوانى (ت٧٢٤هـ) كان فقيها على المذهب الشافعى ، عرف بالصلاح والزهد وكثرة التلاوة ، واشتغل بالعلم والعبادة ، وسكن المدينة المنورة ، وأم الناس فى المحراب الشريف ،

١- الدرر الكامنة ، جـ٣ ص٢١٦-٢١٧ .

٢- نفس المصدر ، جـ٣ ص٤٥٠-٤٥١ .

٣- نفس المصدر ، جـ٤ ص٧٦ .

٤- نفس المصدر ، جـ٣ ص٤١٥-٤١٦ .

٥- نفس المصدر ، جـ٢ ص٣٥٠-٣٥١ .

٦- ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ٦ ص٣٤٦-٣٤٧ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ١ ص٤٨٢ .

٧- ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ٦ ص٣٥٠ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ١ ص٥٠٠-٥٠١ .

٨- ابن حجر : انباء الغمر ، جـ١ ص٥٣١ .

٩- المصدر السابق ، جـ١ ص٥٣٧ .

١٠- المصدر السابق ، جـ١ ص٦٨٤ . السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٩ ص٨٣ .

١١- ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ٧ ص١٢٥ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٢ ورقة ١٠٩-١١٠ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٤ ص١٠٥ .

وجاور بها ثمانية عشر عاما ، إلى أن مات ودفن بها [١]. ومن الذينسكنوا المدينة المنورة من أهل أسوان وجاور بها ، على بن محمد بن موسى سبط الزبير الأسوانى ، ولد بالمدينة المنورة عام ٧٥٤هـ (١٣٥٣م) ، ونشأ بها ، وسمع على بعض كبار الشيوخ ، ثم رحل إلى القاهرة ، وسمع على بعض شيوخها ، وعاد ثانية إلى المدينة المنورة ، وقد قال عنه السخاوى (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م) : «وأنه لم يخلف ببلاد الحجاز أسند منه » وكذلك قال عنه شيخ السخاوى وأستاذه ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) ، وكان قد أجاز له: «كان عالما عاملا مسنداً مكثرا » ، ومات بالمدينة المنورة عام ٨٣٨هـ [٢].

وإلى جانب العلوم الدينية ، برز من أبناء أسوان نخبة من العلماء فى الدراسات الفلسفية ، وقد تضمنت تلك الدراسات : الرياضيات والموسيقى والطب والطبيعيات والإلهيات والمنطق ، وغير ذلك من العلوم التى وجدت فى مصر العصور الوسطى . ومن هؤلاء العلماء الذين تعددت مواهبهم الشاعر أبو رجاء محمد بن أحمد الربيع الأسوانى ، وقد سبق أن تحدثنا عنه كأحد فقهاء المذهب الشافعى . ومنهم الشاعر أحمد بن على الرشيد الأسوانى (ت٥٦٣هـ / ١١٦٨م) ، ضرب بسهم وافر فى الفقه واللغة والنحو وعلم العروض والتاريخ والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والنجوم [٣]. ومنهم أيضا هبة الله بن صدقة الأسوانى الذى برع فى مهنة الطب وصناعة اليد (صناعة الكحل) ، وبلغ من مهارته فى الطب أن تولى رئاسة الأطباء فى زمنه (أواخر العصر الفاطمى) ، ومما يدل على براعته الفائقة أن الخليفة العاضد الفاطمى كانت لديه جارية تحتاج إلى الفصد ، غير أنها لاتطيق رؤية الأدوات التى يستخدمها الأطباء فى الفصد ، فاحتال هبة الله على ذلك بأن خبأ المبضع فى فمه ، وأمسك بيدها لجس نبضها ، فاطمأنت ، فما كان منه إلا أن أومأ لتقبيل يدها ، وعند ذلك فصد العرق بالمبضع الموجود فى فمه دون أن تشعر ، فأعجب العاضد لمهارته ، وأمر له بخلعة [٤].

ونستطيع أن نلمس نشاط علماء أسوان فى علوم اللغة والنحو ، إلى جانب العلوم الدينية والفلسفية ، فقد سبق أن استعرضنا فى الصفحات السابقة انتاج بعض علماء أسوان ، الذى اتضح لنا منه تعدد أشكاله فى جميع فنون المعرفة ، فضلا عن دراية العالم بأكثر من علم واحد ، من بينها علوم اللغة والنحو .

١- الطالع السعيد ، ص٢٠٧ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ٢ ص٢٥٩ ؛ العينى : عقد الجمان تاريخ أهل الزمان ، حوادث عام ٧٢٤هـ ك ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٢ ص١١٣ .

٢- السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٦ ص٢٤ . ٣- ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٤ ص٥١ .

٤- الطالع السعيد ، ص٦٩٠-٦٩١ ؛ احمد عيسى : معجم الأطباء ، ص٥٠٦ .

ووجدت بأسوان ثلاث مدارس كبرى لتدريس العلوم والآداب . ومن تراجم الشخصيات التى ذكرها الأدفوى فى كتابه «الطالع السعيد» عرفنا أسماء تلك المدارس وهى : السيفية ، والنجمية ، والبانياسية ، فالمدرسة الأولى درس بها الفقيه عمر بن محمد أحمد الأنصارى عام ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) (١). والمدرسة النجمية تولى الإعادة بها العلامة الحسين أبى بكر بن عياض بن موسى السبتى المتوفى عام ٦٨٢هـ (٢)، وعيسى بن ملاعب بن عيسى الأسوانى (ت ٦٩٢هـ) (٣)، والفقيه محمد بن عيسى بن ملاعب الأسوانى (ت ٧١٧هـ) (٤)، والعلامة عمر بن محمد بن عبد العزيز ابن المفضل الأسواني (ت ٧٤٠هـ) (٥)، كما درس بها العلامة الحسن بن محمد بن عبد العزيز الأسوانى (ت٧٠٢هـ)(٦) ، وتولى الإمامة بها عبد الحق بن الحسن الأدفوى، وهو ابن عم الأدفوى مؤلف كتاب «الطالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد»(٨) أما المدرسة البانياسية ، فتولى الإعادة بها العلامة ملاعب بن عيسى بن ملاعب الأسوانى (ت٧١٩هـ) ودرس بها العلامة نجم الدين أحمد بن محسن الأنصارى البعلبكى (ت٦٩٩هـ) الذى استقر بأسوان مدة من الزمن ، ثم رجع إلى الشام(٩) . كما درس بها قاضى أسوان يوسف بن محمد السيوطى المتوفى عام ٧٢٤هـ(١٣٢٤م) (١٠).

وقد صمتت المصادر التى أتيح لنا الاطلاع عليها عن ذكر أى شئ يتعلق بمؤسسى تلك المدارس الثلاث وتاريخ نشأتها . وفى تصورنا أن تلك المدارس قد أنشئت فى عهد الدولة الأيوبية ، لأن أسماءها توحى بذلك . فضلا عن أن الأيوبيين حصروا اهتمامهم فى تشييد المدارس بمصر لنشر المذهب السنى(١١) . فعندما استقرت الأمور لصلاح الدين فى مصر ، لم يكن بها مدارس ، فشيد المدارس لأول مرة فى مصر لمحاربة المذهب الشيعى ، وكان لايدخر وسعا فى سبيل الانفاق عليها(١٢).

١- الطالع السعيد ، ص٤٥٥ .

٢- المصدر السابق ، ص٢٢١ .

٣- المصدر السابق ، ص٤٦١ .

٤- المصدر السابق ، ص٦٠٠ .

٥- المصدر السابق ، ص٤٥٩ .

٦- المصدر السابق ، ص٢٠٩ .

٧- المصدر السابق ، ص٢٨٤ .

٨- المصدر السابق ، ص٦٥٩ .

٩- ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ٥ ص٤٤٤-٤٤٥ .

١٠- الطالع السعيد ، ص٧٢٦-٧٢٨ .

١١- أحمد شلبى : تاريخ التربية الإسلامية ، ص١١٧ .

١٢- ابراهيم الحنبلى : شفاء القلوب ، ورقة ٥٢ب ؛ أحمد شلبى : المرجع السابق ، ص٣٥٦-٣٥٧ .

وقد ظلت تلك المدارس الثلاث تنهض بمهامها العلمية خلال القرنين السادس والسابع للهجرة (الثانى عشر والثالث عشر للميلاد) ، واستمرت قائمة حتى قبل منتصف القرن الثامن الهجرى فيما عدا واحدة منهن ، فمن الترجمة الشخصية لقاضى أسوان شعيب بن يوسف الإسنائى فى الطالع السعيد ، وردت جملة تقول :«ودرس بالمدرستين بأسوان» [١]، ولم يسمى الأدفوى هاتين المدرستين بأسمائهما . غير أننا نستدل من جملته المذكورة على أن إحدى المدارس الثلاث قد أغلقت أبوابها قبل منتصف القرن الثامن الهجرى .

(ب) الحياة الدينية :

أطلق المسلمون على أى بلد يقع على حدود العدو ثغرا ، كما قيل عن الثغر الذى يدافع أهله عن الإسلام اسم رباط ، وقد جاءت كلمة رباط من قوله تعالى : «وصابروا ورابطوا »[٢]، أى أن الله يحث عباده المؤمنين على الصبر والجهاد ، ومن قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . ولما كانت أسوان تقع على حدود النوبة المسيحية ، وتمثل خط الدفاع الأول لمصر من ناحية الجنوب ، فقد اعتبرها المسلمون أحد الثغور المعدة للرباط فى سبيل الله تعالى ، بل من المؤرخين من قال عن أسوان : « الثغر الأعظم والرباط الأكبر ، وآخر مناهل المسلمين »[٣] .

وبالإضافة إلى ذلك ، فان أسوان كانت أحد المحطات الهامة التى ينفذ منها الحجاج إلى بيت الله الحرام، عبر الصحراء الشرقية حيث ميناء عيذاب ، ومنها يركبون البحر إلى جدة[٤]. ففى القرون الإسلامية الأولى ، سلك الحجاج إلى مكة المكرمة طريقين : « أحدهما برى والآخر بحرى . أما الطريق البرى فكان يسير عبر الصحراء الشرقية إلى القلزم ، ويمر بعد مغادرة مصر ببركة الحاج (شرق قرية المرج الحالية) ، فالقلزم ، فنخل ، ثم يسير بحذاء البحر الأحمر حتى يصل إلى حقل ، ومنها إلى مدين ، فالمويلحة ، فالأزلم ، فالوجه ، ومنها إلى الحوراء ، فينبع ، فبدر ، فالجار ، فرابغ ، فخليص ، فبطن مر ، ومنها إلى مكة المكرمة [٥]. وكانت قوافل الحجاج تسير متجهة إلى القلزم فى اتجاه يكاد يكون شبه رأسى فى ثلاثة أيام ،

١-الطالع السعيد ، ص٢٦ .

٢- المقريزى : الخطط . جـ٢ ص٤٢٦ .

٣- ابو صالح الأرمنى : تاريخه ، ورقة ١٠١ أ .

٤- ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ص٣٥ ؛ دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أسوان .

٥- السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ص١٦٥ .

غير أن هذا الطريق لم يكن مألوفا كالطريق البرى الذى يقطعه الحجاج إلى أيلة فى ستة أيام ، ولايمكننا تقدير الزمن الحقيقى الذى تستغرقه قوافل الحجاج ابتداء من مصر لاختلاف التقدير، وإن كان يتراوح بين خمسة وعشرين وبين أربعين يوما [١].

وقد تعطل هذا الطريق منذ قيام الحروب الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، مما أجبر الحجاج إلى التحول صوب الجنوب عند ثغر عيذاب ومنها بحراً إلى جدة . وكان الحجاج يفدون إلى عيذاب عن طريقين : أحدهما قوص ويتفرع إلى فرعين ، أحدهما يعرف بطريق «العبدين» ، ويعرف الآخر بطريق «دون» وهى قرية على شاطئ النيل ؛ أما الطريق الثانى فهو طريق مدينة أسوان [٢] . وظلت عيذاب طريقا للحجاج فى ذهابهم وعودتهم أكثر من مائتى سنة أى من أعوام بضع وأربعمائة وخمسين إلى أعوام بضع وستين وستمائة بعد الهجرة ، وكثر استخدامها منذ أيام الشدة العظمى فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧-٤٨٧هـ / ١٠٣٥-١٠٩٤م) حيث انقطع الحج براً [٣]. ويمتاز ميناء عيذاب بخلوه من الشعاب المرجانية التى تعوق الملاحة ، فضلا عن غزارة مائه [٤].

أما الطريق من أسوان إلى عيذاب ، فقطعه الرحالة ناصر خسرو [٥] فى ١٥ يوما وأمدنا بصورة وافية عنه ، فقال : «وبعد ثمانية فراسخ من رحلتنا بلغنا جهة تسمى «ضيقة» . وهى واد فى الصحراء ، على جانبيه حائطا من الجبال ... وبعد أن تركنا ضيقة ، سرنا خمسة أيام فى صحراء لا ماء فيها ... ثم بلغنا منزلاً يسمى الحوض» وهو جبل حجرى فيه عينان يتفجر منهما ماء عذب يستقر فى حفرة ، ولم يكن بد من أن يذهب رجل إلى حيث العينان ليحضر الماء لشرب الإبل ، التى مضى عليها سبعة أيام لم تشرب فيها ولم تأكل ، إذ أن علفها قد نفذ كله . وكانت تستريح مرة فى الأربع وعشرين ساعة ، وذلك من الوقت الذى تشتد فيه حرارة الشمس حتى صلاة العصر ، وتسير بقية الوقت ، والمنازل التى ينزلون بها

١- جاستون ڤييت : المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ، ص٤٩ .

٢- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص٥٩٧ .

٣- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٠٠ .

٤- حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص٢٣٤ .

٥- سفر نامة : ، ص٧٢ .

معلومة ، فليس يمكننا النزول فى أى مكان ، لتعذر وجود ما توقد به النار . أما فى هذه المنازل فانهم يجدون بعر الإبل ، فيتخذونه وقوداً يطبخون عليه ما تيسر ، وكأن الإبل تعلم أنها إن أبطأت ماتت عطشاء فهى تسير غير محتاجة لأن يسوقها أحد ، متجهة من تلقاء نفسها ناحية المشرق فى هذه الصحارى حيث لا أثر أو علامة تدل على الطريق ... وفى العشرين من ربيع الأول عام ٤٤٢هـ (٢ أغسطس ١٠٥٠م) بلغنا مدينة عيذاب ، ومن أسوان حتى عيذاب التى بلغناها خمسة عشر يوما مائتا فرسخ بالتحديد » .

أما ابن رسته [١]، فقد روى لنا أن المسافة التى تستغرقها قوافل الحجاج من أسوان إلى ساحل عيذاب تبلغ مسيرة أربعة عشر يوما ، فمن أسوان إلى العلاقى مسيرة عشرة أيام ، ومن العلاقى إلى عيذاب مسيرة أربعة أيام . وقد وصف لنا أبو شامة [٢] الطريق من عيذاب إلى أسوان بأنها « أشق من كل طريق سلكناها ومن كل مسافة قطعناها ، لأنا وردنا الماء فى إحدى عشرة ليلة مرتين ، وكانت الهمة قاصرة فى المراد ، فكانت البلوى عظيمة فى العطش ، فأما الحروق والوعور فهى تزيد على ما فى برية الشام بكونها طريقا بين جبلين كالدرب المتضايق والزقاق المتقارب ، وحر الشمس شديد » .

ورغم هذه الصعاب ، فإن قوافل الحجاج كانت تفضل طريق أسوان - عيذاب عن طريق قوص - عيذاب ، فمسافة الطريق الأول تستغرقها القوافل فى خمسة عشر أو أربعة عشر يوما ، أما مسافة الطريق الثانى فتستغرقها القوافل فى سبعة عشر يوما [٣]. هذا بالإضافة إلى أن طريق أسوان - عيذاب كان يخلو من الجبال المشتبكة التى فى طريق قوص - عيذاب ، ولعل من أجل هذا أطلق عليه طريق «الوضح» [٤] لسهولته ، فالإبل - كما مر بنا فى وصف ناصر خسرو - كانت تعرف طريقها نحو المشرق دون ما حاجة إلى دليل . وإذا قيل أن طريق أسوان - عيذاب كان محفوفا بالمتاعب ، فيجب أن لايغيب عن بالنا أنه لايختلف عن الطريق

١- الأعلاق النفيسة ، ص١٨٣ .

٢- الروضتين فى أخبار الدولتين ، جـ٢ ص١٤ .

٣- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٢٠١ .

٤- ابو الفدا : تقويم البلدان ، ص١٢١ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص٥٩٧ .

الصحراوى من أيلة إلى يثرب ، فبينما المسافة من أسوان إلى ساحل البحر الأحمر كانت لاتزيد عن خمسة عشر يوما ، كانت القوافل من الفسطاط إلى الحجاز تحتاج إلى زمن يصل إلى أربعين يوما ، ولاعبرة بالمسافة اللازمة للسفر من الفسطاط إلى أسوان ، فقد كان النيل خير سبل النقل وأقلها مشقة [١].

ولم يكن الطريق النيلى هو الطريق الوحيد الذى سلكه الحجيج من مصر إلى أسوان فى القرون الاسلامية الأولى ، وخاصة عندما تعطل طريق البر الشمالى ، بل استعمل الحجاج الطريق البرى الذى يربط بين مصر وأسوان ، ويتمثل ذلك الطريق فى الجسور التى على مجرى النيل من الجانبين [٢]. وقد استخدم ابن بطوطه [٣] الطريق البرى عندما عقد نيته على تأدية فريضة الحج ، إذ سافر من مصر حتى وصل إلى إدفو شمالى أسوان ، ومنها إلى عيذاب .

وكان الحاج الذى يسلك طريق عيذاب يؤدى ضريبة قدرها سبعة دنانير مصرية ونصف ، تدفع عند عيذاب أو جدة ، ومن لم يؤد تلك الضريبة منع من الحج ، وعذب ، وقد أبطل صلاح الدين الأيوبى تلك الضريبة فى عام ٥٧٢هـ (١١٧٦م) ، وعوض أمير مكة عنها بألفى دينار، وألف أردب قمح ، سوى إقطاعات بصعيد مصر وباليمن [٤] . ولابد أن هذا الإجراء الذى اتبعه صلاح الدين الأيوبى ، قد سهل على حجاج بيت الله الحرام تأدية فريضة الحج ، وخفف عن كاهلهم نفقات الرحلة الطويلة الشاقة التى ينفقونها فى سبيل الله .

وما زال طريق عيذاب طريقا للحج منذ القرن الأول للهجرة ، وصار الطريق الوحيد الذى سلكه الحجاج قرنين من الزمان من ٤٥٠هـ (١٠٥٢م) حتى ٦٦٦هـ (١٢٦٨م) ، عندما كسى السلطان الظاهر بيبرس الكعبة ، وعمل لها مفتاحًا ، ثم أرسل قوافل الحج براً ، وبذلك قل استخدام طريق عيذاب مسلكا للحجاج[٥] .

١- راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، ص٢٩١-٢٩٢ .

٢- البتنونى : الرحلة الحجازية ، ص٤١، محمد حمدى المناوى : نهر النيل فى المكتبة العربية ، ص٣٥ .

٣- مهذب رحلة ابن بطوطة ، جـ١ ص٣٦-٤٣ .

٤- المقريزى : السلوك ، جـ١ ص٦٤ .

٥- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص٢٠١ ؛ البتنونى : الرحلة الحجازية ، ص٤٤ .

أما عن التشيع فى أسوان ، فقد ذكر الإدفوى [1]: «ولما كانت البلاد للعبيديين (الفاطميين) غلب على أهلها التشيع ، وكان بها قديما أيضا ، وقد قل ذلك واضمحل» . ويثير انتباهنا على وجه التحديد قوله أن التشيع كان منتشراً فى أسوان قبل مجئ الفاطميين إلى مصر عام ٣٥٨هـ (٩٦٩م) . والحقيقة بخلاف ذلك ، فأسوان لم يكن التشيع بها سائداً فى القرون الإسلامية لمصر خلال عصر الولاة والدولة الطولونية والدولة الإخشيدية . فشواهد القبور العديدة التى عثر عليها فى الحفريات التى أقيمت بأسوان لم يوجد من بينها غير شاهد واحد لسيدة نستبين منه أنها كانت تعتنق المذهب الشيعى ، فقد جاء فى ذلك الشاهد ما يلى: « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمدلله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى علىّ خير الوصيين ، وعلى الأئمة من ذريتهم الطاهرين ، وارحم أسما بنت حسن بن محمد بن أحمد الطرانى ، توفيت فى مستهل جمادى الأولى عام ٤٢٠هـ ،مايو ١٠٢٩م) [2]» . فلو كان التشيع موجوداً فى أسوان قبل العصر الفاطمى ، لكنا عثرنا على شواهد قبور تدعم ذلك

١- الطالع السعيد ، ص٣٤ .

٢- حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

قام الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب مدير الآثار الاسلامية والقبطية بمصلحة الآثار المصرية (سابقا) بعمل حفريات فى جبانة أسوان . وقد أعطانا سيادته - مشافهة - فكرة شاملة عن حفريات جبانة أسوان : «تمتد مقبرة أسوان فى الصحراء شرق المدينة الحالية ، وهى تبدأ شمال حى القطانية ، ثم تمتد إلى جنوب هذا الحى فتستمر بطول جانبى الطريق الموصل إلى خزان أسوان حتى حوالى ٦٠٠ متر شمال المقبرة الإنجليزية ، وأقصى برة من الشمال إلى الجنوب هو حوالى ١٨٠٠ متر ، وأقصى عرض لها حوالى ٥٠٠ متر . وقد

الرأي . وربما قصد الأدفوى الأشراف العلويين الذين استوطنوا أسوان ، فقد كشفت الحفائر عن وجود أشراف علوية ، منهم زينب ابنة على بن عيسى بن عبد الله التى ينتهى نسبها إلى على بن أبى طالب ، والمتوفاة فى منتصف القرن الثالث الهجرى[١] ، ومنهم محمد بن اسماعيل بن القسم بن ابراهيم الذى ينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب ، والمتوفاة فى منتصف القرن الثالث الهجري[٢] ، ومنهم محمد بن اسماعيل بن القسم بن ابراهيم الذى ينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب والمتوفى فى ٦ شعبان عام ٣١٥ هـ(٩٢٧م)[٣] ، وابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن محمد الذى ينتهى نسبه إلى جعفر بن أبى طالب والمتوفى عام ٣٨٥هـ(٩٩٥م) . ومن الأشراف العلوية الذين اتخذوا من أسوان مقراً لهم ، آمنة بنت الحسين بن أحمد التى ينتهى نسبها إلى على بن أبى طالب والمتوفاة عام ٤٨٤هـ (١٠٩١م) [٤] ، والشريفة رقية ابنة معلا بن على بن الحسن بن ابراهيم التى ينتهى نسبها إلى على بن أبى طالب والمتوفاة عام ٤٩٥هـ (١١٠١م)[٥] ، وكذلك الشريف أبو الحسن محمد بن حيدرة الذي ينتهى نسبه إلى على بن أبى طالب والمتوفى عام ٥٣٢هـ (١١٣٧)[٦] . وإذا كانت تلك الشواهد التى ينتمى أصحابها إلى الأشراف والتى كشفت عنها حفائر أسوان ، فان الأدفوى[٧] يقول عن الأشراف فى أسوان : «وأخبرنى من وقف على مكتوب فيه أربعون شريفا خاصة ، وأن مكتوبا آخر فيه سبعون شريفا دون غيرهم ، ووقفت أنا على مكتوب فيه قريب من أربعين ، وفيه جمع كبير من بيت واحد مؤرخ بما بعد العشرين وستمائة» .

= يضعها مونريت على خريطته ، وقد عثر الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٦٠ على هذه المقبرة بشاهدها وعلى ثلاث مقابر أخرى مؤرخة أثناء دراسته النهائية للجبانة قبل بدء الحفائر التى أجراها من ديسمبر ١٩٦٠ إلى منتصف ١٩٦٣ ، وهى الحفائر التى لم يجر قبلها حفائر إسلامية فى جبانة أسوان ، وقد أنفق على هذه الحفائر محافظة أسوان ومصلحة الآثار .

1- Wiet , Catalogue general du Musse Arabe du Caire . Stele Fu neraires , vol . VIII , p. 42 .

2- Ibid ., Vol . p . 180 .

3- Ibid ., Vol . VI , p. 3 .

4- Ibid ., Vol . VI , p. 172 .

5- Ibid ., Vol .VI ,p . 177 .

6- Ibid ., Vol . VI p. 190 .

٧- الطالع السعيد ، ص٢٩ - ٣٠ .

ولو فرض أن أسوان كان يوجد بها شيعة قبل العصر الفاطمى ، فإنها فى ذلك مثل بقية المدن المصرية التى كان بها شيعة ، ففى الحقيقة أننا لانستطيع القول أن المصريين شغلتهم الآراء الشيعية التى شغلت العراق وفارس ، وكذلك فانهم لم يعتنقوا مذهبا شيعيا كغيرهم من فرق الشيعة الأخرى ، ولم يتخذوا التشيع طريقا للعبادة العملية كما فعل غيرهم ، وإنما كان هواهم مع على بن ابى طالب وأهل بيته ولكنهم لم يجاهروا كما جاهر الشيعة فى الأقطار الأخرى ، ولم يفلسفوا عقيدتهم ، بل اكتفوا بالقول بتفضيل على ، وحرصوا على حبهم لأهل البيت يكرمون الأحياء ، ويتبركون بالأموات ، حتى دخل القائد الفاطمى جوهر الصقلى مصر[١].

وعندما جاء الفاطميون إلى مصر فى عام ٣٥٨هـ (٩٦٩م) ، واتخذوها مقراً لدولتهم ، جاءوا معهم بالمذهب الشيعى المخالف لمذهب السنة الذى يعتقده أهل مصر . وعملوا على انتشار مذهبهم عن طريق عدد من الدعاة انبثوا بين الناس ، وما زالوا بهم حتى أقبل على دعوتهم عدد كبير ، واعتنقوا المذهب الشيعى رغبة أو رهبة . غير أن ذلك الانتشار لم يكن له أثر مالك والشافعى ، وقل أن نجد بينهم من كان على مذهب أبى حنيفة أو من يقول بمقالات المعتزلة أو الشيعة[٢]. وفى تصورنا أن التشيع الذى انتشر فى مصر إبان عهد الدولة الفاطمية اتخذ صفة سياسية ، ولم يتغلغل فى عقيدة المصريين . ومما يؤيد ذلك أن الدولة الفاطمية عندما دالت ، وحلت محلها الدولة الأيوبية السنية ،.عملت الأخيرة على محاربة التشيع بنفس الأسلوب الذى استخدمه الفاطميون عن طريق فتح المدارس السنية فى مدن مصر، وتشجيع حركة التصوف [٣]. وإذا كان أهل أسوان قد اعتنقوا المذهب الشيعى خلال الحكم الفاطمى كما ذكر الأدفوى ، فانه من الأولى أن تعتنق قبيلة بنى الكنز ذلك المذهب ، لما يربطها من مصالح مع الدولة الفاطمية فى عصرها الأول ، خاصة فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله . ولكن تلك القبيلة لم تكن متشيعة ، بدليل أن شواهد القبور التى عثر عليها لبنى الكنز لانستخلص من نقوشها أنهم كانوا يعتنقون مذهب الشيعة فى حياتهم. فقد جاء على شواهد

١- محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص١٧-١٨ ؛ التشيع فى الشعر المصرى ، ص٥٧ .

٢- محمد كامل حسين : التشيع فى الشعر المصرى ، ص٥٨ .

٣- المرجع السابق ، ص٨٧ .

قبورهم بعد البسملة ، جملة نصها : «اللهم صلى على محمد النبى وآله الطاهرين» . وهذه الجملة كتبت على غالبية شواهد القبور ابتداء من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، أى قبل مجئ الفاطميين إلى مصر - - سنة ٣٥٨هـ (٩٦٨م) بأكثر من نصف قرن . هذا فى حين أن شواهد القبور التى ينتمى زصحابها إلى المذهب الشيعى ، نقش عليها بعد البسملة ، جملة نصها : « اللهم صلى على محمد خاتم النبيين ، وعلى علىّ خير الوصيين ، وعلى الأئمة من ذريتهم الطاهرين » . كما أن أبيات الشعر القليلة التى قالها شعراء أسوان فى مدح بنى الكنز لانستشف منها أنهم كانوا على المذهب الشيعى . وبالإضافة إلى ذلك ، فان الأدفوى فى كتابه الطالع السعيد[١] أورد لنا أكثر من ثمانين ترجمة شخصية ينتمى أصحابها إلى أسوان، لم نلحظ فيها من كانت عقيدته المذهب الشيعى .

على أية حال فان زوال الدولة الفاطمية أعقبه ضعف التشيع فى مصر ، ويشير المقريزى إلى أن منذ تولى صلاح الدين أمور مصر عام ٥٦٧هـ (١١٧١م) اختفى مذهب الشيعة والإسماعيلية والإمامية حتى فقد من أرض مصر كلها [٢]. وتدل النهاية السريعة للمذهب الشيعى فى مصر على أنه لم يتغلغل فى عقيدة المصريين ، فضلا عن أنهم لم يتحمسوا له .

(جـ) الحياة الأدبية :

ازدهرت الحياة الأدبية فى أسوان ازدهاراً قلما نراه فى إحدى مدن مصر زمن العصور الوسطى . هذا وإن كان الشعر قد نشط فى أسوان ، وحاز مكانة أعظم من النثر ، وبرز من أسوان شعراء موهوبون أضافوا إلى مكتبة الأدب فى مصر العصور الوسطى شيئا جديداً ، إذ خاضوا فنون الشعر العديدة ، وأعطونا أبعاداً شاملة عن معانيه الواسعة . وسنرى فى دراستنا كيف أن الشعر فى أسوان خطا خطوات واسعة .

ومن الملاحظ أن بعض العائلات فى أسوان ، قد نبغ العديد من أفرادها فى نظم الشعر ، ومن أمثلة ذلك بنو عرام ، فمن شعراء بنى عرام الشاعر على بن أحمد بن عرام الأسوانى (توفى فى حدود عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م) تخطت شهرته أسوان ، ووصلت إلى مصر ، فسأل

١- أماكن متفرقة .

٢- المقريزى : الخطط ، جـ٢ ص٣٤٢ .

عنه العماد الأصفهاني عام ٥٧٣هـ (١١٧٧م) وطلب شعره ، فأحضر له بعض أصدقائه من أسوان ديوانه ، فلما قرأه العماد قال عنه : «فوجدته حاكيا في سماء السحر كيوانه ، فجمعت شارد حسنه وغبطت عليه أسوانه ، وجلوت بكر نظمه وعوانه ، ، ووضعت لمأدبة أهل الأدب من إخوانه خوانه»[1] . ويعزى للعماد الفضل في حفظ شعر ذلك الشاعر ، فلولا ما أورده لنا من مختارات شعره في الغزل والهجاء والرثاء والحكمة لضاع تراثه ، وله من شعر الغزل[2] :

كم ليال نعمتُ فيها بخود　　فاقت البدرَ في السنا والسناء
ذات جيدٍ كالريم حلاه عِقْدُ　　حَلَّ فيه بحلِّ عَقْدِ عزائــــي
وترشفتُ من رُضــاب برودٍ　　فاق طعم السُّلافة الصهباء

وقوله أيضا[3]:

كم قـد تعـبَّـرتُ عنه　　فـمـا أطقتُ سُلُــــوَّهْ
أرى الصـــلاح لقلبي　　إذا نظرت دنـــــوه

ومثل[4]:

ألا من مبلغٌ سُعَدى بأني　　ظمئتُ إلى مراشفها العذابِ
وأني والمهيمن مذتناءت　　من الشوق المبرح في عذاب

وله تهنئة بمولود [5]:

قد أطلع الله لنا كوكبـــا　　أضاء شرق الأرض والمغربا
قادمُ سَعْدٍ يقتضي سعـــده　　سعادة الوالـد إذْ أنجبـــا
والأصل إن طاب ثرى غَرسْه　　انبت فرعا مثمراً طيبـــا

١- العماد الأصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، جـ٢ ص١٦٥ ؛ الطالع السعيد ، ص٣٧١ .

٢- العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، جـ٢ ص١٦٦ الطالع السعيد ، ص٣٧٢ .

٣-العماد الأصفهاني : خريدة القصر ، جـ٢ ص١٦٦ .

٤- الطالع السعيد ، ص٣٧٢ .

٥- العماد الاصفهاني : خريدة القصر ، جـ٢ ص١٦٧ ؛ الطالع السعيد ، ص٣٧٣ .

ولعلى بن عرام الأسوانى فى المدح شعر كثير ، فقد مدح بنى الكنز فى أسوان وغيرهم من الشخصيات ، ولكن الشعر الذى قيل فى مدح بنى الكنز لم يذكره لنا العماد الأصفهانى فى الخريدة ، وربما يرجع سبب إهماله ذلك الشعر لما أظهره بنو الكنز من عداء لصلاح الدين الأيوبى عندما قامت الدولة الأيوبية فى مصر ، إذ من المعروف أن العماد الأصفهانى كان فى خدمة صلاح الدين الأيوبى ومن المقربين إليه . وقد بدأ الشاعر قصيدته بأبيات فى الغزل ، ثم أورد لنا أبياتا يصف فيها بستانا وبركة وسواقى ، نستشف منها ما يبذله كنز الدولة بن المتوج من عطاء للشعراء ، وهى[١] :

كأن خرير الماء فى جنباتـــه　　　أنين لمهجور يحن إلى وصـــل

جداوله تجرى عيونا كأنهـــا　　　تصول سيوف لامعات من الصقل

وقد غردت أطياره فكأنهـــا　　　قيان تطارحن الغناء على مهـل

تصب على فسقية ذوب فضـة　　　تفيض كما فاضت يمينك بالبـذل

وله من قصيدة يمدح فيها مبارك بن منقذ ، وهو من شخصيات العصر الفاطمى [٢].

فديتك فاشرب من مديحى قهوة　　　تلذُّ لذى سمع ونشوان شـارب

علىَّ امتداحى للكرام مناصبـا　　　فذلك أحلى من غناء الجنائـب

وفى قصيدة أخرى طويلة يمدحه بها ، نذكر منها[٣] :

يقول له من جاء يطلب رفده　　　ولمجدته أنعش بالندى وتدارك

ويشركه فى ماله كل قاصـد　　　ولكنه فى المجد غير مشارك

وعندما قامت الدولة الأيوبية فى مصر عام ٥٦٧هـ (١١٧١م) ، مدح الشاعر أصحابها ، من ذلك تظم قصيدة مدح فيها شمس الدولة توران شاه ، فى الوقت الذى اهتم فيها بمدح صلاح الدين الأيوبى . ومن تلك القصيدة قوله [٤]:

١- الطالع السعيد ، ص٣٧٧-٣٧٩ .　　٢- العماد الاصفهانى : خريدة القصر ، جـ٢ ص١٦٨-١٦٩

٣- الطالع السعيد ، ص٣٨٠ .　　٤- العماد الاصفهانى: خريدة القصر ، جـ٢ ص١٦٩-١٧١ .

وما المُلك إلا لائقٌ بأخيكـــــم وغاربُهُ إلا له غير مركـــــوب
فأنتم نجومٌ وهو كالشمس ضوءها مَلِيٌّ بتشريــق يعــمُّ وتغـــريب
أيوسفَ مصر إنما أنت يوســـف فأنت ابن زيوب وذاك ابن يعقوب
وما برحتْ مصر قديما حُماتُها بيعث من القُطر الشآمي مجلوب

وله في قصيدة يمدح فيها الملك العادل سيف الدين أبي بكر الأيوبي أخا صلاح الدين يوسف بن أيوب ، عندما انتصر على كنز الدولة وقتله(١) :

فأين ينجـــو هائـــبٌ هـــارب من نكبة شنعاء ذات اجتياحْ
أنىٌ وظهـــر الأرض مع بطنهـــا لناصر الإسلام في بطن راح

وقال يمدح عز الدين موسك الناصر والي قوص وأسوان في العصر الأيوبي(٢):

بلغت لسعد الجد أسنى مراتـــب فناج إذا ما شئت زهر الكواكب
نزعت إلى جرثومة من خئـولة نمتك وأعـمـام كـرام المناصب
إذا وعدوا أوفوا وإن أوعدوا عفوا وإن سئلوا أعطوا جزيل المواهب

ونظم الشاعر قصائد في الهجو ، ففي إحداها يقول (٣):

عناصــر الانســان من أربع وخـالد عنصـره واحــد
فـمن كثيف الأرض تكوينه فـهو ثقيل يابس بــارد

وفي قصيدة أخرى يقول(٤) :

شـاعـرنا ذو لحيـة قـد عـرضتْ وانفـسـحتْ
لحيـة تيس صلحت لقَـشْـحـة قـد سَلَحـت

١- المصدر السابق، جـ٢ ص١٧٣-١٧٥ .

٢- المصدر السابق، جـ٢ ص١٦٧؛ الطالع السعيد،ص٣٨١.

٣- الطالع السعيد ، ص٣٨٠ .

٤- العماد الاصفهاني : خريدة القصر ، جـ٢ ص١٧٢ ؛ الطالع السعيد ، ص٣٨٠ .

كما نظم الشاعر أبياتا للرثاء ، فمن قصيدة له يرثى فيها ابن عمه هبة الله بن على بن عرام الأسوانى المتوفى عام ٥٥٠هـ (١١٥٥م) [١]:

من لسود الخطوب غيرك يجلـــو ‏ ‏ ‏ ‏ ها وقد غـاب منك بدر منيـــر

من يحوك القريض مثلك يســـد ‏ ‏ ‏ ‏ به على خبـرة به وينيـــــر

ليس فى العيش بعد فقدك خيـر ‏ ‏ ‏ ‏ حبذا وافد الردى لايـزور

كما قدم الشاعر لنا أيضا قصائد فى الحكمة ، ففى إحداها يقول[٢] :

من لم يمت فى يومـه مـات غـده ‏ ‏ ‏ ‏ لابد من منهلـــه أن يـــرده

من يتخـذ العلم خدينا عـضّده ‏ ‏ ‏ ‏ وحـاطـــه فى دينـه وأيـــده

فـأنس بـه تُكفْ شـرور الحسـدة ‏ ‏ ‏ ‏ وبن من الناس وكن على حـده

وفى قصيدة أخرى يقول[٣] :

ومـا المرء إلا من وقى الذمّ عِرضـه ‏ ‏ ‏ ‏ وعـزٌ فـلا ذام لديـه ولاغـــش

وليس بمن يرضى الدنـاءة والخنـا ‏ ‏ ‏ ‏ طَباعا ولا من دأبه الهُجْر والفُحْش

ويبدو أن إقامة الشاعر بأسوان ضاقت بها أحلامه ، وقد عبر عن تبرمه وضيقه بها ، وتاقت نفسه لعاصمة البلاد ، حيث المجتمع الأوسع ، والحياة أكثر لينا ، والفرص فى متناول يده ، فمن قصيده له يقول فيها [٤]:

ومـا الحظ منقوص بقوص وإنهـا ‏ ‏ ‏ ‏ أجل محـط للغـــريب وللسفـر

وأسنى بلاد الله إسنـا لسـاكـن ‏ ‏ ‏ ‏ وخيـر من الكل الرحيـل إلى مصـر

فلست على أسوان أسـوان بعدها ‏ ‏ ‏ ‏ ومـا أنا مـجرد ذكرها لى على فِكر

١- الطالع السعيد ، ص٣٧٤-٣٧٥ .

٢- العماد الأصفهانى : خريدة القصر ، جـ٢ ص١٧٥ .

٣- المصدر السابق ، جـ٢ ص١٧٧ .

٤- المصدر السابق ، جـ٢ ص١٧٦ .

وفى قصيدة أخرى يمدح بها الأمير مبارك بن منقذ ، جاء بها بيت ينم عن ضيقه بأسوان ، وأن لا خير يرجى من بقائه فيها(١):

وفى غـيـر أسـوان مـرادٌ ومـذهبٌ   فـلا تجـعلى شـر النواحى قـرارك

فخير بلاد الله ما صان من أذى   وأضحى محلا للأمير مبارك

وعجل الشاعر برغبته فى الرحيل عن أسوان ، لأمر ماكره البقاء من أجله فى تلك المدينة، ويبدو أنه تعرض للأذى من بعض قوم فى أسوان ، إذ يقول فى قصيدة له شاكيا(٢) :

لاتطيلى على الرحيل ملامـى   فلأمر إمْرٍ كرهت مُقامى

أى خير فى بلدة يستـوى ذوى   النقص فيها بفاضل الأقوام

إن في الأرض غير أسوان فاهرب   من أذاهـم إلى الشـام

فالرحيل الرحيل عنهم سريعـا   فهم من لئام هذا الأنـام

ومن بنى عرام نبغ الشاعر هبة الله بن على بن عرام الأسوانى (ت ٥٥٠ /هـ١١٥٥م) ، وهو ابن عم الشاعر على بن أحمد بن عرام الأسوانى . كان له ديوان شعر نقحه بنفسه ، ووفى قوافيه على ترتيب الحروف الأبجدية ، وقد تمكن العماد الأصفهانى من الحصول على ديوانه ، فقال عنه : «وقلدت الخريدة منه كل قلادة ، تزين كل غادة ، وأوردت فى الجريدة من شعره ما يشعر بافادة وإجادة » . كما جاء فى الخريدة أن هبة الله « كان أشعر من ابن عمه» على بن أحمد بن عرام الأسوانى(٣). وبالرغم أن هبة الله كان من أسوان ، إلا أن غزله كان متأثرا بالحياة الناعمة التى عرفت بها مصر ، ولاسيما أنه وفد على القاهرة ، ومدح بها الوزير الفاطمى رضوان بن الولخشى (٥٣١هـ/ ١١٣٧-١١٣٩م) وغيره من رجال الدولة الفاطمية ، فأسهم مع غيره من شعراء مصر فى التغزل فى الأوزان السهلة الخفيفة والألفاظ والصور الشعبية ، فهو يقول(٤) :

١- العماد الأصفهانى : خريدة القصر ، جـ٢ ص١٨٠ الطالع السعيد ، ص٣٨٠ .

٢- خريدة القصر ، جـ٢ ص١٨٣-١٨٤ .

٣- المصدر السابق ، جـ٢ ص١٨٦ ؛ الطالع السعيد ، ص٧٠١ .

٤- محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص٢٧٥ .

من معينى على اقتناص غزال | نافر عن حبائلى رواغ
قلبه قسوة كجلمود صخر | خده رقة كزهر الباغ
كلما رمت أن أقبل فاه | لدغتنى عقارب الأصداغ

وقوله أيضا(١) :

لدغتنى عقارب الصدغ منه | فسلوه من ريقه درياقا
إننى عاشق له ، وهو مذكان | ظلوم لايرحم العشاقا

وله أيضا فى الغزل(٢) :

يا لائمى فى غزال | قلبى رهين يديه
لاتطمعن فى سلوى | فلا سبيل إليه
كم لامنى فيه قوم | وعنفونى عليه
حتى إذا أبصروه | خروا سجوداً لديه
فاحفظ فؤادك فالموت | فى ظبا مقلتيه

وفى فن المدح نظم الشاعر عدة قصائد يمدح بها الوزير رضوان الولخشى ، إذ كان من خواصه وجلسائه (٣). وحدث أن كان رضوان والى الغربية ، فاستنجد به أهل القاهرة ضد الوزير النصرانى بهرام الأرمنى ، فخرج رضوان على رأس قواته ، وتمكن من إيقاع الهزيمة ببهرام عام ٥٣١هـ (١١٣٧م) وطرده من القاهرة ، وحل محله فى الوزارة ، فمدحه الشاعر بقصيدة قال فيها(٤) :

لا زلت غيثا للعفاة مريعا | أبدا وليثا للعداة مريعا
بل أصبح الإسلام طلقا ضاحكا | والعيش غضا والزمان مريعا
يا فارس القلم الذى بهر الورى | نظما ونثرا كيف شاء بديعا
أظهرت دين الله بعد خموده | وحفظت ما قدم كان منه أضيعا

١- نفس المرجع والمكان .
٢- العماد الأصفهانى : خريدة القصر ، جـ٢ ص١٩٥ .
٣- ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ١٩ ص٢٨٤ .
٤- الطالع السعيد ، ص٧٠٤-٧٠٥ .

وقال أيضا فى المدح[١] :

لوزرتُهُ فى اليوم ما زرتُهُ　　أوسنى جوداً وأسْدَى يدا
كأنه أقسم أن لايرى　　شخصى إلا جاد لى بالندى

وله فى الحكمة [٢]:

نميل مع الأميال وهى غُرُورُ　　ونصغى لدعواها وذلك زورُ
وتخدعنا الدنيا القليلُ متاعُها　　وللموت فينا واعظٌ ونذير
ونزداد فيها كلَّ يوم تنافسا　　وحرصًا عليها والمتاعُ حقير
ويطمع كلٌّ أن يؤخر يومه　　وللموت منّا أول وأخير

وله أيضا فى الحكمه[٣] :

إذا حصل القوتُ فاقنع به　　فإن القناعة للمرء كنز
وصنْ ماء وجهك عن بذله　　فإن الصيانة للوجه عز

وله فى الهجاء أبيات كثيرة ، منها قوله[٤] :

فلو كان ممن يساوى الهجاء　　إذن لهجوتُ وداخلتُهُ فى
قد يحيى وهجوى كفيلان لى　　برفع الوضيع ووضع الشريف

وقوله أيضا [٥]:

يا من دعوه الرئيس لاعن　　حقيقة بل عن مجاز
لست أكافيك على قبيح　　منك بهجو ولا أجازى
وما عسى تبلغ الأهاجى　　من رجل كله مخازى

١- خريدة القصر ، جـ٢ ص١٨٩ .　　٢- خريدة القصر ، جـ٢ ص١٨٩ .

٣- ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ١٩ ص٢٨٥ .

٤- خريدة القصر ، جـ٢ ص١٩٠ ؛ الطالع السعيد ، ص٧٣ .

٥- الطالع السعيد ، ص٧٠٣ .

وله فى الرثاء[١] :

ليبك بنو الآداب طرًا أديبُهم   وفارسهم فى حلْبة النظم والنثر

ولايطعموا من دهره بنظيره   فهيهات أن يأتى بمثل أبى الغمر

وكان لهبة الله ابن شاعراً يدعى أبو الحسين ، توفى شابا بالقاهرة عام ٥٧٠هـ (١١٧٤م) ، وقد ذكر العماد الأصفهانى ترجمة شخصية شديدة الإيجاز لأبى الحسين فى الخريدة[٢] عندما استعرض شعراء أسوان ، إلا أنه لم يذكر أى شئ عن شعره ، ولم يورد لنا أى نماذج منه .

ومن شعراء تلك الأسرة ، الشاعر عيسى بن أحمد بن الحسين بن عرام الأسوانى ، مدح سراج الدين جعفر بن حسان الإسنائي أحد أعيان مدينة إسنا المتوفى عام ٦١٠هـ (١٢١٣م)[٣] ومن قصيدته التى يمدحه فيها [٤]:

صل المعنَّى بلا قَطل فإن له   دمعا تبيَّن منه كل مكنون

ومهجة حرُّها لاينطفئ أبدا   كأنما خلقت من نار سِّجين

ومن شعراء بنى عرام فى أسوان ، الشاعر عيسى بن أحمد بن الحسين بن عرام الأسوانى ، وصفه الأدفوى[٥] بأنه « أديب شاعر» ، ولم يذكر لنا شيئا من شعره سوى أبيات قليلة فى المدح منها :

يا قلب إن الدهر أحسن مرة   فأحلنى منكم بأعذب مورد

وتحققت نفسى الحياة بقربكم   إذ كنت قبل إلى لقائكم صدى

وظفرت منكم بالذى أملته   وتمسكت بعزيمة منكم يدى

وقد أنبجت أسوان شاعرين أخوين عظيمين ، هما الحسن بن على بن ابراهيم الأسوانى المعروف بالقاضى المهذب المتوفى عام ٥٦١هـ (١١٦٥م) ، وأحمد بن على ابراهيم الأسوانى المعروف بالرشيد المتوفى عام ٥٦٣هـ (١١٦٧م) ، والشاعران العظيمان بلغا مرتبة فى الأدب

١- خريدة القصر ، جـ٢ ص١٩٠ .

٢- خريدة القصر ، جـ٢ ص١٩٥ .

٣- الطالع السعيد ، ص٧٩ ، ١٧٨ .

٤- الطالع السعيد ، ص٨٠

٥- الطالع السعيد ، ص٤٦٠-٤٦١ .

فى العصر الفاطمى لم يصل إليها غيرهما ، وربما يرجع الفضل فى ما وصل إليه الشاعران من مكانة سامية فى الأدب إلى نشأتهما . فوالدهما على بن ابراهيم بن الزبير الأسوانى (ت٥٢٥هـ/ ١١٣٠م) ، «كان فاضلا شاعراً رئيسا ، وحدث بشئ من شعره»[١] .

أما القاضى المهذب ، فقد رحل من أسوان إلى القاهرة ، وجالس الوزراء والأمراء الفاطميين، وقدمه القاضى عبد العزيز بن الحباب المعروف بالجليس إلى الوزير الفاطمى طلائع بن رزيك (٥٤٩-٥٥٦هـ / ١١٥٤-١١٦١م) فنال الحظوة عنده ، وحصل له منه الأموال الوفيرة التى لم ينل مثلها أحد غيره[٢] . ثم أوفد القاضى المهذب فى سفارة إلى اليمن ، وهناك استطاع أن يطلع على كتب الأنساب ، فاستوعبها استيعابا جيدا ، وجمع منها مالم يجتمع عند أحد غيره ، وهناك أيضا تمكن من تصنيف كتاب كبير فى الأنساب ، جعله فى عشرين مجلداً سماه «كتاب الأنساب» [٣]. وقد أتيحت لياقوت الحموى[٤] فرصة الاطلاع على بعض أجزاء ذلك الكتاب فوصفه قائلا: «فوجدته مع تحققى هذا العلم وبحثى عن كتبه غاية فى معناه لامزيد عليه ، يدل على جودة قريحة مؤلفه ، وكثرة اطلاعه ، إلا أنه حذا فيه حذو أحمد بن يحيى ابن جابر البلاذرى ، وأوجز فى بعض أخباره عن البلاذرى ، إلا أنه إذا ذكر رجلا ممن يقتضى الكتاب ذكره لايتركه حتى يعرفه بجهده من إيراد شئ من شعره وخبره» . وبذلك جمع المهذب بين العلم والشعر .

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيك يجيد نظم الشعر ، إلا زنه كان يعرض شعره على المهذب لإصلاحه وتقويمه قبل عرضه على الناس[٥] . ويقال : «إن أكثر الشعر الذى فى ديوان الصالح ، إنما هو من شعر المهذب»[٦] . ويصف العماد الأصفهانى[٧] شعر المهذب قائلا : «محكم الشعر كالبناء المشيد ، وهو أشعر من أخيه ، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه ، ...

١- الطالع السعيد ، ص٣٦٤ .

٢- ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ٩ ص٤٧ .

٣- المصدر السابق ، جـ٩ ص٤٩ .

٤- محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص٢٠٤ .

٥- ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ص٣١٣ -٣١٤؛ جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص٢٣٨ .

٦- ابن شاكر الكبتى : فوات الوفيات ، جـ١ ص٢٤٣-٢٤٤ .

٧- خريدة القصر ، جـ٢ ص٢٠٤ .

لم يكن فى زمانه أشعر منه أحد وله شعر كثير ، ومحل فى الفضل أثير» . والمهذب إلى جانب شعره كان عف اللسان محترم لنفسه ، متجنبا بذلك هجاء زملائه من الشعراء ، وهو يعتبر من فحول شعراء العربية ، وليس من المبالغة فى شئ إذا قلنا أن مصر الإسلامية منذ دخلها العرب ، ومنذ عرفت الشعر العربى ، لم تنجب شاعراً له مثل شاعرية المهذب وقوة شعره وحسن ديباجته ، وقد أعاد المهذب بشعره إلى الأذهان ذكرى الشعر العربى الرصين وإشراق ديباجته، فلم يخدعه بهرج اللفظ، ولم يسرف فى المحسنات البديعية [١]. ومن قصائده نستدل منها على أن فن الشاعر قريب من فحول شعراء الأيوبيين والعباسيين ، كما أنها توضح لنا مدى ما لشعره من جزالة وفخامة لانجد لها مثيلا بين شعراء مصر الفاطمية[٢]، وربما يرجع ذلك إلى بيئته أسوان التى نشأ فيها المهذب ، فهى بيئة أكثر محافظة من بيئة القاهرة أو الفسطاط ، وهى إلى البداوة أقرب ، لبعدها عن بقية بلاد مصر ولبيئتها الجغرافية التى جعلت منها بلد يتميز بجو خاص ، فتربتها خليط من أقسام صحراوية وأخرى صخرية وثالثة خصبة ، فالذين يعيشون فى هذا البلد أو ينشأون فيه يمتازون بأنهم أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضر ، فلعل هذا هو السبب فى أن نرى شعر المهذب وأيضا شعر أخيه الرشيد رصينا جزلا لانجد فيه طراوة شعر أهل القاهرة والفسطاط ، ولانعومة شعراء العصر الفاطمى[٣] . ومن قصائده التى تدل على قوة شعره وجزالته ، قصيدته التى أرسلها إلى داعى اليمن عندما قبض على أخيه الرشيد، يمدحه ويستعطفه حتى أطلق سراحه ، ففيها يقول [٤]:

يا ربع أين ترى الأحبة يمموا ... هل أنجدوا من بعدنا أم أتهموا [٥]؟
رحلوا وقد لاح الصباح وإنما ... يسرى إذا جن الظلام الأنجم
وتعوضت بالأنس روحى وحشة ... لا أوحش الله المنازل منهم
لولاهم ما قمت بين ديارهم ... حيران أستاف الديار وألثم
أمنازل الأحباب أين هم وأين ... الصبر من بعد التفرق عنهم ؟

١- محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص٢٠٤-٢٠٥ .

٢- المرجع السابق ، ص٢٠٥-٢٠٨ . ٣- المرجع السابق ، ص٢٠٨ .

٤- ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ٩ ص٤٩-٥٠ ابن شاكر : فوات الوفيات ، جـ١ ص٢٤٦ .

٥- أنجدوا : ساروا إلى نجد ، اتهموا : ساروا إلى تهامة .

وحدث أن اتصل الرشيد شقيق المهذب بصلاح الدين الأيوبى بالاسكندرية خلال الحصار الذى فرضه عليها الوزير الفاطمى شاور والصليبيون فى عام ٥٦٢هـ (١١٦٧م) . فقبض شاور - ظلما - على المهذب وحبسه ، فكتب المهذب شعراً كثيرا ليستعطفه ، ولكنه فشل فى ذلك، فالتجأ إلى ابنه الكامل ، ومدحه وهو فى الحبس بأشعار كثيرة ، حتى أخرجه من حبسه واصطنعه ، فمن ذلك قوله من قصيدة(١) :

أيا صاحبَىّ سجن الخزانة خليـــا نسيم الصبا يرسل إلى كبِدى نفحا

فـان تحبسا فى النجوم تجبُّراً فلن تحبسا منى له الشكر والمدحا

ومما قاله فى الكامل بن شاور أيضا (٢):

إذا أحرقت فى القلب موضع سكناها فمن ذا الذى من بعد يكرم مثواها؟

وإن نزفتْ ماءَ العيون بهجرهـــــا فمن أى عين تأمل العيش سقياها؟

ومنها(٣) :

ولو لم يجد يوم الندى فى يمينه لسائله غير الشبيبة أعطاها

فيا ملك الدنيا وسائس أهلها سياسة من قاسى الأمور وقاساها

ومن كلّف الأيام ضد طباعها فعاين أهوال الخطوب فعاناهـــا

عسى نظرةٌ تجلو بقلبى وناظرى صداه فإنى دائمـــا أتصداهـــا

وقال فى الخليفة الفاطمى العاضد من أبيات (٤):

وإن أمـــيـــر المؤمنين وذكـــره قـــرينان للآى المنَّزل فى الذكـــر

لقول رسول الله : تلقون عترتى معا وكتاب الله فى مورد الحشر

إذا ما أقام العصر لاح لناظـــر فوالعصر إن الجاحدين لفى خسر !

ومن شعره أيضا من قصيدة ، مدح بها الصالح طلائع بن رزيك أولها(٥) :

١- معجم الأدباء ، جـ٩ ص٥٨-٦٠ . ٢- معجم الأدباء ، جـ٩ ص٦١ .

٣- معجم الأدباء ، جـ٩ ص٦٣ . ٤- المقريزى : المقفى ، جـ٣ ص٣٤٧ .

٥- معجم الأدباء، جـ٩ ص٦٧-٦٨؛ الطالع السعيد، ص١٩٥؛ ابن شاكر:فوات الوفيات، جـ١ ص٢٤٤ .

أقْصِرْ فديتُك عن لومى وعن عَذْلى   أولا فخذلى أمانا من ظُبا المقُلِ
من كل طرْفٍ مريض الجفن ينشدنى   (ياربَّ رام بنجد من بنى ثُعَل)
إن كان فيه لنا وهو السقيم شفا   (فربما صحت الأجسام بالعلل)

ومن الملاحظ أن الشاعر ضمن فى البيت الثانى إشارة امرئ القيس إلى بنى ثعل (مشهورون بجودة الرمى) ، ويقول امرئ القيس[1]:

رب رام من بنى ثعل   فخرج كفيه من ستره

كما ضمن المهذب فى البيت الثالث عجز بيت للمتنبى من قوله[2] :

لعل عتبك محمود عواقبه   فربما صحت الأجسام بالعلل

ومن قوله يرثى صديقا له ، تصادف وقوع المطر يوم موته[3] :

بنفسى من أبْكَى السموات   فقدُه بغيث ظنناه نوال عينيه
فما استعيرتْ إلا أسى وتأسفا   وإلا فماذا القطر فى غير حينه

وله فى فى الغزل[4] :

يعنفنى من لوتحقق ما الهوى   لكان إلى من قد هويت رسولى
بنفسى بدر لو رآه عواذلى   على الحب فيه فاد كلُّ عذول

وله فى الغزل أيضا[5] :

يظل جنى العُناب فى صحن خده   عن الورد ماءِ النرجس الغض يمسح

وقال[6] :

أحبابنا ما بالكم   فينا من الأعداء أعدى؟
وحياة ودكم وحرمة   وصلكم ما خنت عهدا

١- محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص٢٠٨ .   ٢- نفس المرجع والمكان .
٣- معجم الأدباء ، جـ٩ ص٦٨-٦٩ .   ٤- المصدر السابق ، جـ٩ ص٦٦-٦٧ .
٥- العماد الأصفهانى : خريدة القصر ، جـ٢ ص٢٠٤ .   ٦- المقريزى : المقفى ، جـ٣ ص٣٤٧ .

وقد مدح المهذب بنى الكنز فى أسوان ، ومن قوله فيهم[1] :

وينجده إن خانه الدهر أوسطا   أناس إذا ما أنجد الدهر أتهموا
أجاروا فما تحت الكواكب خائف   أجازوا فما فوق البسيطة معدم
لئن جهل المداح طريق مديحكم   فإنى فى كتم الشهادة أظلم
وهل لى حمد فى الذى قلت   فيكم ونعما كم عندى التى تتكلم

وأجازه كنز الدولة على تلك القصيدة بألف دينار ، ووقف عليه ساقية تساوى ألف دينار[2].

وله فى وصف شمعة [3]:

ومصفرة لاعن هوىً غير أنها   تحوز صفات المستهام المعذب
شجونا وسقما واصطبارا وأدمعا   وخفقا وتسهيدا وفرط تلهُّب
إذا جَمّشتها الريح كانت كمعصم   يرد سلاما بالبنان المخضب

أما ثانى الأخوين الشاعرين فى العصر الفاطمى ، فهو أحمد بن على بن ابراهيم الأسوانى الملقب بالرشيد . وإذا كان المهذب أشعر من الرشيد ، فإن الأخير كان أعلم منه فقد ضرب بسهم وافر فى الفقه واللغة والنحو والتاريخ والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والنجوم ، كما كان جيد النثر ، وله تصانيف منها كتاب «منية الألمعى، وبلغة المدعى» ، وكتاب « المقامات» على نسق مقامات الحريرى ، ومن أشهر تصانيفه كتاب «جنان الجنان، وروضة الدهر للثعالبى وهو الكتاب الذى أخذ عنه العماد فى أكثر مادة القسم الخاص بمصر من كتابه الخريدة ، كماله كتب أخرى منها كتاب «الهدايا والطرف» ، وكتاب «شفاء الغلة فى سمت القبلة» ، ومجموعة رسائله ، وديوان شعره [4]. والرشيد على ذلك النحو عالم شاعر أفاد المصريين وغيرهم [5]. ويذكر العماد الأصفهانى[6] أن محمد بن عيسى اليمنى أخذ عن

١- الطالع السعيد ، ص٢٠٣ .   ٢- الطالع السعيد ، ص١٩٧ .

٣- خريدة القصر ، جـ٢ ص٢٢٥ ؛ المقفى جـ٣ ص٣٤٦ .

٤- خريدة القصر ، جـ٢ ص٢٠٢ ، معجم الأدباء ، جـ٤ ص٥١-٥٤ ؛ الطالع السعيد ، ص٩٨ ؛ ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٤ ص٢٠٣؛ السيوطى: بغية الوعاة ، جـ١ ص٣٣٧؛ المقفى، جـ١ ص٥٣٤-٥٣٥

٥- محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص٢١٠ .   ٦- خريدة القصر ، جـ٢ ص٢٠١ .

الرشيد مكانة سامية فى الدولة الفاطمية ، وسبب ذلك أنه هاجر من أسوان إلى مصر بعد مقتل الخليفة الظافر عام ٥٤٩هـ (١١٥٤م) ، وحضر المأتم مع الشعراء ، فقام وأنشد قصيدته التى مطلعها :

ما للرياض تميل سكرا　　　هل أسقيت بالمزن خمرا

إلى أن وصل إلى قوله :

أفكر بلاء بالعراق　　　وكربلاء بمصر أخرى

فضج القصر بالبكاء ، وانهالت عليه الهبات والعطايا ، ومن هنا بدأت صلته بالقصر والوزراء فمدحهم وتقدم عندهم[١] .

وفى عام ٥٣٩هـ (١١٤٤م) أنفذه الخليفة الفاطمى الحافظ عبد المجيد إلى اليمن داعيًا له، ثم قلد قضاءها ، ولقب بقاضى قضاة اليمن وداعى الزمن ، واستفاد من علمه باليمن جماعة كثيرة[٢] . وقيل أن نفسه سمت إلى مرتبة الخلافة فى اليمن ، وأجابه قوم إليها ، ونقشت له السكة ، وكان نقش السكة على أحد الوجهين : « قل هو الله أحد ، الله الصمد » ، وعلى الوجه الآخر : « الإمام الأمجد ، أبو الحسين أحمد » ، فقبض عليه وأنفذ إلى قوص مكبلا فى القيود ، ثم أطلق الوزير طلائع بن رزيك سراحه[٣]. ويبدو أن ذلك القول خاطئا ، فمن غير المعقول أن شاعراً مثل الرشيد وصل إلى مرتبة سامية فى العلم ، ، بلغ به الأمر أن يدعى الإمامة فى الوقت الذى أنكرت فيه إمامة الخلفاء الفاطميين الحافظ والفائز والظافر والعاضد ، ودعى فيه للإمام المستور ، فضلا عن أن مركز الدعوة للإمام المستور قد انتقل من مصر إلى اليمن منذ مقتل الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله عام ٥٢٤هـ (١١٣٠م) ، فكيف يمكن للرشيد أن يدعى الإمامة فى اليمن والكل يعرف شروط الإمامة التى من أهمها أن يكون الإمام من نسل النبى صلى الله عليه وسلم ، ولعل حكام مصر فى ذلك الوقت لم يكونوا من السذاجة والغباء لدرجة العفو عن مثل هذا الرجل الدعى ، ولاسيما إبان حكم الملك الصالح

١- معجم الأدباء ، جـ٤ ص٥٧-٥٨ ؛ محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص٢١٠ .

٢- معجم الأدباء : جـ٤ ص٥٥ ؛ الطالع السعيد ، ص١٠٢ ؛ ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص١٦٧ .

٣- ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، جـ٤ ص٥٥-٥٧ .

طلائع بن رزيك ، وهو من أشد وزراء ذلك العصر تعصبًا للمذهب والإمامة [١]. ومما يؤيد ذلك الرأى قول الأدفوى فى كتابه الطالع السعيد[٢] : «وقد وقفت على محضر كتبه باليمن ، فيه خط جماعة كثيرة ، أنه لم يدع الخلافة ، وأنه مواظب على الدعوة للخليفة (الفاطمى) ، رأيت المحضر بأسوان» . ويبدو أن سبب القبض على الرشيد فى اليمن مدحه الأمير على بن حاتم الهمدانى بقصيدة منها :

لقد أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا   فلست أنال القحط فى أرض قحطان

وقد كفلت لى مأرب بمآربى   فلست على أسوان يوما بأسوان

وإن جهلت حقى زعانف خندف   فقد عرفت فضلى غطارف همدان

فحسده داعى عدن ، وكتب بهذه الأبيات إلى مصر ، فكانت سببًا فى غضب حكام مصر عليه ، كما غضب أولو الأمر بعدن ، فأخذ الرشيد وحبس ثم صفح عنه [٣].

واتصل الرشيد بآل رزيك ثم بالوزير شاور وابنه ، وولى النظر على الدواوين السلطانية بغير رضاه عام ٥٥٩هـ (١١٦٣م) ، ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبى أثناء محاصرته بالاسكندرية ، فكان ذلك سبب غضب شاور عليه ، فاختفى بالاسكندرية ، وظل مختفيا إلى أن قبض عليه وأشهر على جمل وعلى رأسه طرطور ووراءه من ينال منه ، فكان الرشيد ينشد وهو على هذه الحال :

إن كان عندك يا زمان بقية   مما تهين به الكرام فهاتها

ثم صلب شنقا ودفن حيث شنق عام ٥٦٣هـ (١١٦٧م)[٤] .

وقد وصف ياقوت الحموى[٥] الشاعر الرشيد قائلا : «كان على جلالته وفضله ، ومنزلته من العلم والنسب ، قبيح المنظر ، أسود الجلدة ، جهم الوجه ، سمج الخلقة ، ذا شفة غليظة ، وأنف مبسوط ، كخلقة الزنوج ، قصيراً » . وقد دفعت تلك الصفات الشعراء المعاصرين على

١- محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص٢١١-٢١٢ .

٢- ص١٠٢ .

٣- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ص١٤٧ ؛ محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص٢١٢ .

٤- ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ١ ص١٤٥ ؛ معجم الأدباء ، جـ٤ ص٦٠-٦٢ .

٥- معجم الأدباء جـ٤ ص٥٨ .

هجائه ، فيروى أنه اجتمع ليلة عند الملك الصالح طلائع بن رزيك هو وجماعة من الشعراء فأعجب به الصالح ، فقال الرشيد : ما سئلت قط عن مسألة إلا وجدتنى أتوقد فهما » ، فارتجل الشاعر ابن قادوس[١] :

إن قُلتَ : من نار خُلقتُ　　وفقتُ كلَّ الناس فهما

قلنا صدقت ، فما الذى　　أطفاك حتى صرتَ فحما

ويروى أن الرشيد ولى على المطبخ ، فقال الشريف الأخفش يخاطب الصالح بن رزيك [٢]:

يولى على الشئ أشكاله　　فيصبح هذا لهذا أخا

أقام على المطبخ ابن الزبير　　فولى على المطبخ مُطبخا

كما يروى أن امرأة شابة جميلة فى مدينة القاهرة رمقت الرشيد بنظرة تحمل معنى خاص ، وكأنها تطمع فيه ، فظن أنها أعجبت به ، ثم أشارت إليه بطرفها ، فنسى نفسه وسار وراءها ، حتى دخلت داراً وأشارت إليه فدخل ، ثم نادت : يا ست الدار ، فنزلت إليها طفلة «كفلقة القمر» ، فقالت لها : « إن عدت تبولين فى الفراش خليت سيدنا القاضى يأكلك» ثم قالت للزبير : « لا أعدمنى الله فضلك يا سيدنا القاضى» ، فخجل الرشيد ، وخرج من الدار والخزى يملأه [٣] . ولعل سواده ودمامته وقصر قامته كانت من الأسباب التى جعلته يكثر من ذم الدهر والناس ، وأن يظهر فى شعره سمة حزن لعدم وفاء الإخوان وغدرهم به ، فقد أنشد وهو فى اليمن [٤]:

لئن خاب ظنى فى رجائك بعدما　　ظننتُ بأنى قد ظفرتُ بمنصف

فإنك قد قلدتنى كل منة　　ملكت بها شكرى لدى كل موقف

لأنك قد حذرتنى كلَّ صاحب　　وأعلمتنى أن ليس فى الأرض من يفى

١- المصدر السابق ، جـ٤ ص٦٠ ؛ المقريزى : المقفى ، جـ١ ص٥٣٥ .

٢- معجم الأدباء ، جـ٤ ص٥٦ ، المقفى ، جـ١ ص٥٣٥ .

٣- ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ٤ ص٢٠٣ ؛ السيوطى : بغية الوعاة ، جـ١ ص٣٣٨ ؛ معجم الأدباء جـ٤ ص٥٨-٦٠ .

٤- خريدة القصر ، جـ١ ص٢٠١ ؛ المقفى ، جـ١ ص٥٣٥-٥٣٦ ، محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ، ص٢١٤ .

كما أنشد فى مصر (١) :

تواصى على ظلمى الأنام بأسرهم وأظلم من لاقيتُ أهلى وجيرانى
لكل امرئ شيطانُ جن يكيدُهُ بسوء ولى دون الورى ألف شيطان

وقد سبق القول أنه لما قبض على الرشيد باليمن ، كتب إليه أخوه المهذب قصيدة طويلة مطلعها :

ياربع أين ترى الأحبة يمموا هل أنجدوا من بعدنا أن أتهموا

فأجابه الرشيد بقصيدة طويلة ، أولها (٢):

ياربع أين ترى الأحبة يمموا رحلوا ، فلا خلت المنازل منهم
وسروا ، وقد كتموا الغداة مسيرهم وضياء نور الشمس مالا يكتم
وتبدلوا أرض العقيق عن الحمى روّت جفونى أىَّ أرض يمموا
نزلوا العُذيبْ وإنما فى مهجتى نزلوا ، وفى قلبى المتيم خيموا

وقد خلف الرشيد ولدا شاعرا هو على بن أحمد بن على الأسوانى ، وقد روى العماد الأصفهانى ، أنه رآه واقفا ينشد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى قصيدة يمدحه فيها عام ٥٧٣هـ (١١٧٧م) ، بغية التزلف إليه والتقرب إليه ، وقد كشفت تلك القصيدة - كما يروى العماد - عن ضعف شعره ، غير أنه أوردها فى الخريدة كونه ابنا للشاعر الكبير ، منها(٣):

تخضر أكنافُ أرض إن نزلت وإن نازلت تحمرُّ أرض السهل والجبل
ما زلت أفرى دجى الليل التمام سُرى ونور وجهك يهدينى إلى السبل

كما كان للرشيد ابن آخر شاعرا ، يدعى ابراهيم بن أحمد الأسوانى ، ولد عام ٥٦١هـ (١١٦٥م) ، أى قبل وفاة أبيه بسنتين ، وتقلب فى الخدم الديوانية ، ومن شعره الذى أنشده(٤):

١- خريدة القصر ، جـ١ ص٢٠٢ .
٢- ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ٤ ص٢٠٤-٢٠٥ ؛ معجم الأدباء ، جـ٤ ص٦٢-٦٣ .
٣- خريدة القصر ، جـ١ ص٢٠٢ ؛ الطالع السعيد ، ص٣٦٩-٣٧٠ .
٤- الطالع السعيد ، ص٤٩-٥٢ ؛ المقريزى : المقفى ، جـ١ ص٣٦-٣٧ .

لله در ليالينـــا بـــذى سلـــم ومسرح الطرف من سلع ومن إضم
وفّى الزمـان بوصل فى مـعـالمهـا وطائر البين قبل البين لم يحُـــم
إذا تذكـرتُ أيامـا لنا سلفـت بالرقـمـتين قـرعتُ السن بالندم

وفى العصر الفاطمى مدح الشعراء بنى الكنز ، وقصدوهم بغية العطاء الجزيل ، وفى ذلك يقول الأدفوى : «وكان بها (أسوان) بنو الكنز ، أمراء أصائل من ربيعة ، أهل فتوة ومكارم ، ممدوحون مقصودون من البلاد الشاسعة والأماكن المتباعدة ، صنع لهم الفاضل السديد أبو الحسن على بن عرام (المتوفى حدود عام ٥٨٠هـ) سيرة ، وذكر مناقبهم وحالهم ، وجمع أسماء من مدحهم (من أهل الثغر) ومن ورد عليهم»[١] . ولايهمنا فى هذا الصدد ذكر الشعراء الذين مدحوا بنى الكنز من غير أبناء أسوان ، وسنكتفى بذكر بعض من مدحهم من أبناء أسوان . فمنهم أحمد بن محمد الأسوانى الذى مدح كنز الدولة بن مترج (ت ٥٧٠هـ) بقصيدة أولها [٢] :

هل المجد إلا ما اقتنته الصوارم أو الجد إلا ما بنتـــه المكارم
أو العز إلا ما أشـــاد منـــاره وقـائع يبـقى ذكرها وملاحـــم
أو الفـخـر إلا مـا المتـــوج لابس حُـلاه وراق فى عـلاه وراقِـمُ
إذا أخلفتْ سحب فغيث مساجمٌ وإن شجرت حرب فليث صارم

ومن شعراء أسوان الذين مدحوا بنى الكنز محمد بن رائق أبو عبد الله الأسوانى (توفى فى حدود أواخر المائة السادسة للهجرة) ، عالم فاضل ، أديب شاعر ، ومن قصيدته التى مدح بها بعض الكنز أولها[٣] :

بالســفـح من ربع سلمـى دثـــرا فـاسفح دموعك ساحـاته دررا
واستوقف الركب واستسق الغمام له والثم صعيد ثراه الأذفرا العطرا
واستخبر الدار عن سلمى وجيرتهـا إن كانت الدار تعطى سائلا خبرا
وكيف تسأل دارا لم تـدع جلـداً لسائليـها ولاسمعا ولابصـــرا

١- الطالع السعيد ، ص٣٠ ؛ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ص٣٤ .

٢- الطالع السعيد ، ص١٣٠-١٣ .   ٣- الطالع السعيد ، ص٥٢٠-٥٢١ .

ومنهم عبدالله بن أحمد الأسوانى (عاش فى المائة السادسة للهجرة) ، ذكره ابن عرام فى مداح بنى الكنز ، ولم يكن ذلك الشاعر جيد النظم ، إذ أن مدائحه خالية من الروح ، فيما عدا قصيدة واحدة اتهمه فيها ابن عرام وهى[١] :

لاتطلبن هوى بغير شبيبة   فتروم صعبا منه غير ذلول

إن الشباب لدولةٌ محمودة   لو أنها سلمتْ من التبديل

ومنها[٢] :

ومديح كنز الدولة ابن مترج   سبب المراد وغاية التأميل

ذى الهمة العلياء والمجد الذى   طاب الفروع له بطيب أصول

من قاسى جودك بالغمام فإنما   ساوى ضياء الشمس بالقنديل

ومن الشعراء الذين مدحوا بنى الكنز ، الشاعر أحمد بن محمد الروزبى الأسوانى ، عاش فى المائة السادسة للهجرة ، وقرض الشعر بعد اكتهاله[٣] . وكذلك الشاعر عبدالله بن محمد بن زريق الأسوانى [٤]، والشاعر سهل الأسوانى الذى قال قصيدة فى كنزالدولة ، نذكر منها[٥]: .

ألا هكذا يُعزى إلى الملك من يعزى   فيغدو له إن ذلَّ ناصره عزا

وقد كان بهرام يظنُّ مراسه   شديداً إلى أن مارس الملك الكنزا

جزى اللهُ خيرا من حمى الدين سيفه   وكلُّ امرئ بأفعاله يجزى

وله أيضا قصيدة يقول فيها[٦] :

أيا كنز دولة آل النبى   ومن ذبَّ عن حوزتها وحاقى

بهرت الأنام بمجد أشم   سبقت إلى غايتيه الكراما

١- الطالع السعيد ، ص٢٧٧ .

٢- نفس المصدر والمكان .

٣- الطالع السعيد ، ص١٢٨-١٢٩ .

٤- المصدر السابق ، ص٢٨٠-٢٨١ .

٥- المصدر السابق ، ص٢٥٦ .

٦- الطالع السعيد ، ص٢٥٧ .

ومن مداح بنى الكنز الشاعر أبو اسحاق بن شعيب الأسوانى ، من أهالى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى)[١] ، والفقيه العالم الأديب النحوى الشاعر على بن النضر الأسوانى ، ذكره ابن عرام فى سيرة بنى الكنز ، وأثنى عليه العماد الأصفهانى[٢] ، إذ قال عنه : «من الأفاضل الأعيان ، المعدودين من حسنات الزمان» ، ومن شعره[٣] :

يا نفس صبراً واحتسابا إنهـا   غمرات أيـام تمر وتنجـلى
فى الله هلكت إن هلكت حميدة   وعليه أجرى فاصبرى وتوكلى
لاتيأسى من روح ربك واحـذرى   أن تستقرى بالقنوط فتخذلى

ومن الشعراء الأسوانيين فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) الشاعر الحسين بن محمد الأنصارى الأسوانى ، وصفه الأدفوى[٤] قائلا : «كان فاضلا أديبا له النظم الحسن والنثر الجيد ، ويكتب خطا حسنا » ، غير أنه لم يذكر لنا شيئا من شعره ، وتوفى ذلك الشاعر بعد عام ٦٧٠هـ (١٢٧١م) ، ومنهم أيضا الشاعر عمر بن عبد العزيز الأسوانى (ت٦٩٢هـ) ، رحل من أسوان إلى قوص ثم إلى القاهرة لتزويد نفسه بالعلم ، وكانت الكتب تأتى إليه من أهله فلا يقرؤها ، حتى «حصل مقصوده من العلم»[٥] . ولم يكن ذلك الشاعر ينظم الشعر فقط ، بل أيضا - كما سبق أن ذكرنا - فقيها نحويا أديبا ، ومن شعره الذى أنشده ارتجالا عندما سأله أحد الأدباء عن حاله :

إن كنت تسأل عن عرضى فلا دنس   أو كنت تسأل عن حالى فلا حال
قد ضيع المجد مال ضيعته يـدى   ما أضيع المجد إن لم يجمعه المال

ومن شعراء أسوان فى القرن السابع الهجرى أيضا الشاعر عثمان بن عبد المجيد الأسوانى (توفى فى حدود السبعمائة للهجرة) ، ويبدو أن ذلك الشاعر لم يكن مكثراً فى شعره ، فمما قاله عنه الأدفوى فى ترجمته الشخصية : «له شعر»[٦] .

١- الطالع السعيد ، ص٧٣٦ .

٢- الطالع السعيد ، ص٤٠٨-٤٠٩ ؛ السيوطى : بغية الدعاة ، جـ٢ ص٢٠٠-٢٠١ .

٣- الطالع السعيد ، ص٤١٠ .   ٤- الطالع السعيد ، ص٢٢٩ .

٥- الطالع السعيد ، ص٤٤٠-٤٤١ .   ٦- الطالع السعيد ، ص٤٤١-٤٤٢ .

وهكذا نرى شعراء أسوان فى القرن السابع الهجرى ، لم يكن لهم شعر يهز الأعماق ، مثلما كان لإخوة لهم من قبل فى العصر الفاطمى .

أما فى القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر الميلادى) ، فلم تذكر المصادر المعاصرة عن أبناء أسوان الذين نظموا الشعر سوى شاعرين ، أولهما عبد الرحيم بن محمد بن عبد الرحيم البمبانى ، أصله من إسنا ، وولد بأسوان ونشأ بها ، وأقام ببمبان قرية من قرى أسوان ، (ت٧٠٥ أو ٧٠٦ هـ) ، كان فقيها فاضلا نحويا ، أديبا شاعراً ، ومن قصيدة له امتدح بها «طقصبا» والى قوص ، شاكيا فيها - فى الوقت نفسه - حال أسوان ، فهو يقول فى تلك القصيدة التى احتفظ لنا الأدفوى منها بيتين[١] :

لعُلا جنابك كل أمر يُرفَع ... وإليك حقا كلُّ خطب يُرجع

ما كان يفعله الشجاعى سالفا ... فى مصر فى أسوان حقا يصنع

وقد تميز ذلك الشاعر بخفة الدم ، فضلا عن أنه نظم البلاليق إلى جانب الشعر ، ويروى أن سكينة ضاعت منه ، فوجدها مع ابن المصوص الإسنائى ، فما كان منه إلا أن نظم فى ذلك «بلقية» أولها[٢] :

إنك قد أرى فى اللصوص ... يا بن المصوص

خنجرى كان فى الطبق ... ومنتصر فى القول صدق

وأنت أخذته بالسُّبق ... لعب الفصوص

أما الشاعر الثانى ، فهو ابراهيم بن أحمد بن طلحة الأسوانى المتوفى عام ٧٣٥هـ (١٣٣٤م) ، وصفه الأدفوى[٣] قائلا : «الشاعر المشهور ، الأديب المذكور ، ... له ديوان شعر يدل على فضله ، ويشهد بنبله » ، ومن شعره :

أرى كل من أصفيته الود مقبلا ... علىَّ بوجه وهو بالقلب مُعرضُ

حذار من الإخوان إن شئتَ راحة ... فقرب بنى الدنيا لمن صحَّ مُمرض

١- الطالع السعيد ، ص٣١١ ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ٢ ص٤٧١-٤٧٢ .

٢- الطالع السعيد ، ص٣١٢ ، والبليقة أو البليق والجمع بلاليق : نوع من النظم الشعبى .

٣- الطالع السعيد ، ص٤٦-٤٨ ، المقفى ، جـ١ ص٢٩٩ .

بلوت كثيرا من أناس صحبتُهم　　فما منهم إلا حسود ومُبغض

فقلبى على ما يسخنُ العين منطو　　وطرفى على ما يحزن القلق مُغمض

وقال فى سراج الدين جعفر بن حسان الإسنائى لما حضر إلى أسوان[١] :

حل سراج الدين فى ثغرنا　　فزانه حسنا وحلاه

تاه برؤياه فلو أنه　　يفضح بالقول لحياه

فاعجب لضيف نحن ضيفانهُ　　كأنما نحن بمغناه

أما فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، فقد خمدت حركة الشعر فى أسوان ومما يدل على ذلك أن السخاوى (ت ٩٠٢هـ) مؤرخ القرن التاسع الهجرى ، لم يرد فى كتابه «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»[١] تراجم لشعراء من أسوان ، فيما عدا شاعر واحد هو عمر بن عبد الله الأنصارى الأسوانى المتوفى عام ٨٢٦هـ (١٤٢٢م) ، ولد ذلك الشاعر بأسوان ، وقدم القاهرة فأقام بها مدة ، ثم توجه إلى دمشق حيث درس الأدب بها ، وبعد أن انتهى من دراسته عاد إلى القاهرة واستوطنها ، ومن صفات ذلك الشاعر أنه كان متعاظما معجبا بنفسه ، يرى أنه يتمتع بموهبة فى الشعر حرم العالم منها ، وأن على الناس تعظيمه وإكباره ، وبذل أموالهم له ، وعندما وجد أن الناس لم تكترث به هجاهم ، فمن ذلك قوله[٢]:

إن دهرى لقد رمانى بقوم　　هم على بلوتى أشد حثيثا

إن أفه بينهم بشئ أجدهم　　لايكادون يفقهون حديثا

وإذا كان المقريزى قد وصف شعره بأنه أقل مما يدعى ، فان ابن خلدون «كان يطريه ، ويشهد بأنه أشعر أهل عصره بعد خطيب ابن درايا »[٣]. ومن المحتمل أن انعدام الشعر والشعراء الأسوانيين فى القرن التاسع الهجرى ، يرجع إلى ما أصاب أسوان من فساد وخراب نتيجة فتن وثورات العربان التى سبق أن تحدثنا عنها من قبل .

ومهما كان الأمر ، فإن ميدان الشعر فى أسوان كان خصيبا . وإذا كانت أسوان قد أنجبت عدداً هائلا من الشعراء أثروا الحياة الأدبية ، وبلغوا شأوا بعيدا ، إلا أننا نلاحظ أن ما أنتجه

١- جـ٦ ، ص٩٥ .

٢- ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ٧ ص١٧٥ .

٣- السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٦ ص١٩٦ .

أدباؤها في فن النثر قليل ، وممن بلغوا منزلة رفيعة في الأدب من أبناء أسوان ، فخر الدولة ابراهيم بن محمد الأسواني (ت ٥٨١هـ/ ١١٨٥م) ، ابن أخت الشاعرين المشهورين الحسن بن على بن ابراهيم الملقب بالمهذب ، وأحمد بن على بن ابراهيم الملقب بالرشيد ، وهو أول من كتب الإنشاء للسلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوبي ، ثم من بعده لأخيه الملك العادل سيف الدين أبي بكر الأيوبي[١] . ومن قبيل النثر أيضا كتابات المؤرخ الجغرافي عبدالله سُليم الأسواني (ت بعد ٣٦٥هـ) ، الذى كان له الفضل في إلقاء الضوء على تاريخ النوبة . فقد بعثه القائد الفاطمي جوهر الصقلي بكتاب إلى قيرقى (جورج الثاني) ملك النوبة يعرض عليه فيه الإسلام ، ويطالبه بأداء ما عليه من متأخر ضريبة البقط ، فدعاه إلى الإسلام بحضرة شاهدين كانا معه ، فكبر ذلك على ملك النوبة وجمع علماءه وأساقفته لمناظرة ابن سليم [٢]. ويرى البعض أن الغرض من وراء بعثة ابن سليم الأسواني ، هو نشر المذهب الشيعي ، وفتح أسواق جديدة لمصر في بلاد النوبة [٣]. والجدير بالذكر أن ابن سليم صنف كتابا للخليفة الفاطمي العزيز بالله سماه «أخبار النوبة والمقرة وعلوه والبجة والنيل ومن عليه وقرب منه من غيرهم» ، وصفه المقريزي[٤] قائلا : «وفيه فوائد كثيرة» . وللأسف الشديد فان ذلك الكتاب قد ضاع ، واحتفظ لنا المقريزي بشذرات منه في كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، أفادتنا في معرفة بعض أحوال النوبة في العصور الوسطى .

وعلى كل حال ، فان أسوان ساهمت بنصيب وافر في الحياة الأدبية في مصر العصور الوسطى ، وخاصة في العصر الفاطمي ، وما تركه علماؤها خير دليل على ذلك .

(د) أسوان معبر رئيسي لنشر الإسلام في السودان :

ومن المعروف أن مصر تتصل بالسودان اتصالا وثيقا منذ أقدم العصور ، فلا توجد حواجز طبيعية تعوق الاتصال بينهما ، ويكفي أن نهر النيل ربط بين القطرين الشقيقين وجعل منهما

١- الطالع السعيد ، ص٦٤-٦٥ ؛ المقريزي : السلوك ، جـ١ ص٩٠ ، السيوطي : حسن المحاضرة ، جـ١ ص٢٤٢؛ المقفى ، جـ١ ص٢٦٩ .

٢- المقريزي : المقفى ، ص٢٠ ، جـ٤ ص٥٧٤ (طبعة بيروت) .

3- Yusuf Fadl , The Arabs and the Sudan , p. 92 .

٤- المقريزي : المقفى ، ص٢٠ ؛ جـ٤ ص٥٧٤-٥٧٥ (ط . بيروت) .

وطنا واحدا . ولاينبغى أن ننسى ما قام به نهر النيل من دور رئيسى فى سريان الحضارة المصرية القديمة إلى بلاد السودان ، فالصلة بين القطرين قديمة قدم الحضارة نفسها . وخير دليل على ذلك أن المسيحية عندما دخلت مصر وانتشرت بها ، وانتقلت بدورها إلى بلاد النوبة .

وعندما أتم العرب فتح مصر ، وجعلوا منها إحدى البلاد الخاضعة للدولة العربية الإسلامية، استلزم الأمر أن يدافعوا عن حدودها الجنوبية . وإذا كان ذلك الدفاع قد اتخذ صورة علاقات عدائية بين مصر الإسلامية ومملكة النوبة المسيحية فى العصور الوسطى ، إلا أنه لم يقطع الصلة الحضارية التى كانت بين البلدين من قبل .

ولعبت أسوان دوراً بارزاً فى حلقة العلاقات الحربية والحضارية بين مصر وبلاد السودان فى العصور الوسطى . إذ أنها كانت إحدى المدن الاستراتيجية الهامة التى تركز فيها العرب منذ أوائل الفتح العربى لمصر ، للدفاع عنها ضد مملكة النوبة المسيحية . كما كانت ملتقى طرق القوافل التجارية الآتية من النوبة والبحر الأحمر ، يتبادل فيها التجار السلع والبضائع . وعلى الرغم أن منطقة الشلال الأول كانت تمثل خط الحدود المعترف به بين البلدين كما سبق أن أوضحنا ، إلا أن ذلك الخط كان متذبذبا . وبعبارة أخرى كانت الحدود بين مصر الإسلامية والنوبة المسيحية متداخلة ، فقد استطاع العرب أن يتوغلوا سلميا جنوب أسوان على الرغم من وجود علاقات عدائية بين البلدين ، وخير دليل علي ذلك أن مساحة الأرض التى تقع بين الشلال الأول والشلال الثانى كانت منطقة مفتوحة للقبائل والجماعات العربية ، تلك المنطقة التى سماها العرب بأرض المريس ، وعرف حاكمها بصاحب الجبل وهو موظف من قبل ملك النوبة ، أما جنوب وادى حلفا فهى منطقة مغلقة أمام العرب ، ومسئولية حاكم الجبل تنحصر فى عدم السماح لأى شخص بالمرور إلا إذا كان لديه ترخيص بذلك [1]. وفى منطقة المريس استطاع العرب أن يتحركوا فى نطاقها تحركا سلميا ، وزاولوا فيها نشاطهم التجارى .

ولكن كيف انتقل الإسلام والثقافة العربية الاسلامية من مصر إلى بلاد النوبة ؟ الواقع أن الإسلام سلك طريقه إلى السودان بقوتين رئيسيتين سارتا جنبا إلى جنب : القوة الأولى تتمثل فى الهجرات العربية ، أما القوة الأخرى فتتمثل فى التجارة .

1- Trimingham , Islam in the Sudan , pp . 64-65 .

ومن الجدير بالذكر ، أن العرب عندما انتشروا من شبه جزيرتهم ، ونقلوا سماتهم الجنسية إلى ربوع السودان لم يعبروا البحر الأحمر مباشرة إلى شواطئه الغربية إلا بأعداد ضيئلة للغاية، وإنما هم قد داروا مع اليابس حول ذلك البحر ، فدخلوا شبه جزيرة سيناء ، ثم أطراف الدلتا ، ثم اتجهوا مع النيل صوب الجنوب(١) .

والهجرات العربية التى نزحت من جنوب مصر إلى السودان التزمت ضفاف النيل متخذة من أسوان نقطة انطلاق لها إلى وادى حلفا فدنقلة ، وقد كان لذلك الطريق النيلى الفضل الأكبر فى نشر العروبة فى السودان ، إذ كان طريقا مألوفا للجماعات الصغيرة سلكته منذ السنوات الأولى للإسلام فى مصر ، هذا وإن كانت القبائل العربية التى اندفعت إلى السودان فى شكل أعداد ضخمة التزمت أيضا نهر النيل من جنوب أسوان إلى كرسكو - الواقعة على بعد حوالى ٢٠٠ كيلو متر من أسوان - أو قبلها ، ثم اخترقت صحراء العتمور مباشرة إلى أبى حمد ، حيث اتصلت بالنهر مرة أخرى ولازمته نحو الجنوب ، وميزة الطريق الأخير أنه أقصر من الطريق الأول ، وإذا كان قد غلبت عليه الوعورة والجفاف ، إلا أنه جنب القبائل العربية الاحتكاك بالحكومة المنظمة المقيمة على ضفاف النهر ، وأبعدها عن دفع أية ضرائب لها (٢). وبوصول المؤثرات العربية إلى أبى حمد ، يمكنها أن تسلك طريقين : أحدهما باتجاه الجنوب الشرقى ، والأخرى باتجاه الجنوب الغربى ، وكلاهما يلتزم النهر ، الذى يرسم من أبى حمد طريقين : نحو عطبرة والخرطوم من جهة ، ونحو مروى والدبة والبلاد الجنوبية من جهة أخرى ، وكلا الطريقين كان معروفا منذ العصور القديمة (٣).

ويمثل الفتح العربى لمصر البداية الحقيقة لتغلغل العرب فى شمال النوبة ، بعد أن اتخذوا من أسوان مستقراً لهم ، ومنطلقا لهم إلى تلك البلاد . وإذا وضعنا فى الاعتبار أن أسوان كانت أحد الثغور الإسلامية المعدة للرباط فى سبيل الله تعالي ويخشى عليها من مهاجمة مملكة النوبة المسيحية المجاورة لها ، لتصورنا مدى اندفاع القبائل العربية فى ركاب الجيوش العربية إلى أسوان وتركيزها فيها ، طمعا فى ثواب الله تعالى . وليس أدل على ذلك من قول

١- سليمان حزين : حضارة مصر أرض الكنانة ، ص١٧٣، ١٧٩ .

٢- محمد عوض محمد: السودان الشمالى، ص١٦٠-١٦١، الشعوب والسلالات الأفريقية ، ص٣١٠-٣١١ .

٣- محمد عوض محمد : السودان الشمالي ، ص١٦٢ .

المسعودى[١] فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) : « ومدينة أسوان يسكنها كثير من العرب من قحطان ونزار بن معد بن ربيعة ومضر وخلق من قريش وأكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره » كما يروى المقريزى[٢] أن الكثرة والغلبة ببلاد الصعيد كانت لست قبائل هى : بنو هلال ، وبلى ، وجهينة ، وقريش ، ولواته ، وبنو كلاب ، وكان ينزل معهم عدة قبائل أخرى من الأنصار ، ومن مزينة ، وبنى دراج ، وثعلبة ، وجذام .

وقد أدت القبائل العربية التى استقرت فى أسوان منذ الفتح العربى دوراً عظيماً فى نشر الإسلام والثقافة العربية فى بلاد السودان . فبفضلها تسربت العروبة إلى تلك البلاد حاملة معها مقوماتها الثلاثة الرئيسية وهى : الدم العربى ، واللغة العربية ، الديانة الإسلامية . وقد أتاحت معاهدة البقط التى عقدها عبدالله بن سعد بن أبى سرح مع النوبيين عام ٣١هـ الفرصة لهجرة القبائل العربية إلى بلاد النوبة فى صورة أفراد أو جماعات . وجاء نص فى تلك الاتفاقية يقول : «وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم »[٣] . وطبقا لهذا النص الذى ضمن للمسلمين السلام والأمان ، نزحت القبائل العربية إلى النوبة ، مستوطنة منطقة المريس التى صارت جبهة مفتوحة أمامها . وتحدد لنا تلك المعاهدة طريقة انتشار الإسلام فى النوبة ، فلم يكن انتشاراً بطريق الغزو أو العنف ، بل تسربا فى بطء وهدوء ، وبمعنى آخر فان ملوك النوبة عندما وافقوا على تلك المعاهدة ، فتحوا الباب على مصراعيه لتسرب القبائل العربية فى السودان ، تلك القبائل التى غيرت المصير الاجتماعى والدينى للنوبة [٤].

وهناك من الظروف التى جعلت بعض القبائل العربية تأخذ طريقها إلى جنوب مصر فى أسوان ، ومنها إلى بلاد النوبة ناشدة سبل المعيشة . من تلك الظروف حرمان العرب من الامتيازات التى كانوا يحصلون عليها فى مصر ، ففى بداية القرن الثالث الهجرى عام ٢١٨هـ (٨٣٣م) صدر قرار الخليفة العباسى المعتصم باسقاط العرب من ديوان العطاء [٥]. ويقطع

١- مروج الذهب ، جـ٢ ص٢٢ .

٢- الخطط ، جـ١ ص١٨٩ .

٣- المقريزى ، الخطط ، جـ١ ص١٩٩ .

٤- حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ، ص٢٨٣-٢٨٤ .

٥- سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص١٣٨ .

أعطياتهم ، انهارت السيادة التى كانت تمارسها القبائل العربية فى مصر ، وضاعت الامتيازات التى كانت تحصل عليها . وبدأ منذ ذلك الوقت اتجاه كثير من القبائل العربية فى حركات مطردة نحو صعيد مصر ، ثم نحو حدود النوبة ، ثم داخل بلاد النوبة ، وأهم هذه الهجرات هجرة قبيلة جهينة اليمنية التى استقر بها المقام فى بادئ الأمر بأواسط الصعيد ، ثم نزحت إلى أسوان ومنها إلى بلاد النوبة [١]. ومن بين الأسباب التى دفعت بعض القبائل العربية إلى الاتجاه جنوبا صوب أسوان ومنها إلى بلاد النوبة طلبا للملجأ الأمين ، هو الضغط السياسى . فعندما سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) ، وقامت على أنقاضها الدولة العباسية ، لم يعد أمام القبائل العربية التى تناصر الأمويين سوى الفرار إلى جنوب مصر ومنها إلى النوبة ، خاصة بعد أن اغلق الطريق أمامهم من الشمال . وكذلك الأمر عندما فتح الفاطميون مصر عام ٣٥٨هـ (٩٦٩م) وانتزعوها من أيدى العباسيين ، لجأت القبائل العربية التى تؤيد العباسيين إلى الفرار إلى جنوب مصر ، ومنها إلى السودان ، حيث وجدت أراض هائلة المساحة ترحب بهم .

والجدير بالذكر هنا ، أن ملك النوبة المسيحى كان باستطاعته طرد أى جماعة اختارت الإقامة الدائمة فى بلاده وخاصة منطقة المريس ، لأن الإقامة الدائمة مخالفة لشروط معاهدة البقط التى وقعها عبد الله بن سعد بن ابى سرح ، والتى جاء فيها : «على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه » [٢]. ولكن ملك النوبة المسيحى لم يمنع الأفراد أو الجماعات التى وفدت إلى بلاده من العيش فى سلام ووئام مع رعيته من النوبيين . وفى تصورى أن ذلك التصرف الذى قام به ملك النوبة كان أول مسمار يدقه فى نعش المسيحية فى بلاد النوبة . وخير دليل على ذلك أن أهالى أسوان من المسلمين كان لهم ضياع كثيرة داخل أرض النوبة ، يؤدون خراجها إلى ملك النوبة ، وقد ابتاعوا تلك الضياع من أهالى النوبة فى صدر الإسلام ، فى دولة بنى أمية وبنى العباس[٣] . ومما يؤكد وجود العرب فى شمال النوبة شواهد القبور التى تحمل أسماء عربية ، التى عثر عليها فى

١- حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية ، ص١٠٤ .

٢- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٩٩ .

٣- المسعودى : مروج الذهب ، ومعادن الجوهر ، جـ٢ ص٢٢ .

تافا وترجع إلى عام ٢١٧ هـ (٨٣٢م) وشواهد أخرى فى كلابشة ترجع إلى عام ٣١٧هـ (٩٢٩م) ؛ وعندما زار ابن سليم بلاد النوبة فى العصر الفاطمى ، رأى العرب فى منطقة المريس يمتلكون الأراضى[1] ، فى الوقت الذى يروى أن عدداً كبيراً من أهالى النوبة قد اعتنقوا الإسلام على الرغم من عدم درايتهم باللغة العربية [2].

ومن القبائل العربية التى استقرت فى أسوان ولعبت دوراً حيويا فى نشر العروبة فى بلاد النوبة ، قبيلة ربيعة ، وقد سبق الإشارة رلى أن قبيلة ربيعة وفدت إلى مصر فى عهد الخليفة العباسى المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٧-٨٦١م) واستوطنت أسوان على حدود بلاد النوبة ، فارضة نوعًا من السيادة الارستقراطية على القبائل العربية فى أسوان ، وخاصة بعد أن تمكن زعيمها أبو المكارم هبة الله من إخماد ثورة قامت ضد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، فمنحه لقب كنز الدولة تكريما له ، وصار ذلك اللقب وراثيا ، كما أصبحت القبيلة تسمى بنو الكنز .

وعندما اتصل بنو الكنز ببقايا الشيعة والجند الفاطميين ، الذين نفاهم صلاح الدين الأيوبى إلى أقاصى الصعيد ، بسبب رغبتهم فى إعادة الدولة الفاطمية ، حدث صدام بين بنى الكنز والجيش الأيوبى بقيادة الملك العادل سيف الدين أبى بكر الأيوبى ، انتهى بهزيمة ساحقة لحقت ببنى الكنز عام ٥٧٢هـ (١١٧٦م) ، وتقهقرت فلولهم إلى منطقة المريس فى شمال النوبة [3]. وفى منطقة المريس استعاد بنو الكنز نفوذهم ، واندمجوا مع السكان النوبيين .

وبانتهاء الفترة الزمنية للدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك البحرية عام ٦٤٨هـ (١٢٥٠م)، استطاع بنو الكنز السيطرة على الجزء الشمالى لبلاد النوبة ، وهناك حقيقة يجب ألا تغيب عن البال ، وهى أن الأيوبيين ساهموا بطريق غير مباشر على تقوية نفوذ الإسلام فى منطقة النوبة السفلى ، لأنهم أجبروا بنى الكنز على النزوح إلى تلك المنطقة من النوبة [4].

1- Yusuf Fadl , The Arabs and the Sudan , p. 38 .

٢- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٩٠ .

٣- ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص٤٧ ؛ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٥ ص٢٨٧-٢٨٨ .

٤- سر الختم عثمان على : العلاقات بين مصر والسودان فى العصور الوسطى ، ص١٨٣ .

ومن المرجح أن النفوذ الفعلى لملك النوبة على منطقة المريس قد زال بعد أن نزح إليها أولاد الكنز ، وصبغوها بالصبغة العربية . ويدل على ذلك أن السلطان الظاهر بيبرس عندما أرسل حملته على النوبة عام ٦٧٤هـ (١٢٧٥م) ، كان صاحب الجبل - حاكم منطقة المريس - يحمل اسما عربيا ، هو قمر الدولة [١]. وقد أظهر قمر الدولة هذا جهداً كبيراً فى مساعدة الحملة المملوكية ، وامدادها برجال كلما احتاجت لذلك ؛ وقد تمكنت تلك الحملة من فتح بلاد النوبة ، ثم العودة إلى القاهرة حيث احتفل بيبرس بقدومها احتفالاً كبيراً [٢].

ومن المسلم به أن فتح النوبة فى عهد السلطان الظاهر بيبرس مد حدود مصر الإسلامية جنوبى أسوان ، مما أفاد القبائل العربية فى هجرتها إلى بلاد النوبة ، وأعطاها حرية التحرك أكثر من ذى قبل . علي أن بيبرس إذا كان قد تمكن من إخضاع بلاد النوبة لنفوذ المماليك فى مصر ، فإن المسيحية لم يضعف شأنها فى تلك البلاد إلا بعد أن أقام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ملكا مسلما على عرشها بدلا من ملك مسيحى[٣] . وقد استفاد بنو الكنز من تلك السياسة التى انتهجها الناصر محمد بن قلاوون ، فاستطاع كنز الدولة اغتصاب عرش النوبة عام ٧٢٣هـ (١٣٢٣م) بعد أن تحدى السلطان ، على الرغم من الحملات التى أرسلها المماليك لتحول دون أن يعتلى عرش دنقلة ملك مسلم ينحدر من أصل عربى صحيح[٤] ، وإذا كان كنز الدولة قد استغل حقه المشروع فى اعتلاء عرش النوبة طبقا لنظام وراثة الأم عند النوبيين الذى يمنح حق الإرث لابن الأخت دون ولد الصلب ، فان ذلك لم يكن يفيده فى كثير أو قليل ، لولا ما اجتمع إليه من قوة العرب المهاجرين الذين التفوا حوله [٥].

ومنذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادى أخذت القبائل العربية تتدفق صوب الجنوب بعد سقوط مملكة دنقلة فى أيدى بنى الكنز عام ٧٢٣ هـ (١٣٢٣م) . ومن تلك القبائل قبيلة

١- المقريزى : السلوك ، جـ١ ص٦٢١-٦٢٣ .

٢- سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص٧٦-٨٠ .

٣- جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون فى مصر ، ص١٥٥ .

4- Arkell , A Hist . of the Sudan ., p . 198 ;

سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٩٣-٩٦ .

٥- مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ، ص١٧٤ .

جهينة التى اندفعت إلى بلاد النوبة ، وتزوجت من النوبيين ، ونجحت فى كسر شوكة ملوك علوة ، وقد حاول ملوك علوة أن يقفوا فى وجه جهينة ولكنهم لم يتمكنوا ، إذ دهم علوة التفتت والإنقسام ، وعانت الكثير من غارات الزغاوة والمنحدرين من برنو عبر دارفور ، ولم يجدوا بدًا من أن يصهروا إلى زعماء جهينة كما أصهر بنو الكنز إلى ملوك دنقلة [١]. ويوضح ماكمايكل الطريق التى سلكتها جهينة وفزارة وغيرهما من القبائل العربية . فيبدو أن البعض منهم اندفع فى اتجاه الجنوب الشرقى من أسوان وكرسكو نحو بلاد البجة ، حيث الزرع القليل، ولكن ذلك الطريق يتميز بصعوبته ، فالماء نادر والكلأ قليل ، هذا وإن كانت الغالبية العظمى من القبائل العربية قد سلكت الطريق النيلى المؤدى إلى دنقلة حيث استقر البعض فيها [٢]. وتحركت جموع أخرى من العرب صوب الجنوب والجنوب الغربى من كورتى بحذاء وادى المقدم ، ومن دبة بحذاء وادى الملك فى كردفان ، ومن هناك انتشر العرب على شكل مروحة فى دارفور إلى الغرب ، وبحذاء النيل الأبيض عبر صحراء بودا والنيل الأزرق جنوب شرقى حدود الحبشة[٣] . ومما لاشك فيه - كما يرى ماكمايكل - أن العرب وجدوا مقاومة من الأهالى ، فضلا عن حدوث حروب متفرقة لسنوات عديدة ، وانتهى الأمر إلى التصاهر والاندماج ووقوع سهول السودان الشمالية والوسطى فى أيدى العرب [٤]. وعلى أية حال ، فإن بلاد النوبة أضحت منذ القرن الرابع عشر الميلادى وطنًا ليس للنوبيين فقط ، بل شاركتهم فيه قبائل عربية كثيرة من غير بنى الكنز ، ولم يعد الشلال الثانى حاجزاً يمنع تدفق القبائل العربية نحو الجنوب [٥]. وكان انهيار مملكة مقرة المسيحية (مملكة دنقلة) ، مما فتح الباب أمام هذه القبائل لتمضى فى توغلها نحو الجنوب ، مضت جنوبا حتى منطقة النيل الأزرق ، بل مضى عرب جذام غربا ، واجتاحوا مملكة الزغاوة وسيطروا على دارفور واتخذوا من هذه المنطقة قاعدة لشن

١- ابن خلدون : العبر ، جـ٥ ص٤٢٩ ، حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية ، ص٢٩٨-٢٩٩ .

2- Mac Michacl , The Coming of the Arabs to the Sudan ., p 55 .

3- Ibid ., pp . 55-56 .

4- Tbid ., p. 56 .

٥- حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية ، ص٥٨ .

غاراتهم على ما جاورها من أقاليم ، ووصل بهم تجوالهم حتى مملكة برنو ، بدليل ما جاء من شكوى سلطان برنو إلى السلطان المملوكي الظاهر برقوق عام ٧٩٤هـ (١٣٩١م) من هؤلاء الأعراب (١).

وإذا كانت أسوان هي القاعدة الوحيدة التي عبرتها العروبة منطلقة من مصر الإسلامية إلى بلاد النوبة والسودان ، فانها كانت أيضا أحد المعابر الرئيسية التي أوصلت الإسلام والثقافة الاسلامية إلى بلاد البجة في الصحراء الشرقية ، فمناطق البجة الحالية - كما أسلفنا القول - لم تكن تشغل المساحة التي احتلتها مواطن البجة القديمة ، إذ تمتد حاليا من البحر الأحمر شرقا إلى نهر عطبرة ثم النيل الأكبر غربا ، ومن المنحدرات الشمالية لهضبة الحبشة في الجنوب إلى نهاية محافظة أسوان شمالا (٢). وسكان البجة لهم اتصال شديد بأهل مصر منذ الأزمنة القديمة ، ومن أجل هذا كانوا يتأثرون بسرعة بكل تطور يحدث في مصر (٣).

وقد اعتبر المسلمون شعوب البجة في صدر الإسلام قبائل وثنية ، غير جدير بالتحالف معها ، ولم تبدأ المفاوضات معها إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة ، عندما عقد معها عبد الله بن الحبحاب اتفاقا تجدد في أيام الخليفة العباسي المأمون (١٩٨-٢١٨هـ / ٨١٣-٨٣٣م)(٤). أما الاتصال بين القبائل العربية وقبائل البجة ، فقد حدث عندما بدأ العرب يفدون إلى أسوان ومنها إلى أرض البجة ، بعد أن سمعوا بمعادن الذهب الموجودة بها ، وخاصة منطقة العلاقي التي كان أقرب طريق إليها يبدأ من أسوان . وفي ذلك يقول المسعودي(٥) : « وأقرب العمارة إليه (معدن الذهب بالعلاقي) مدينة أسوان» . على أن مناجم الذهب بالعلاقي لم تكن الوحيدة في الصحراء الشرقية ، بل وجدت مناجم أخرى كثيرة متناثرة يفضي إليها من مدينة أسوان (٦).

١- القلقشندي : صبح الأعشى، جـ٨ ص١١٦-١١٧؛ حسن محمود: الاسلام والثقافة العربية ، ص٥٨ .

٢- محمد عوض محمد : السودان الشمالي سكانه وقبائله ، ص٢٣ .

٣- محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الإفريقية ، ص٢١٥ .

٤- دائرة المعارف الاسلامية ، مادة البجة ؛ المقريزي : الخطط ، جـ١ ص١٩٤ .

٥- مروج الذهب ، ص٢٦ ؛ ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص٢٥٥ .

٦- اليعقوبي : البلدان ، ص٣٣٤-٣٣٥ .

ولعل أول معاهدة عقدت بين البجة ومصر الإسلامية ، عقدت عام ٢١٦هـ (٨٤١م) ويتضح منها أن الإسلام قد شق طريقه إلى مواطن البجة قبل بداية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، لأن وجود المساجد ودخول المسلمين لقبض صدقات من أسلم لخير دليل على انتشار الإسلام ، سواء كانوا من العرب الذين استقروا هناك أو من البجة الذين اعتنقوا الدين الإسلامى نتيجة اختلاطهم بالعرب[١] . ولابد أن عدد المسلمين فى ذلك الوقت كان كبيراً جداً ، وكانوا منتشرين انتشاراً واسعا ، لأن عمال أمير المؤمنين لاينتقلون لقبض دراهم معدودة من أفراد قلائل[٢] . ويبدو أن جماعات من قبائل بلى وجهينة قد خرجوا لغرض التجارة فى بلاد البجة ، أو جذبتهم معادن الذهب عقب الفتح الإسلامى لمصر [٣]. وعندما انهارت الخلافة الأموية عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) ، وأعمل العباسيون السيف فى بنى أمية ، هربت جماعة منهم إلى بلاد البجة ، واستقر بعضهم فى ميناء باضع ، ودلت الكشوف الأثرية على وجود شواهد قبور إسلامية يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الثامن الميلادى[٤] . كما دلت الأبحاث الأثرية على وجود مسجد فى ستكات يرجع تاريخ بنائه إلى عام ٢١٦هـ (٨٣١م)[٥] .

وقد شهد القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) نزوح أعداد هائلة من الجماعات العربية والمغامرين إلى أوطان البجة ، جريا وراء الذهب الذى تسامع به الناس فى أنحاء الدولة الإسلامية [٦]. وقد لعبت تلك الجماعات والمغامرين دوراً بارزا فى نشر الإسلام فى أوطان البجة . ومن الشخصيات الفذة التى أدت دورها كاملا فى هذا الصدد ، شخصية عبد الله بن عبد الحميد العمرى الذى أثاره خير المعدن ، فاشترى عبيداً للعمل بالمناجم ، وسار إلى أسوان على سبيل التجارة ونزل بها ، وجالس شيوخها وعلماءها[٧] . ثم دخل أرض البجة عام

١- مكى شبيكة : السودان عبر القرون ، ص٢٧ .

٢- محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية ، ص٣١٥-٣١٦ .

٣- مكى شبيكة : السودان عبر القرون ، ص٢٧ .

٤- المرجع السابق ، ص٢٧-٢٨ ؛ مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ، ص١١٨ .

٥- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٩٥ .

٦- المقريزى : المقفى ، ص٤ .

٧- الخطط ، جـ١ ص١٩٥ .

٢٥٥هـ (٨٦٨م) ، ومعه ربيعة وجهينة وغيرهما من العرب ، ولابد أن عددهم كان هائلا ، بدليل ما قاله المقريزى [١]: «فكثرت بهم العمارة فى البجة حتى صارت الرواحل التى تحمل الميرة (المؤن الغذائية) إليهم من أسوان ستين ألف راحلة» . وبعد مقتل العمرى ، استطاعت قبيلة ربيعة أن تتغلب على من خالفها من القبائل العربية الأخرى ، وتزوج رجالها من بنات رؤساء البجة ، ويذكر المسعودى[٢] أن أمير البجة فى وقته - وهو عام ٣٣٢هـ (٩٤٣م) - أبو مروان بشر بن اسحاق وهو من ربيعة ، يتحكم فى جيش قوامه ثلاثة آلاف فارس من ربيعة ومن حالفها من العرب ، وثلاثين ألف من الحدارية على الإبل . وقد أحدثت المصاهرة تفتتا كبيراً فى العصبية المحلية لقبائل البجة[٣] . والواقع أن العرب فى أراضى البجة ظهروا كعنصر ارستقراطى فرض زعامته على شعوب البجة ، وقد نتج عن مخالطتهم واندماجهم فيهم انصهار فى السلالة من ثمرته فى الوقت الحالى العبابدة والبشارية والهدندوة وبنى عامر ؛ ومن المشاهد أن البجة الذين اعتنقوا الدين الإسلامى احتفظوا بلغتهم القديمة[٤] . وإذا كان البجة قد احتفظوا بتلك اللغة التى تسمى « التبداوية» وهى لغة حامية غير مكتوبة ، فقد تسرب إليها قدر كبير من الألفاظ العربية ، كما أثرت اللغة العربية فى بعض الصيغ النحوية لتلك اللغة[٥] . وتؤلف قبائل بنى عامر والهدندوة و البشارية والعبابدة وحدة متجانسة من الناحيتين الفسيولوجية واللغوية ، ويشملهم جميعا اسم البجة الذى أطلقه العرب عليهم[٦]. وهنا نلاحظ أن جماعات البجة التى نزحت من الصحراء الشرقية ، وسكنت ضفاف النيل وقرى أسوان ، قطعت الصلة باللغة التبداوية ، ولم تعد تتحدث إلا باللغة العربية .

وتبع انتشار الإسلام بين شعوب البجة تغيير شامل فى عاداتهم ومعتقداتهم ، فغيروا أسماء أبنائهم واستبدلوها بأسماء مسلمة مثل محمد ، كما صاروا يدفنون موتاهم على

١- الخطط ،جـ١ ص١٩٥-١٩٦ ؛ المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ص١٨ .

٢- المسعودى : نفس المصدر والمكان .

3- Mac Michael , The Coming of the Arabs to the Sudan , p. 52 .

4- Ibid ., pp. 52-53 .

٥- محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، ص٣٦ .

٦- عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، ص٢٢٢ .

الطريقة الإسلامية بأن وجهوا رؤوس موتاهم تجاه مكة [١]. وقد حدث ذلك التغيير حوالى ١٠٠٠-١٣٠٠م ، وينسب إلى تلك الفترة أيضا أبراج الحراسة الساحلية من الحجر ، والمقابر التى تأخذ شكل ذيل السمكة فى أركويت ، وجبانة الموتى فى (مامان شمال كسلا) [٢].

ومما لاشك فيه ، أن طريق الحج الذى كان يبدأ من أسوان ، مخترقا الصحراء الشرقية إلى أن يصل ميناء عيذاب على ساحل البحر الأحمر ، ومنها إلى جدة ، ذلك الطريق كان من العوامل التى ساعدت على انتشار الإسلام بين شعوب البجة ، ففى تصورنا أن من بين الحجاج علماء مسلمين، عملوا على نشر التوعية الإسلامية بين الوثنيين من البجة ودعوهم إلى الإسلام.

أما التجارة ، فانها لعبت دورها الهام فى نشر الإسلام بين النوبيين والبجة ، ذلك الدور الذى لايقل أهمية عن الدور الذى قامت به هجرة القبائل العربية إلى تلك البلاد . وإذا عرفنا أن أسوان كانت أحد الثغور الهامة لتجارة مصر الخارجية فى العصور الوسطى ، لتصورنا مدى مساهمة أسوان فى الدور الذى لعبته التجارة لنشر الإسلام والدعوة إليه .

ويرى توماس أرنولد[٣] أن الدعوة إلى الاسلام كانت إلى حد كبير فى أيدى التجار ، فمهنة التجارة تنأى بصاحبها عن مواضع الشك والريبة ، بخلاف الأجنبى الذى يثير الشبهات، كما أن التاجر فى نشره للدعوة الإسلامية لايقع فى المساوئ التى تعرقل مهمة الداعى المحترف . ويرى بعض الباحثين أن نشر الدعوة الإسلامية واجب ملقى على عاتق كل مسلم أينما كان فى الأرض عملا بالآية الكريمة : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة والحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن» ، ويأتى التاجر فى مقدمة صفوف العاملين فى هذا الميدان فى عصور سابقة لم تكن تعرف رسالة الجمعيات التبشيرية التى نشاهدها فى العصر الحديث [٤].

وقد حرص عبد الله بن سرح على وضع شرط فى معاهدة البقط يضمن للتجار المسلمين حرية المرور والتجول داخل بلاد النوبة ، لتصريف السلع الآتية من مصر ، وابتياع سلع بلاد النوبة ، فهذا الشرط يقول : « على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلدكم

1- Newbold , The Bigatribes of Red Sea Hinterland ., p. 149 .

2- Ibid ., p. 149 .

٣- الدعوة إلى الإسلام ، ص٠ ٣٥ .

٤- قسطنطين زريق : التجارة الاسلامية وأثرها فى الحضارة ، ص٥٤٧-٥٤٨ .

مجتازين غير مقيمين فيه »[١]. ونستشف من ذلك الشرط أن التجار المسلمين قد زاولوا مهنة التجارة فى بلاد النوبة قبل إبرام تلك المعاهدة ، وهناك ما يؤيد ذلك ، فقد جاء فى نص كتاب الأمان الذى كتبه عمرو بن العاص إلى أهالى مصر بعد أن أمضوا الصلح ، جاء فيه ذكر النوبة ما يلى : «ولايمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة» [٢]. إذاً لم تكن تلك المعاهدة تضع أساسًا للمستقبل ، بقدر ما كانت تقرر حقيقة موجودة من قبل [٣]. كما يؤيد ذلك أيضا نص جاء فى معاهدة البقط يتضمن صيانة مسجد المسلمين والمحافظة عليه ، إذ يقول ذلك النص : «وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بفضاء مدينتكم ولاتمنعوا منه مصليا ، وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته»[٤] . ويبدو من المحال أن الحملة السريعة التى قام بها عبد الله بن سعد بن سرح على النوبة قد قامت ببناء مسجد للمسلمين فى الفترة القصيرة التى مكثتها. ومن المرجح أن ذلك المسجد قد بناه تجار المسلمين من قبل ، لأداء شعائرهم الدينية .

ومن المؤكد أن قوافل التجار المسلمين التى ترددت على بلاد النوبة لم تنقطع فى وقت ما ، ويزداد نشاطهم التجارى والدينى كلما نمت العلاقات بين مصر الاسلامية والنوبة المسيحية ، تلك العلاقات التى بلغت الغاية من النمو فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، كما أن التجار النوبيين المنحدرين إلى بلادهم من مصر - عبر أسوان - كانوا يتحدثون عن أحوال البلاد الدينية والثقافية ، ويتأثرون بما يرون من معالم الحضارة والرقى [٥]. ولاريب أن مناطق الحدود غالبا ما تكون مصدرا اشعاع حضارى وفكرى يستقى منه .

وقد سبق الإشارة إلى أنه من السلع التى كانت تلقى رواجًا واسعا فى أسوان مصر سلعة الرقيق ، فقد اشتد الطلب على الرقيق منذ درج الولاة على تجنيدهم فى جيش مصر الاسلامية. فانخرط سكان السودان فى سلك الجندية منذ أيام الطولونيين ، واستمرت الحاجة إليهم فى عهد الاخشيديين ، ثم ازداد عددهم فى عهد الفاطميين ، خاصة فى عهد المستنصر بالله لأن أمه كانت سودانية ، وهؤلاء الجند كانوا يعتنقون الدين الإسلامى، ومنهم من كان يعود إلى

١- المقريزى : الخطط ، جـ١ ص١٩٩ . ٢- ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٧ ص٩٨ .

٣- حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ، ص٢٨٦ . ٤- الخطط ، جـ١ ص١٩٩ .

٥- حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية ، ص٢٨٦ .

مـسـقط رأسـه ، وليس من المسـتـبـعـد أن يكون من بينهم أحسن الدعـاة إلى الإسـلام بين مـواطنيـهم[١]. ولاشك أن تجارة الرقـيق سهلت الهجرة العربية إلى بلاد النوبة ، فجلب العبيد من بلاد السـودان حرم تلك البلاد من العنصر الشاب فيـها ، مما فتح الطريق للقبائل العربـية ، كـمـا أن التـجـار المسلمين بتـوغلهم في بلاد النوبة والسـودان عـرفـوا مـسـالك الطريق ، وفي ترحالهم من منطقة إلى أخرى داخل السودان كانوا خير دعاة للإسلام [٢].

وعلى أية حـال يمكننا القـول أن أسـوان كانت بمثابة عنق الزجاجة التي مـرت منهـا القـبـائل العـربيـة إلى السـودان منذ أوائل الفـتح العـربي لمصـر ، حـاملة مـعـهـا الدم العـربي والديانة الإسـلامـيـة كـمـا أن دورها في تجارة النوبة والصـحـراء الشـرقـيـة سـاهم بنصـيب وافـر في نـشـر الإسلام . وإذا كانت هجرة القبائل العربية والتجارة هما القوتان الأساسيتان اللتـان سارتا جنبا إلى جنب من أجل نـشر الإسـلام جنوب أسـوان ، فـلاينبغي أن ننسى الدور الذي قـامت به بقـايا الجيوش المتحاربة والفارين من الضغط السياسي في نشر الاسلام والثقافة العربية .

١- المرجع السابق ، ص٢٨٦-٢٨٧ .

٢- يوسف فضل حسن : المعالم الرئيسية في الهجرة العربية إلى السـودان ، ص١١٤-١١٥ .

الفصل الرابع

البناء الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى

نزوح العرب إلى أسوان - أسباب ذلك - دور شواهد القبور فى معرفة البناء الاجتماعى لأسوان - مناقشة الآراء حول شواهد القبور - عروبة مصر تبدأ بالفتح العربى - القبائل العربية التى ساهمت فى الفتح - انقسام العرب فى أسوان إلى عدنانيين وقحطانيين .

(أ) القبائل العدنانية التى سكنت أسوان : قريش - العباسيون - الطالبيون - الأشراف - الجعافرة - بنو أمية - العمريون - البكريون - بنو سهم - بنو مخزوم - بنو زهرة - ربيعة (بنو الكنز) - بنو عنزة - بنو شيبان - مضر قيس عيلان - بنو هلال - بنو تميم- بنو ضمرة .

(ب) القبائل القحطانية التى سكنت أسوان : جهينة - بنو كلب - الأزد - الأنصار - خولان - بنو النخع - مراد - لخم - تجيب - المعافر - الصدف - الكلاع - خزاعة - غافق - بنو جعد - بنو أجدع .

قبائل من المرجح أنها سكنت أسوان : سعد العشيرة - بلى -بهراء .

القبائل العربية أوجدت النظام القبلى بأسوان - الهجرات الفردية من خارج مصر إلى أسوان - هجرة الأفراد من داخل مصر إلى أسوان - طبقة الموالى - شعوب البجة بالصحراء الشرقية - أوطان البجة - اختلاط العرب بالبجة - قبائل البشارية - قبائل العبابدة - النوبيون الخلص - التكارورة (التكارنة) - طبقة العبيد - العناصر السكانية التى وفدت إلى أسوان أواخر العصور الوسطى : المهاجرون من عرب الأندلس - المماليك - الأتراك .

تعقيب - الطابع العام للبناء الاجتماعى فى أسوان العصور الوسطى .

حفلت مدينة أسوان فى العصور الوسطى بعناصر سكانية عديدة ومتباينة ، ينتمى معظمها إلى الجنسين السامى والحامى ، فضلا عن أجناس أخرى أقل نقاوة ، وتتمثل تلك العناصر التى تلاقت على أرضها ، فى القبائل العربية التى احتلت قمة الهرم الاجتماعى ، النوبيين ، والبشارية . والعبابدة ، بالإضافة إلى الهجرات الفردية الوافدة من أنحاء العالم الإسلامى ومختلف مدن مصر الإسلامية ، والتكاررة (التكارنة) ، والسودانيين ، والمماليك ، والمهاجرين المسلمين من الأندلس ، والأتراك ، وغيرهم .

وقبل أن نتناول الحديث عن البناء الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى ، ينبغى القول أن مصر فى العصور الوسطى في الفترة الواقعة بين الفتح العربى والفتح العثمانى ، وهى فترة تمتد حوالى تسعة قرون (٦٤١-١٥١٧م) ، كانت ولاتزال جزءاً من العالم الإسلامى ، ولاحاجة بنا إلى القول أن الإسلام لايعرف العرقية أو القومية بالمعنى الذى يدل عليه هذا المصطلح فى الوقت الحاضر ، وهو المصطلح الذى ظهر فى أوربا فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، وفى خلال القرن التالى الذى عرف بعصر القوميات . لقد كانت مصر قادرة على امتصاص واستيعاب الأسرات الحاكمة الوافدة عليها ، والجيوش والجماعات التى رافقتها ، والتى جاءت فى إثرها ، وغيرت تكوينها العرقى والثقافى والحضارى ، فمصر ذاتها سبيكة منصهرة متلاحقة من الأعراق والأجناس ، لايعرف بعضها البعض ، وتتعايش معا بلا تمايز وبلا تفرقة . وفي ذلك يقول الدكتور جمال حمدان[1] : «فى مواجهة موجات الغزو الخارجى ، كانت مصر تمارس «الغزو من الداخل» بمعنى أنها كانت دائما تتمتع بقوة تصهرها - كأنها البوتقة - فى الجسم الكبير» . ويكاد يتفق هذا القول تماما مع ما أشار إليه الدكتور سليمان حزين[2] فى سياق حديثه عن سكان مصر ، إذ قال : «ولكن الاختلاط بين سكان مصر يمتاز بأنه قديم ، وبأنه بلغ حد الامتزاج والتداخل التام بين الصفات الجنسية الأصلية والوافدة . ولقد أعطى ذلك أهل مصر قوة ، وساعدهم على «هضم» من اختلط بهم وعلى تمثيل العناصر الدخيلة تمثيلا لم يلبث معه أن انمحى الأثر الوافد ، أو تلاشى فى الصفة الأصلية ، بعد أن عدلها بعض التعديل » .

١- شخصية مصر ، جـ٢ ص٣١٧ .　　٢- حضارة مصر ، ص٢٦٩-٢٦٢ .

وعلى أية حال ، فقد حدث في أعقاب الفتح العربي لمصر مباشرة ، أن نزحت أعداد غفيرة من القبائل العربية إلى أسوان ، إذ تضافر أكثر من سبب جعل العرب يندفعون إليها ، على الرغم من مناخها الحار ، وبيئتها النائية شبه المنعزلة . من ذلك ما سبق أن أشرنا إليه من أنها كانت تعتبر أحد الأربطة التي رابط المجاهدون فيها ، بغرض صد هجمات مملكة النوبة المسيحية على حدود مصر الجنوبية . ومن المعروف أن أولئك المجاهدين ، تألفوا من القوات العربية المحاربة ، التي وقع على كاهلها عبء حماية الثغور والأطراف في الدولة العربية الاسلامية . فلم يسمح لهم في بادئ الأمر بممارسة أية مهنة ، فيما عدا مهنة الحرب ، فمنعوا من الزراعة «فلا يزرعون ولايزارعون» [1]. لذلك فانهم تقاضوا مرتبات ، منحت لهم من ديوان العطاء ، وهو الديوان الذي بلغ عدد المقيدين فيه من العرب في مصر- زمن معاوية بن أبي سفيان- أربعين ألف[2]. هذا إلى أن تجارة الرقيق التي اشتد التكالب عليها في البلاد الاسلامية ، جعلت بعض العرب يندفعون إلى أسوان للمشاركة فيها ، ولاينبغي أن ننسى أن أسوان كانت مسلكا للحجيج إلى مكة المكرمة في القرون الإسلامية الأولى .

وثمة دليل مادي هام ، اعتمدنا عليه في وصف التركيب الاجتماعي لأسوان في العصور الوسطى ، إلى جانب ما سبق أن عرضناه في ثنايا الفصول السابقة ، من حوادث تتصل بالحياة السياسية والاقتصادية والأدبية والثقافية لتلك المدينة . ذلك الدليل هو شواهد القبور[3] التي أسفرت عنها الحفريات التي أجريت في جبانة أسوان . وقد جعلتنا تلك الشواهد نلمس بشكل واضح أن علم الآثار يأتي في مقدمة العلوم التي تخدم التاريخ . وقد حفرت على تلك الشواهد نقوش توضح تاريخ الوفاة لشخصيات من جنسيات متعددة ، عاشت في أسوان منذ الفتح العربي لمصر . ومن الملاحظ أن الكتابة نقشت على الأحجار والرخام بالخط الكوفي ، إما حفراً وإما بارزاً .

١- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص٢١٧ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ، جـ١ ص٦٧-٦٨ .

٢- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص١٤٦ .

٣- سبق الإشارة إلى أن الأستاذ عبد الرحمن عبد التواب مدير الآثار الإسلامية والقبطية قام باجراء حفريات في جبانة أسوان في المدة من ديسمبر ١٩٦٠ حتى منتصف عام١٩٦٣م . وقد نشر من تلك الحفريات ثلاثة أجزاء في أعوام ١٩٧٧ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٦ ، وينتهي الجزء الثالث بشواهد القبور التي تحمل عام ٣٣٩ تاريخا للوفاة ، وثمة ملاحظة أدلى بها إلينا سيادته مشافهة لمن يبغي دراسة شواهد القبور التي عثر عليها =

ويرى بعض الباحثين ، أن اسم المتوفى فى معظم شواهد القبور التى عثر عليها فى مقابر أسوان ، يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة ، أما فى غضون القرن الثالث ، فقد لوحظ أن اسم القبيلة ، حل محلها اسم الجهة أو الإقليم الذى ينتسب إليه المتوفى ، فيكتب فلان الكوفى أو المصرى ... الخ [١]. كما يرى البعض أنه بدراسة نسب المتوفين فى تلك الشواهد اتضح أن أغلبهم ينتمون إلى القبائل التى جاءت إلى مصر مع الجيش الفاتح ، والقليل منهم نسب إلى الموطن ، ولم تبتدئ عادة الانتساب إلى المواطن فى تلك الشواهد إلا بعد سنة ٢٠٠هـ [٢]. وعلى أية حال ، فقد لاحظنا أثناء دراستنا لشواهد قبور جبانة أسوان ، أن كتابة اسم المتوفى منتسبا إلى قبيلته لايقف عند نهاية القرن الثانى الهجرى ، بل يمتد حتى القرن الخامس الهجرى ، فعلى سبيل المثال لا الحصر : أبو راشد سعيد بن ميمون بن يحيى بن سوار التجيبى (ت ٢٤٧هـ)[٣] ، وأحمد بن محمد بن عيسى القرشى (ت ٢٥٧هـ)[٤] ، وفاطمة ابنة مروان بن عبد الملك الخولانى(ت٣٢٨هـ)[٥]، والحسين بن الفضل أحمد بن سليمان

= فى مقابر أسوان من قبل ، فمن المعروف أن كتاب Steles Funeraires الذى يحتوى على نقوش لشواهد قبور عثر عليها فى مقابر مصر الاسلامية ، خاصة مقابر الفسطاط وأسوان ، يقع ذلك الكتاب فى عشرة أجزاء ، ألف الجزء الأول والثالث منه حسن الهوارى وحسين راشد ، أما بقية الأجزاء فقد ألفها جاستون فييت، وقد جاء فى مقدمة ذلك الكتاب أن ٢٥٠ شاهداً أصلها من مدافن أسوان ، وردت لمتحف الفن الإسلامى بتاريخ ١٤ يناير ١٩٠٤م ، وتحمل تلك الشواهد رقم ٣١٥٠. أما شواهد القبور الموجودة بمتحف الفن الاسلامى حاملة رقم ١٥٠٦ م وعددها ١٠٠٠ شاهد ، فهى هدية من مصلحة الآثار المصرية ، وأصلها من مدافن بالوجه القبلى . وقد أكد الأستاذ عبد التواب بعد الدراسة التى استخلصها للكتالوجات ولمحاضر اللجنة الدائمة للآثار الاسلامية ، أن غالبيتها وردت أصلا من أسوان . وينطبق ذلك أيضا على شواهد القبور التى تحمل رقم ٢٧٢١ والتى جاء فى ذكر مصدرها : وجدت بمخازن المتحف .

1- Wiet , Precis de l'Histoire d'Egypte ., Tom . II , p. 219 ;

سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص٢٥٨ .

2- Catalogue general du Musee Arabe - Steles Funeraires Vol . I , par Hassan Hawary et Husein Rached .

3- Wiet , Steles Funeraires , Vol . II , p. 111 .

4- Hawary et Rached , op . cit., vol , III , p. 78 .

5- Wiet , op . cit ., vol . V,p. 34 .

العباسي (ت ٤٠٢هـ)[١]، وأحمد بن صدقة بن بن أحمد بن سيار بن أحمد المخزومي (ت ٤١٠هـ) [٢]، محمد بن سليمان الأنصاري (ت ٤٢١هـ)[٣] . كما لاحظنا أيضا ، أن شواهد عديدة مصدرها الأصلي أسوان ، زكر فيها اسم المتوفي ، خاليا من الانتساب إلى قبيلته أو موطنه . أما عن شواهد القبور التي جاء بها اسم المتوفي فلان الأسواني ، فمن المرجح أنها لشخص من أسوان توفي بعيداً عنها في مكان ما ، وبعد أن تم دفنه ذكر اسمه على الشاهد منسوبا إلى موطنه أسوان . ومثال ذلك الشاهدين الوحيدين اللذين عثر عليهما في مقابر عين الصيرة ، فالأول لعبد الله بن محمد بن ذكريا الأسواني (ت ٢٥١هـ)[٤] ، والآخر لعمر بن ابراهيم الأسواني (ت٢٧٥هـ)[٥] . هذا وإن كنا في حالات نادرة وجدنا شواهد قبور مصدرها الأصلي أسوان ، جاء بها ذكر المتوفي منتسبا إلى وطنه أسوان [٦]. وثمة شواهد قبور عثر عليها في جبانة أسوان ، يرجع تاريخها إلى القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وما يليه، جاءت خلوا من ذكر اسم قبيلة المتوفي أو الاقليم الذي ينتمي إليه ، وبدلا من ذلك جاء بها اسم المتوفي مضافا إليه نوع المهنة التي مارسها في حياته ، سواء كان خياطًا أو عطارا أو نجارا أو صيادا أو طحانا أو خبازا أو فرانا الخ ... منها : محمد بن حسن الخياط (ت٢٤٣هـ)[٧] ، ومحمد بن ناصح الصباغ (ت ٢٤٩هـ) [٨] ، وأحمد بن نادي الخباز (٢٤٤هـ)[٩] ، ، وجعفر بن يعقوب الصياد (ت٢٤٩هـ) [١٠]، ومحمد بن مسلم الطحان (ت ٢٨٠هـ)[١١] ، محمد بن علي بن حجاج بن صالح الجلاب (ت ٢٨٧هـ)[١٢] ، وعلي بن حسن

١- حفريات عبد الرحمن عبد التواب (لم تنشر) .

2- Wiet , op . cit ., vol . VI , p. 57 .

٣- حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

4- Wiet , Steles Funeraires, vol . II , p. 185 .

5- Ibid ., vol . IV, p . 33 .

6- Steles Funeraires, vol . I, p.127, 161, 174, vol . III, p. 100 , vol . IV , p. 8 , vol VIII,p.64.

7- Abd Al Rahman Abd Altawab, Steles Islamiques de la Necropole of Assouan, vol.I, p.60.

8- Ibid ., p. 66 .

9- Wiet , op . cit ., vol . II , p. 61 .

10- Wiet , op . cit ., vol . V , p. 350 .

11- Steles Islamiques de la Necropole d`Assouan vol . I, p. 94 .

12- Ibid ., vol . II , p. 94

بن سويد البناء (ت ٣٥٠هـ)[١] ، والحسن بن محمد بن ابراهيم بن سلمة الصائغ (ت ٤٢٧هـ)[٢]. ونخلص من ذلك إلى أن ذكر اسم قبيلة أو وطن المتوفى فى شواهد قبور جبانة أسوان ، ابتداء من القرن الثالث الهجرى ، ليس قاعدة عامة نستطيع أن نسير عليها ونطبقها عند دراسة وتصنيف تلك الشواهد .

ومما لاشك فيه ، أن الفتح العربى لمصر ، وضع اللبنة الأولى فى عروبتها الحقيقية ، فقد تألف الجيش الفاتح من نحو إثنى عشر ألف مقاتل ، غالبيتهم من القبائل العربية المختلفة . وقد ذكر ابن عبد الحكم أسماء القبائل العربية التى هبطت مصر وقت الفتح ، واتخذت لها خططا حول المسجد الجامع (جامع عمرو بن العاص) ، أهمها : قريش - الأنصار - أسلم - غفار - بنو جمع - بنو الليث - جهينة - ثقيف - المعافر - بنو معاذ - عنزة من ربيعة - بلى - الأزد - مهرة - غافق - الصدف - تجيب - مراد - خولان - ملحج - حمير - بنو وائل - الكلاع - بنو بحر - بنو فهم - يرفأ - شجاعة - هذيل - جذام - غنث - حضرموت- يحصب - لخم . ولم يقف تيار الهجرات العربية إلى مصر عند مرحلة الفتح ، بل وفد إليها بالتدريج كثير من القبائل والجماعات العربية فى القرون التالية . ولانسطيع متابعة كل الهجرات النازحة إلى مصر عقب الفتح ، لأن ذلك يخرج بنا عن طبيعة الدراسة التى نحن بصددها ، وسنهتم فقط بالقبائل العربية التى وهبت أسوان عروبتها .

من الواضح أن عدداً من القبائل العربية ممن شهدت فتح مصر ، رابطت فى ثغر أسوان ، للدفاع عنه - كما قلنا - ضد غزوات مملكة النوبة المسيحية ، فضلا عن اشتراكها فى الحملات التى صار ولاة مصر يبعثون بها ، لغزو تلك المملكة المتاخمة لحدود مصر الجنوبية ، وخير دليل على ذلك شواهد قبور من أسوان ، يرجع تاريخها إلى أوائل القرن الأول الهجرى ، ففى إحداها كتب اسم عبد الله الحجازى الأنصارى ، وعلى آخر كتب اسم محمد بن عبد شمس الطائفى الأنصارى ، والاثنان من قبيلة الأنصار التى اشتركت فى معارك الفتح ، وسبق لهما القتال

1- Ibid ., vol . II , p. 110 .

.2- Wiet , Steles Funeraires , vol . VI , p. 113

٣- فتوح مصر والمغرب ، ص١٤١-١٧٥ .

فى جيش خالد بن الوليد إبان خلافة عمر بن الخطاب [١]. كما عثر على شاهد قبر من الحجر الجيرى ، عليه كتابة باسم ابن حجر الأسوانى مؤرخ ٣١هـ [٢]. ومعنى ذلك أن أسوان سكنها أقوام من العرب من القرن الأول الهجرى ، ممن عاصروا الرسول عليه الصلاة والسلام[٣].

وفى دراستنا للقبائل العربية التى سكنت أسوان فى العصور الوسطى ، نرى القحطانيين والعدنانيين ممثلين تمثيلا قويا فى تركيبها ، وفى هذا الصدد لابد أن نذكر أن العرب فى بلادهم الأصلية ، كانوا ينقسمون إلى قسمين عظيمين هما : عرب الجنوب وعرب الشمال ، أى سكان اليمن وما يليها من الأقطار فى الجنوب ، و الحجاز ونجد فى الشمال . وكان يطلق على عرب اليمن العرب العاربة ، وهم بنو قحطان بن عامر بن سالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام [٤]. أما عرب الحجاز ، فكانوا يطلق عليهم العرب المستعربة ، وهم بنو عدنان ولد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام [٥]. ولعل تسمية العرب العاربة والعرب المستعربة ، باسن قحطان وعدنان ، أنسب من لفظى الجنوبيين والشماليين ، ولاسيما بعد أن هاجرت القبائل اليمنية ، وانتشرت فى بقاع مختلفة من الحجاز ونجد وعلى حدود الشام والعراق ، فأصبح وصفهم بأنهم جنوبيون وشماليون لاينطبق على الأوضاع الجغرافية [٦]، ومن الأوفق أن نلتزم التقسيم التى كانت عليه القبائل العربية فى شبه الجزيرة العربية ، فنتحدث عن القبائل العدنانية والقحطانية ، كل منهما على حدة .

(أ) القبائل العدنانية :

هبطت غالبية تلك القبائل أرض مصر زمن الفتح ، وسكن منها أعداد هائلة أرض أسوان. وليس أدل على ذلك من قول المسعودى[٧] الذى زار مصر عام ٣٣٢هـ (٩٤٣م) : «ومدينة أسوان يسكنها كثير من العرب ، من قحطان ونزار معد بن ربيعة ومضر وخلق من قريش ، وأكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره » ، وأهم هذه القبائل التى نزلت أسوان هى :

1- De Villard , la Musulman de Aswan , pp . 1-2 .

٢- سعاد ماهر : محافظات الجمهورية فى العصر الإسلامى ، ص٨٥ .

٣- المرجع السابق ، ص٨١-٨٢ . ٤- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١ ص٣١٥ .

٥- المصدر السابق ، ص٣٣٦ . ٦- محمد عوض محمد: الشعوب والسلالات الافريقية، ص٣١٨ .

٧- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جـ٣ ص٢٢ ؛ الحميرى : الروض المعطار ، ص٥٨ .

١- قريش :

تتمثل تلك القبيلة التى سكنت أسوان بفروع عديدة لها ، نذكر منها العباسيين ، والطالبين، والبكريين أولاد أبى بكر الصديق ، والعمريين ممن ينتمون إلى عمر بن الخطاب ، وبنى الزبير ، وبنى شيبة ، وبنى مخزوم ، وبنى أمية ، وبنى زهرة ، وبنى سهم . وقد أظهر الفاطميون ميلا إلى العرب وخاصة للقرشيين ، ورحبوا بهم ، وقد توافدت قبائل قريش على بلاد الأشمونين فى منطقة الصعيد الأوسط ، حيث كونت تحالفا قرشيا ، وصارت لها السيادة على بلاد الأشمونين التى صارت تعرف باسم «بلاد قريش» [١]. وقد عثر فى جبانة أسوان على شواهد قبور ، يحمل أصحابها أسماء يجئ فى نهايتها كلمة القرشى مثل : عمارة بنت موفق بن يحيى بن عبد الله القرشى المتوفاة فى سنة ١٩٠هـ ، وآمنة بنت عبد الله القرشى المتوفاة فى سنة ١٩٨هـ[٢] ، وحسين بن يوسف بن يعقوب القرشى المتوفى سنة ٢٥٠هـ[٣] ، ورحيمة ابنة خالد بن عبد الله بن خالد القرشى المتوفاة سنة ٢٥٢ هـ ، وأحمد بن محمد بن عيسى القرشى المتوفى سنة ٢٥٧هـ[٤] .

٢- العباسيون :

هم أبناء عمومة النبى صلى الله عليه وسلم ، وينسبون إلى العباس بن عبد المطلب الذى توفى فى عام ٣٢هـ فى خلافة عثمان بن عفان ، وقد أعقب أولاداً كثيرين نذكر منهم ابنه الثانى عبدالله بن العباس الذى جاء من نسله البيت العباسى ، أما بقية أبناء العباس فلم يكن لهم عقب باق ، والمعروف أن عبد الله بن العباس يعتبر شخصية فريدة ، معروفة لدى علماء الدين ، إذ كان يؤخذ عنه رواية الحديث وتفسير القرآن الكريم . وفى خلافة عثمان بن عفان دخل مصر عبد الله بن العباس وأقام بها زمنا روى أهلها عنه الأحاديث . وبعده ظل بنو العباس لايدخلون مصر حتى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) ، ومنذ ذلك الحين حتى حوالى القرن الثالث الهجرى تتابع على مصر عدد كبير من

1- Yusuf Fadl , The Arabs and the Sudan ., p. 94 .

2- Hawary et Rached , Steles Funeraire , vol . I, p. 15-25 .

3- Wiet , Steles Funeraire , vol, II ,p. 178 .

4- Hawary et Rached , op . cit , vol . III . pp . 12-13 , p . 78 .

الولاة العباسيين من أمراء بنى العباس ، أثروا فيها من ناحية الجنس والدم[١] . ولم تكشف الحفائر التى أجريت فى أسوان حتى الآن إلا عن شاهدين لقبرين ، جاء بهما كلمة العباسى ، الأول منهما يحمل اسم طاهر بن حديج بن عبد الواحد بن كامل بن مينا بن الفرج بن عبد الله مولى عبيد الله بن السهريج العباسى (ت ٢٠٧هـ) [٢]. والآخر يحمل اسم الحسين بن الفضل بن أحمد بن سليمان العباسى (ت ٣٧٧هـ)[٣] . ، ومن العباسيين تفرعت مجموعة الجعليين ، ممن ينتسبون إلى جد أكبر يسمى ابراهيم ولقبه الجعل .وتنسب الروايات ذلك الجد إلى سعد بن فضل بن عبد الله بن العباس عم الرسول عليه الصلاة والسلام[٤] . وكان ابراهيم جواداً كريما ، ونسب إليه أنه كان يقول للجماعات التى تنضوى تحت لوائه : «جعلناكم منا» فسمى لذلك جعلا[٥]. وتمثل مجموعة الجعليين شعبا عظيما فى السودان ، وللدلالة على ذلك فانها تشتمل على عدد كبير من القبائل التى انضوت تحتها ، مثل الشايقية والرباطاب والبديرية والميرفاب والركابية والجوابرة والجموعية والجمعة والجعليين الخلص [٦]. ومن الواضح أن الجعليين كانوا يقيمون فى أسوان قبل أن ينطلقوا منها إلى السودان ، فقد عثر على شاهدين لقبرين فى مدافن أسوان يحملان كلمة الجعلى نسبة إلى جعل ، الأول باسم بركات برشبان مولى يحيى بن محمد الجعلى المتوفى فى رجب عام ٣٤٢هـ والثانى باسم ابنة عياد بن ... القوى بن محمد الجعلى المتوفاة فى رمضان عام ٣٨٥هـ [٧]. وعلى أية حال ، فان عدداً كبيرا ممن يرى أنه من سلالة العباسيين لايزال يعيش فى قرى أسوان ونجوعها ، اختلط البعض منهم بالنوبيين ، وتعلموا رطانتهم .

١- عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ص٩٤ .

2- Hawary et Rached , Steles Funeraire , vol . III, pp. 177-178 .

٣- حفريات عبد الرحمن عبد التواب (لم تنشر) .

٤- حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية فى افريقية ، ص٣٠١ .

٥- المقريزى : البيان والإعراب ، دراسة عبد المجيد عابدين ، ص١٥٨ .

٦- حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية ، ص٣٠١-٣٠٤ ؛

Yusuf Fadl : The Arabs and the Sudan , pp . 152-153 .

٧- حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

٣- الطالبيون :

من البيت الهاشمي ، ممن ينتمون إلى أبي طالب عم الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد كان لأبي طالب ثلاثة أولادهم : علي ، وجعفر ، وعقيل [١]. ويتمثل الطالبيون الذين عاشوا في أسوان العصور الوسطى في ذرية علي وجعفر أبناء أبي طالب ، التي وصفت في المصادر المعاصرة بقبائل الجعافرة ، أما ذرية عقيل بن أبي طالب ،فلم يرد في المصادر المعاصرة أية إشارة تفيد هجرة البعض منهم إلى مصر في العصور الوسطى .

ومن ذرية علي بن أبي طالب التي عاشت في أسوان أحفاد الحسن والحسين ، من فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد عرف أحفاد الحسن بالحسنيين ، أما أحفاد الحسين عرفوا بالحسينيين . ويبدو أن الحسنيين ممن عاشوا في أسوان كانوا قلة . فان الحفائر التي أجريت في أسوان لم تسفر إلا عن شاهد واحد ، يحمل اسما ينتمي إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ت ٣١٥هـ)[٢] . أما الحسينيون أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب ، فقد ذكر القلقشندي أن جماعة من الجعافرة بني جعفر الصادق (ت ١٤٨هـ) من ولد الحسين بن علي سكنوا صعيد مصر ، وكانت مساكنهم تمتد من بحري منفلوط إلى سمالوط غربا وشرقا ، ومن بطونهم الحيادرة ، وهم أولاد حيدرة ، والسلاطنة ، وهم أولاد أبي جحيش [٣]. وثمة شواهد قبور من أسوان ، ينتمي أصحابها إلى جعفر الصادق من أحفاد الحسين بن علي ، تدل دلالة قاطعة على أنهم استقروا في أسوان في العصور الوسطى . على أن ثمة ملاحظة جديرة بالانتباه ، فقد لفت نظري أثناء دراسة تلك الشواهد أن الأسماء التي تنسب إلى الحسين بن علي بن أبي طالب يسبق معظمها كلمة الشريف أو الشريفة ، ويبدو أن أحفاد الحسين بن علي هم الذين عرفوا بالأشراف دون غيرهم من ذرية علي بن أبي طالب . ومن رواية للقلقشندي[٤] ، ترجح أن لقب الأشراف قد اقتصر على أحفاد الحسين بن علي دون غيرهم ، فقد روى أن جماعة من أولاد جعفر الصادق من أحفاد الحسين ، يعرفون بأولاد الشريف قاسم سكنوا أسيوط ، كما أن دروة سربام من الأشمونيين عرفت بدروة الشريف (ديروط الشريف) نسبة إلى الشريف حصن الدين ثعلب الذي ينحدر من أولاد جعفر الصادق .

١- القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٥٩ .

2- Wiet ., Steles Funeraire ., vol . IV , p. 180 .

٣- القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٥٩ . ٤- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٥٩ .

ومن أسماء الشواهد التى يسبقها لقب الشريف أو الشريفة : الشريفة رقية ابنة معلا بن على بن الحسن بن ابراهيم بن الحسن بن الحسين عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن عبدالله الباهر بن على زين العابدين بن السبط الشهيد الحسين بن الإمام الوصى على بن أبى طالب المتوفاة عام ٤٩٥هـ ، والشريف أبا الحسن محمد بن الـ ... بن الحسن بن أحمد بن الحسن بن أبى طالب المتوفى عام ٥٣٢هـ [١]. أما اسم الشاهد الذى لم يسبقه ذلك اللقب ، فهو لآمنة بنت الحسين بن الحسن بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن محمد بن اسماعيل بن محمد بن عبدالله الباهر بن الإمام السجاد زين العابدين على بن الإمام السبط الشهيد الحسين بن الإمام الوصى أمير المؤمنين على بن أبى طالب المتوفاة عام ٤٨٤هـ[٢] . ولاجدال فى أن أولئك الأشراف من أبناء الحسين بن على قد تضاعف عددهم فى أسوان ، خاصة فى أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، ففى ذلك يقول الأدفوى[٣](ت ٧٤٨هـ): «وأخبرنى من وقف على مكتوب فيه أربعون شريفا خاصة ، وأن مكتوبا آخر فيه سبعون شريفا دون غيرهم ، ووقفت أنا على مكتوب فيه قريب من أربعين ، ومنه جمع كبير من بيت واحد ، مؤرخ بما بعد العشرين وستمائة » . ولايزال باقيا إلى وقتنا هذا فى أسوان ، بعض الطوائف القليلة التى ترى أنها أنها من نسل الأشراف .

كما عثر فى جبانة أسوان على شاهد قبر لشخصية تنتمى إلى ذرية على بن أبى طالب من ولده محمد الملقب بابن الحنفية (ت ٨١هـ) ، تلك الشخصية هى زينب ابنة على بن عيسى بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن جعفر بن محمد بن على بن أبى طالب ، المتوفاة فى أسوان حوالى منتصف القرن الثالث الهجرى [٤].

أما الجعافرة الذين ينحدرون من جعفر الطيار بن أبى طالب ، فقد نزحوا إلى مصر فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، بعد أن أقصتهم بعض القبائل من مكة [٥]، وسكنوا أسوان منذ ذلك التاريخ . ومما يدل على ذلك شواهد القبور التى عثر عليها فى مقابر أسوان،

1- Wiet , Steles Funeraire , vol . Vi , pp . 177-178 . 190 .

2- Ibid , vol . VI , p. 172 .

٣- الطالع السعيد ، ص٢٩-٣٠ .

4- Wiet , op . cit ., Vol . VIII , p. 42 .

٥- عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية فى السودان ، ص٣٣ .

وأصحابها هم : ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن يحيى ابراهيم بن محمد بن جعفر ابن ابراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب (ت ٣٨٥هـ) (١)، وجوهرة مولاة أم الحسين المعروفة بيليانة ابنة محمد بن ابراهيم بن محمد بن يحى بن ابراهيم بن محمد بن جعفر بن أبى طالب (ت ٤٥٥هـ) (٢). وثمة شاهد يحمل اسم محمد بن ياسين بن محسن الجعفرى (ت ٣٤٥هـ) (٣)، قد يكون صاحبه من بنى جعفر بن أبى طالب . وفى زمن ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥-١٤٠٦م) ، نجدهم يسكنون بين أسوان وقوص مع بنى الكنز ، « ويحترفون فى غالب أحوالهم بالتجارة »(٤) . وغالبية الجعافرة الموجودين بأسوان اليوم ، ممن ينتسبون إلى جعفر بن أبى طالب .

٤- بنو أمية :

بطن من بطون قريش . ومن المعروف أنه عندما انهارت الخلافة الأموية عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) ، تعقب العباسيون بنى عمومتهم بالقتل والنفى والتشريد ، وهربت جماعة من بنى أمية إلى بلاد النوبة والبجة فراراً من المذابح (٥). ومما لاشك فيه أن بنى أمية قد اتخذوا من أسوان منطلقا لفرارهم ، ولانستبعد أن البعض منهم قد استقر فى أسوان وقراها ، ليكون فى مأمن من السلطة المركزية فى مصر . وثمة شاهد عثر عليه فى جبانة أسوان يحمل اسم محمد بن جبون بن حفص الأموى المتوفى سنة ٢٥٤هـ (٦).

٥- العمريون :

هم الذين ينتسبون إلى عمر بن الخطاب ، بالإضافة إلى أنهم بطن من بطون قريش ، ترجع إلى بنى عدى بن كعب بن لؤى بن غالب (٧). وقد سبق أن رأينا الدور الكبير الذى قام به

1- Wiet, op. cit., vol. VI, p. 3.

٢- حفريات عبد الرحمن عبد التواب (لم تنشر) .

3- Wiet, Steles Funeraire, vol. V, p. 90.

٤- عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية ، ص٣٣ .

٥- مكى شبيكة : السودان عبر القرون ، ص٢٧ .

6- Abd Ar - rahman Abd Al - Tawab, Steles Islamiques, Vol. I p. 126.

٧- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٥٥ .

أبو عبد الرحمن العمرى ، فى نشر الإسلام والثقافة العربية فى النوبة وبلاد البجة من الصحراء الشرقية ، وينحدر العمرى من ذرية عمر بن الخطاب ، ويكنى بأبى عبد الرحمن العمرى العدوى القرشى [١]. فهو عبدالله بن عبد الحميد بن عبد الله الناسك بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ، وقد نزح العمرى إلى أسوان فى منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) . ومن المحتمل أن ذريته قد استقرت فى أسوان ، لأننا عثرنا على شاهد قبر نقش عليه اسم أم أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الرحمن العمرى المتوفاة سنة ٢٥٩هـ [٢].

٦- البكريون :

من أولاد أبى بكر الصديق ، وقد ذكر القلقشندى أن أبا بكر الصديق ينتمى إلى بنى تيم ابن مرة بن كعب ، بطن من بطون قريش ، وسكنت جماعة من بنى عبد الرحمن وبنى محمد ولدى أبى بكر الأشمونين والبهنسائية من صعيد مصر [٣]. ويذكر المقريزى[٤] أن البكريين بالصعيد كانوا من جملة العرب الذين اشتركوا فى غزو بلاد النوبة أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٦٨٦هـ (١٢٨٦م) . وتدل شواهد القبور على أن بعضا من بنى عبد الرحمن عاشوا فى أسوان ، إذ عثر على شاهد يحمل اسم ... هاشم بن أبى بكر (ت٢٦٤هـ) [٥].

٧- بنو فهر :

أصل من أصول قريش ، ينسب إلى فهر بن مالك[٦] . ومن بنى فهر كانت فى مصر أسرة نشأت بها مع الفتح ، وظل أفرادها حتى أوائل القرن الثالث الهجرى يلعبون دوراً بارزا فى الحياة المصرية سياسيا ودينيا وفكريا واجتماعيا [٧]. وعثر على شواهد نستدل منه أن جماعة من بنى فهر سكنت أسوان فى العصور الوسطى، ويحمل ذلك الشاهد اسم مطرف بن أحمد بن مطرف بن يحيى بن أحمد بن مطرف بن منقذ بن طحيم الفهرى المتوفى فى أسوان عام ٤٤١هـ[٨].

١- المقريزى : المقفى ، ص٤ .

2- Hawary et Rached , Steles Funeraire , vol , III , p. 52 .

٣- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٥٤ .

٤- السلوك ، جـ١ ق٣ ص٧٣٧ ؛ البيان والإعراب ، ص١٥٦ .

5- Hawary et Radched , Steles Funeraire , vol , III , p. 130 .

٦- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٥٢ .

٧- عبدالله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر ، ص٧٦-٧٧ .

8- Wiet , Steles Funeraire , vol , VI , p. 138 .

٨- بنو سهم :

ينسبون إلى قبيلة هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب ، ومن بنى سهم عمرو بن العاص ، نزلوا مصر مع الجيش العربى الفاتح ، واتخذوا لهم خطة بمدينة الفسطاط حول جامع عمرو بن العاص (١)، وفرق منهم أشتات بالصعيد (٢). ومما يدل على أن جماعة من بنى سهم أقاموا فى أسوان ، شاهد القبر الذى يحمل صاحبه اسم ابن زيد بن أبى زيد السهمى المتوفى عام ٢٨٢هـ(٣) .

٩- بنو مخزوم :

ينسبون إلى مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب ، وبه اشتهرت القبيلة دون أبيه يقظة لكثرة عقبه ، وإلى تلك القبيلة ينسب خالد بن الوليد ، وأبو جهل والعاص ولدى هشام اللذين قتلا فى موقعة بدر . ومن بنى مخزوم سكنت جماعة بصعيد مصر بالأشمونين ، عرفت بالشدة والبأس . وقد عثر على شواهد قبور فى أسوان لأفراد من بنى مخزوم ، مما يؤيد أن جماعة منهم سكنت تلك المدينة ، من بينهم أحمد بن صدقة بن أحمد بن سيار بن أحمد المخزومى المتوفى عام ٤١٠هـ(٤) .

١٠- بنو زهرة :

ينسبون إلى زهرة بن كلاب بن مرة ، وقد خرج من تلك القبيلة سعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، كلاهما من العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما خرج أيضا منها آمنة بنت وهب أم رسول الله ، واستقرت جماعة من بنى زهرة ببلاد الأشمونين (مركز الروضة بمحافظة أسيوط) بصعيد مصر (٥). وقد سبقت الإشارة إلى أن يحيى بن مسلم بن الأشج مولى بنى زهرة قد لبس السواد شعار العباسيين فى أسوان عندما سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢هـ (٧٥٠م) ، ويفهم من هذا أن بنى الأشج كانوا يقيمون

١- المقريزى : البيان والإعراب ، ص٤٣ .

2- Wiet , Steles Furneraire , vol . VI , p. 68 .

٣- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٥٥ .

4- Wiet , op . cit ., vol . VI , p. 57 .

٥- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٥٥ .

بأســوان(١). وقد عثر على شواهد قبور فى أسوان ، ينتمى أصحابها إلى بنى زهرة ، نذكر منهم: سهر فتى محمد بن أمية بن ميمون بن يحيى بن مسلم بن الأشج كانوا يقيمون بأســوان(٢) . وقد عثر على شواهد قبور فى أسوان ، ينتمى أصحابها إلى بنى زهرة ، نذكر منهم : سهر فتى محمد بن أمية بن ميمون بن يحيى بن مسلم بن الأشج الزهرى المتوفى سنة ٢٤٧هـ ، وأم ابراهيم ابنة عبد الرحمن بن موسى بن يونس الزهرى المتوفاة سنة ٢٤٩ هـ (٣)، وخديجة ابنة حسين بن مسكين مولى أمية بن ميمون بن يحيى بن مسلم بن الأشج الزهرى المتوفاة سنة ٢٥٥هـ (٤). من ذلك نستدل أن جماعة من تلك القبيلة نزحت إلى أسوان ، وأقامت فيها .

١١- ربيعة (بنو الكنز) :

تأتى قبيلة ربيعة فى مقدمة القبائل العدنانية التى لعبت دوراً هامًا فى الأحداث التى ألمت بمدينة أسوان فى العصور الوسطى . وتتفرع تلك القبيلة مباشرة من نزار بن معد بن عدنان ، وديارها كانت بلاد نجد وتهامة فى شبه الجزيرة العربية (٥). ثم وقعت الحرب بين ربيعة،مما كاد يؤدى إلى هلاكها ، فتفرقت ، وارتحلت بطونها إلى بقاع مختلفة ، فسكن بعضهم البحرين ، وهجر وظواهر بلاد نجد ، والحجاز ، واليمامة ، والكور الواقعة بين الجزيرة والعراق (٦). أما عن ربيعة التى نزلت اليماقة شرقى الجزيرة العربية ، فقد أجبرها بنو الأخيضر إلى الجلاء عنها ، فنزحت إلى مصر فى عهد الخليفة العباسى المتوكل على الله عام ٢٤٠هـ (٨٥٤م) على وجه التقريب ، فى أعداد كثيرة ، ثم سارت إلى أسوان حيث استقرت أول الأمر فى مكان يسمى المحدثة بظاهر أسوان ، واستطاع زعيم ربيعة فى أسوان أبو المكارم هبة الله ، أن يظفر بالثائر أبى ركوة الذى خرج على الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ/ ٩٩٦-١٠٢٠م)،

١- أنظر ص٧٢ .

2- Wiet , op .cit ., vol . II, p. 99, p. 158 .

3- Abd Al - Tawab , Steles Islamiques , Tome I , p. 143 .

٤- القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٣٦ ، عمر رضا كحالة ، معجم قبائل العرب ، جـ٢ ص٤٢٤ .

٥- ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٣١ ؛ عمر رضا كحالة : المرجع السابق ، جـ٢ ص٤٢٤ .

٦- ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٣١ ؛ المقريزى : البيان والإعراب ، ص٤٤-٤٦ ؛

Mac Michael , A Hist . of the Arabs in the Sudan , vol , I, p. 149 .

فأكرمه إكراما عظيما ، ولقبه كنز الدولة ، وصارت القبيلة تعرف ببنى الكنز [١]. ومن شواهد القبور التى عثر عليها فى جبانة أسوان ، أمكننا التأكد من أى بطن من بطون ربيعة انحدر بنو الكنز . فالشاهد الأول جاء به اسم كريمة ابنة أحمد المعروف بقسطنطين مولى هبة الله بن محمد على بن محمد بن أبى يزيد الحنفى ، المتوفاة فى مستهل ربيع الأول سنة ٤١٩هـ [٢]، واسم هبة الله الذى جاء فى الشاهد هو نفسه أبو المكارم هبة الله الذى منحه الخليفة الفاطمى كنز الدولة . أما الشاهد الثانى ، فهو يحمل اسم يوسف بن الحسين بن سلامة مولى محمد على بن أبى يزيد الحنفى [٣]، ولانعرف تاريخ وفاته . ومحمد على هذا هو الذى أنجب أبا المكارم هبة الله ، وثمة شاهد ثالث يرجع تاريخ وفاة صاحبه إلى النصف الأول من القرن الرابع حتى الخامس الهجرى ، وجد عليه اسم عباس بن عبد الأحد مولى الأمير كنز الدولة أبو الحسن على بن الأمير كنز الدولة بن محمد الحنفى ... الأول ... ونلاحظ هنا أن كلمة الحنفى التى ذكرت فى الشواهد الثلاث ، تنسب إلى بنى حنيفة بن لجيم بن صعب بن على بن بكر بن وائل من جديلة بن أسد أحد ولدى ربيعة .

وعلى أية حال ، فإن بنى الكنز خرجوا على صلاح الدين الأيوبى ، فأرسل إليهم جيشا كثيفا بقيادة أخيه الملك العادل ، التقى بهم فى معركة ، انتهت بمقتل زعيمهم كنز الدولة فى صفر سنة ٥٧٠هـ (سبتمبر ١١٧٤م) ، وفرار فلولهم إلى شمال النوبة ، حيث تركزوا بصفة خاصة فى منطقة المريس ، وهناك اختلطوا بأهالى النوبة ، وتزوجوا من بنات زعمائهم . وفى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين علا نفوذ الكنز فى بلاد النوبة ، ولم تفلح الحكومة المركزية فى مصر فى كسر شوكتهم ، إلى أن تمكنوا فى النهاية من الاستيلاء على أسوان عام ١٣٨٥م ، ومع أنهم فقدوا أسوان عام ٨١٥هـ (١٤١٢م) عندما دمرتها قبيلة هوارة ، إلا أنهم ظلوا أقوى قبيلة على الحدود السودانية المصرية ، حتى وقعت مصر فريسة فى أيدى العثمانيين عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م) [٤].

١- حفريات عبد الرحمن عبد التواب (لم تنشر) .

٢- حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

3- Wiet , op . cit ., vol . X, p. 105 .

4- Mac Michael , op . cit ., vol . I, p . 149 .

والواقع أن الأيوبيين ، ساهموا بطريق غير مباشر فى تعريب جزء كبير من بلاد النوبة ، ففرار بنى الكنز إلى شمال النوبة أدى إلى تسرب الدماء العربية إلى النوبيين المقيمين فى تلك المنطقة ، الأمر الذى أدى إلى ظهور سلالة جديدة ، يعرف أفرادها حتى الآن بالكنوز . وقد عرفت المنطقة التى كان يسكنها الكنوز قبل بناء السد العالى [١]، بمنطقة الكنوز ، وهى تمتد إلى مسافة تبدأ من جنوبى أسوان حتى الكيلو ١٤٥ جنوبا ، حيث توجد سبع عشر قرية تبدأ بقرية دابود شمالا ، وتنتهى بقرية المضيق جنوبا [٢]، ولما كان بناء السد العالى اقتضى تهجير النوبيين ، لأنه أدى إلى غرق بلادهم ، لذلك قامت الحكومة المصرية بتهجيرهم إلى منطقة كوم امبو بمحافظة أسوان ، ويعيش الكنوز حاليا فى قراهم الجديدة شمالى كوم امبو .

ونتيجة لأن الكنوز ينحدرون من أصل عربى صحيح ، فان شكلهم الطبيعى فى غالبية الأحيان ، لايكاد يختلف عن سكان الوجه القبلى فى مصر ، كما نجد بينهم أشخاصا يمتازون بالملامح العربية الوسيمة [٣].

١٢- بنو عنزة :

أحد فروع ربيعة ، وقد ذكر القلقشندى[٤] أن منازل بنى عنزة بن أسد بن ربيعة ، كانت خيبر من ضواحى المدينة المنورة . وقد شهدت قبيلة عنزة معارك الفتح ، واختطت لها خطة

١- فى يوم ٩ يناير ١٩٦٠ فجر الزعيم الخالد جمال عبد الناصر كمية الديناميت فى موقع بناء السد العالى كاشارة لبدء العمل فى ذلك المشروع الضخم . والسد العالى عبارة عن سد ركامى كبير يقفل المجرى القديم لنهر النيل على بعد ٧ كيلو متر جنوبى خزان أسوان ، ليحول المياه إلى مجرى جديد عن طريق قناة تحويل مكشوفة يتوسطها ستة أنفاق ، ومداخل الأنفاق مزودة ببوابات حديدية للتحكم فى كمية المياه التى تمر بها ، ويتفرع كل نفق قبل نهايته إلى فرعين ، وتصب الفروع الاثنى عشر فى محطة الكهرباء ليغذى كل واحد منها وحدة توليد مائية . وتبلغ حجم المواد الداخلة فى بناء السد العالى حوالى ٤٣ مليون متر مكعب معظمها من ركام الجرانيت . أما طول السد العالى فيبلغ ٤٨٠٠ متر منها ٧٠٠ متر بين ضفتى النهر ، ويبلغ طول الجناح الأيمن ٢٤٠٠ متر على الضفة الشرقية ، وطول الجناح الأيسر ٧٠٠ متر على الضفة الغربية .

٢- محافظة أسوان (كتيب أصدرته وزارة الارشاد القومى) .

٣- محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، ص٣٠٤ .

٤- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٧٧ .

حول جامع عمرو بن العاص[١] ، ويبدو أن جماعات أو أفرادا من تلك القبيلة هبطوا أرض أسوان ، فقد وجد شاهد قبر مصدره أسوان ، جاء به اسم أم على ابنة عبدالملك بن على بن عبد الملك بن موسى بن ابراهيم بن يزيد بن خالد بن زيد بن الحارث العنزى المتوفى عام ٤٠٧هـ[٢].

١٣- بنو شيبان :

بطن من بطون ربيعة ، فهم بنو شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على ابن بكر بن وائل[٣]. وقد سكنت جماعات منهم أسوان ، فثمة شاهد نقش عليه اسم حسين بن مقبل مولى بشر بن شعيب بن داود الشيبانى المتوفى سنة ٣٨٧هـ [٤]. ومن المحتمل أن بنى شيبان نزلوا أرض المعدن فى أوطان البجة بالصحراء الشرقية ، مع أبناء عمومتهم بنى قيس بن ثعلبة ، ونستدل على ذلك من رواية للمقريزى[٥] جاء فيها ذكر رؤساء ربيعة من بنى حنيفة بن لجيم بن صعب ، وآخر يعرف بإياس بن روح ، وآخر يعرف بمحمد بن صريح على من بنى قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على بن بكر بن وائل وحلفائهم » . ويمثل نزوح بنى شيبان إلى أرض المعدن ، دليل آخر على أنهم أقاموا فى أسوان مع القبائل العربية الأخرى .

١٤- مضر :

قبيلة عدنانية تنحدر مباشرة من نزار بن معد بن عدنان كانت منازلها باليمامة شرقى شبه الجزيرة العربية ، وقدمت إلى مصر فى جيش عمرو بن العاص الذى فتح به مصر ، واختلطت مساكنها بالفسطاط . كما جاءت جماعات منها إلى مصر - مع قبيلة ربيعة - تحت ضغط بنى الأخيضر ، واستقرت فى أسوان والعلاقى حيث معدن الذهب [٦]. ويستفاد مما ذكره المقريزى[٧] أن تلك القبيلة دخلت أسوان فى أعداد غفيرة ، ففى منتصف القرن الثالث الهجرى

١- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص١٦١ .

2- Wiet , Steles Funeraire , vol , VI , p. 49 .

٣- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٣٨ .

4- Wiet , op . cit ., vol . VI , p . 7

٥- المقفى ، ص١٦-١٨ .

٦- ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٣١ .

٧- المقفى ، ص١٦-١٨ .

طلب العمرى من مضر أن تسانده فى حربه مع البجة الذين قتلوا أخاه ، ولكنها رفضت وابتعدت عنه ، فنظم قصيدة تناولها فيها بالذم ، منها :

إذا جزى الله أقواما بعادية   فلا جزى مضراً عنا بإحسان
أعنى الذين بشط النيل مسكنهم   ما بين قوص إلى ساحات أسوان
عليا تميم وما كانت بخاذلة   فى النائبات وما كانوا بدلان

ولاجدال أن البيت الثانى ، يعتبر خير دليل على أن قبيلة مضر كانت منتشرة فى أسوان وما يليها شمالا . وفضلا عن ذلك ، فان قبيلة مضر تمتعت بنفوذ قوى فى بلاد البجة ، إذ خامر رئيس من رؤسائها يعرف بمحمد بن هارون ، على الفتك بالعمرى ، عندما قام الأخير بقتل زعيم ربيعة فى تلك البلاد واستطاع قتله غيلة ، ومن ثم حملت رأسه إلى أحمد بن طولون [١]. وفى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، كانت قبيلة مضر ضمن القبائل العربية التى تقيم فى أسوان [٢].

١٥- قيس عيْلان :

تفرع من قبيلة مضر فرع جمع عدة قبائل ، ويسمى ذلك الفرع قيس ، وقد اختلف فى نسبه فقيل قيس عيلان ، وقيل أيضا قيس بن مضر ، ولكثرة بطون قيس ، فإن اسمه غلب على سائر القبائل العدنانية ، حتى جعل فى مقابل اليمن (العرب القحطانية) ، فيقال قيس ويمن[٣]. ونستدل من شاهد قبر عثر عليه أن تلك القبيلة أقامت فى أسوان ، فقد نقش عليه اسم كامل بن محمد ... بن محمد بن على بن اسحق بن كامل العيلانى (ت ٤٣٣هـ)[٤] وبالإضافة إلى ذلك ، فانها نزلت أرض المعدن فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، بحثا عن الذهب ، ولكن نزاعا شب بينها وبين الشاميين أنصار أبى عبد الرحمن العمرى ، فاتهمه الشاميون دون وجه حق ، أنه انحاز لقيس عيلان [٥].

١- المقفى ، ص١٩ .   ٢- المسعودى : مروج الذهب ، جـ٢ ص٢٢ .

٣- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٣٩ .

4- Wiet , op . cit ., vol . VI , p. 126 .

٥- المقريزى : المقفى ، ص٨ .

١٦- بنو هلال :

تعتبر قبيلة بنى هلال من أشهر القبائل العدنانية التى سكنت أسوان فى العصور الوسطى، وهى تنسب إلى هلال بن عامر صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [١]. ومن بطون بنى هلال بنو قرة باخميم ، وبنو عمر بساقية قلته (ساقلته بمحافظة سوهاج) ، وبنو رفاعة وبنو حجير وبنو عزيز ، وبأصفون وإسنا بنو عقبة وبنو جميلة [٢]. وقد انتشر بنو هلال انتشاراً واسعا فى مصر فى بلاد الصعيد كلها ، فضلا عن المنازل التى كانت لهم فيما بين مصر وأفريقية (تونس)[٣]. وفى منتصف القرن الثالث الهجرى ، نعلم أن بنى هلال قد غادروا أرض المعدن إلى غربى النيل ، بعد أن دب النزاع بين القبائل العربية[٤] . وفى زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى، كانت رياسة بنى هلال لماضى بن مقرب ، ولما قام أبو ركوة بثورته العنيفة ضد الحاكم ، بايعه بنو هلال ، فبادر الحاكم بعد أن قضى على أبى ركوة بالانتقام الشديد منهم ، فسلط عليهم الجيوش والعرب فأفنوا الكثير منهم ، وفر من بقى حيا إلى المغرب الأقصى ، غير أنهم استردوا نفوذهم فى بلاد الصعيد ، «وصار لهم بلاد أسوان وما تحتها »[٥] .

١٧- بنو تميم :

ينتسبون إلى تميم بن مر بن مراد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وكانت منازلهم بأرض نجد والبصرة واليمامة ، وامتدت إلى العذيب من أرض الكوفة ، ثم تفرقوا بعد ذلك فى الحواضر الاسلامية ، وورثت مساكنهم قبائل أخرى[٦] . وفى اليمامة أجبر بنو الأخيضر قبيلة تميم على الجلاء ، فاتخذت طريقها إلى مصر فى القرن الثالث الهجرى ، مثلما فعلت قبيلتى ربيعة ومضر ، وهبطت أسوان حيث ابتنت بها مساكن ، ومن أسوان ترددت على العلاقى بحثا عن الذهب ، ويبدو أن أفراداً من قبيلة تميم فى أسوان كانوا من أصحاب التجارة الواسعة فى أسوان ، ويدل على ذلك قول المقريزى [٧]: « وكتب العمرى إلى

١- المقريزى : البيان والإعراب ، ص٢٨ .
٢- المصدر السابق والصفحة .
٣- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٤١ .
٤- المقريزى : المقفى ، ص١٦-١٧ .
٥- القلقشندى : صبح الأعشى ، ص٣٤٦ .
٦- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٤٦-٣٤٧ .
٧- المقفى ، ص٧-٨ .

أسوان ، يسأل التجار المساعدة والخروج إليه بالجهاز من طريق المعدن ، فخرج إليه رجل يعرف بعثمان بن حنجلة التميمي[١] في ألف راحلة فيها الجهاز والبر . فقام إليه العمري وتلقاه وسر بذلك » . ولما نشبت الحروب بين القبائل العربية في أرض المعدن (بلاد البجة) ، ابتعدت تميم عن خوضها ، وتوقفت عن استخراج الذهب نهائيا ، وسارت بجموعها إلى شرقي النيل حيث استقرت هناك [٢]. وعلى أية حال ، فاننا نخرج من ذلك إلى أن قبيلة تميم وفدت إلى أسوان في أعداد غفيرة . وثمة شاهد عثر عليه في جبانة أسوان ، نقش عليه اسم ابنة علي بن يحيى بن محمد التميمي (ت ٤٠٨هـ) [٣].

١٨- بنو ضمرة :

أرجع القلقشندي نسب تلك القبيلة إلى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن عدنان ، كما ذكر أنها في صعيد مصر تتركز في البلاد الأخميمية [٤]. ويبدو أن جماعة من تلك القبيلة نزحت إلى أسوان ، فقد عثر على شاهد في أسوان ، يحمل صاحبه اسم محمدة ابنة أحمد بن عبد الله العمري المتوفاة في شعبان سنة ٣٤٧هـ [٥].

وبعد ، فإن هذا عرض عام للقبائل العربية العدنانية التي عاشت في أسوان زمن العصور الوسطى ، وأكسبتها عروبتها . وقد اعتمدنا في هذا العرض على فتات المعلومات التي جاءت في بطون المراجع من جهة ، وأثبتنا بعضها من شواهد القبور التي أقام أصحابها في أسوان من جهة أخرى .

(ب) القبائل القحطانية :

تمثل تلك القبائل عرب الجنوب أو عرب اليمن ، وهي التي يقال فيها العرب العاربة . وقد هبطت مصر قبائل قحطانية عديدة مع الجيش الفاتح ، ثم انتشرت في أرجاء مصر من أدناها إلى أقصاها . وأهم القبائل القحطانية التي استقرت في أسوان هي :

١- يبدو لنا أن صحة الاسم عثمان بن حنظلة التميمي ، فبنو حنظلة أكبر بطون تميم ، ولانستبعد أن عثمان هذا ينتمي إلى ذلك البطن ؛ وعن بني حنظلة انظر القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٤٧ .

٢- المقفى ، ص١٧ .

3- Wiet , op . cit , vol . V, p. 51 .

٤- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٤٨-٣٥١ .

5- Wiet , op . cit .. vol . V , p. 100

١- جهينة :

تنسب تلك القبيلة لجهينة بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافى بن قضاعة [١]، وقد وفدت إلى مصر مع الجيش الفاتح ، واتخذت لها خطة بمدينة الفسطاط [٢]، وانتشرت ببلاد الصعيد ، حتى صارت من القبائل التى طرقت بلاد البجة فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، وأقامت فى أراضى المعدن مع القبائل العربية الأخرى . وفى القرن الرابع عشر الميلادى انطلقت جهينة من أسوان إلى بلاد النوبة ، وانتشرت فيها ، ويقول ابن خلدون[٣] (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) : «انتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكاثروا هناك سائر الأمم ، وغلبوا على بلاد النوبة ، وفرقوا كلمتهم ، وأزالوا ملكهم ، وحاربوا الحبشة فأرهقوهم» . وفى زمن القلقشندى[٤] (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) ، كان لبنى جهينة بقايا ببلاد الصعيد . وفى جبانة أسوان أسفرت الحفريات عن شواهد قبور ، ينتمى أصحابها إلى تلك القبيلة ، منها مرزوق بن خازم بن أحمد بن خزام بن محرز بن سمرة الجهنى (ت ٢٩٣هـ) ، وحسنة ابنة سليمان بن مشمل الجهينى المتوفاة فى الفترة التى تقع حوالى النصف الأول من القرن الثالث للهجرة وبين القرن الرابع للهجرة [٥].

٢- بنو كلب :

يرجع نسب تلك القبيلة إلى كلب بن وبرة بن ثعلبة بن حلوان بن عمران الحافى بن قضاعة[٦]. وتشير شواهد القبور إلى إقامة الكلبيين بمصر فى القرن الثالث الهجرى [٧]، ومن المحتمل أن جماعة منهم سكنت أسوان فى العصور الوسطى ، لأنه تم اكتشاف شاهد قبر نقش عليه اسم عمران بن رحال بن أحمد محمد الكلبى المتوفى فى أسوان فى بثونة (كذا) عام ٣٩٢هـ [٨].

١- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣١٦ .   ٢- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص١٤١ .

٣- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ٢ ص٢١٦ .   ٤- صبح الأعشى ، جـ١ ص١٦ .

5- Wiet , Seles Funeraire , vol , VI , p. 23 .

6- Ibid ., vol . VII, P. 50 .

٧- عبدالله خورشيد : القبائل العربية فى مصر ، ص١٩٠ .

٨- حفريات عبد الرحمن عبد التواب (لم تنشر) .

٣- الأزد:

وفدت تلك القبيلة إلى مصر فى ركاب الجيش العربى الفاتح ، واختطت لها حول جامع عمرو بن العاص [١]، وهى تنتمى إلى الأزد بن الغيث بن نَبْت بن مالك بن أدد بن زيد بن كهلان [٢]. ويستفاد من شواهد القبور التى جاءت من أسوان ، أن جماعة من تلك القبيلة أقامت فى أسوان، نذكر منها : الحسن بن عاصم الأزدى المتوفى فى الفترة التى تنحصر بين نهاية القرنين الثانى والثامن للهجرة [٣]، ورزق فتى يعقوب بن أسحق الأزدى (ت٢٩٠هـ)[٤].

٤- الأنصار :

وهم قبائل الأوس والخزرج ، كان لهم ملك يثرب (المدينة المنورة) ، نزلوها عند قدومهم من اليمن [٥]. وقد اشتهرت جموعهما بالأنصار لأنهم نصروا الرسول عليه الصلاة والسلام [٦]. وقد ساهم الأنصار فى فتح مصر ، واتخذوا لهم خطة بمدينة الفسطاط، ومن الأنصار الذين عاشوا بصعيد مصر بنو محمد وبنو عكرمة، وديارهم بحرى منفلوط ، وينسب بنو محمد لحسان بن ثابت ، وبنو عكرمة لسيد الأوس سعد بن معاذ[٧]. ومنذ القرن الأول الهجرى أقام الأنصار فى أسوان ، فقد عثر دى ڤيار[٨] De Villard على شاهدين لرجلين من تلك القبيلة اشتركا فى فتح مصر ، وثمة شواهد أخرى ينتمى أصحابها إلى قبيلة الأنصار ، نذكر منها : على بن الحجاج بن فرقد الأنصارى (ت ٢١٥هـ) [٩]، وأحمد بن نادى الأنصارى (ت٢٥٧هـ)[١٠]، وزينب ابنة ... بن عثمان ابن نادى الأنصارى (ت٣٤٩هـ)[١١]، ومحمد بن سليمان الأنصارى (ت٤٢١هـ)[١٢]. ولازالت تعيش فى أسوان حتى وقتنا الحالى ، قبائل تعرف بالأنصار .

١- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص١٦٢ . ٢- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣١٨-٣١٩ .

3- Wiet , Steles Funeraire , vol , VIII, p. 34 .

4- Ibid , vol , IV , p. 98 .

٥- عبدالله خورشيد : القبائل العربية ، ص١٢٣ .

٦- المقريزى : البيان والإعراب ، ص٤٧ ؛ صبح الأعشى ، جـ١ ص٣١٨-٣١٩ .

٧- البيان والإعراب ، ص٤٧-٤٨ .

8- La Musulman di Aswan , pp. 1-2 .

9- Hawary et Rached , Steles Funeraire , vol . I, p. 83 .

10- Ibid ., vol . III , p. 71 11- Wiet , op . cit , vol . V, p. 109 .

١٢- حفريات عبد الرحمن (لم تنشر) .

٥- خولان :

تنسب تلك القبيلة إلى مالك ، بطن من بطون قبيلة كهلان القحطانية ، وكانت منازلها شرقى اليمن ، غير أنها افترقت فى الفتوحات الإسلامية [١]. وهبطت خولان مصر لأول مرة مع الجيش الفاتح [٢]. ويبدو أن عدداً كبيراً من تلك القبيلة عاش فى أسوان ، فقد عثر على شواهد قبور عديدة تحمل اسم الخولانى ، نذكر منها على سبيل المثال : محمد بن خالد الصواف الخولانى (ت ٢٠٨هـ) ، ويعقوب بن يحيى الصواف الخولانى (ت٢١٦هـ) [٣]، وعائشة ابنة محمد بن عيسى الخولانى (ت٣١٧هـ) ، وفاطمة ابنة مروان بن عبد الملك الخولانى (ت٣٢٨هـ)[٤] .

٦- بنو النخع:

قبيلة قحطانية ، ذكر القلقشندى[٥] نسبها قائلا : «وهم بنو النخع واسمه جسر ابن عمرو بن علة بن مدحج ، وسمى النخع لأنه انتخع عن قومه أى بعد ، ومنهم الأشتر النخعى أحد تابعى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى ولاه أمير المؤمنين على بن أبى طالب مصر » . ويبدو أن طائفة من تلك القبيلة أقامت فى أسوان ، لأنه عثر على شاهد قبر يحمل اسم ابنة عبد الرحمن بن زيد النخعى المتوفاة عام ٢١٤هـ [٦].

٧- مراد :

من القبائل القحطانية التى جاءت مصر زمن الفتح ، ويرجع نسبها إلى مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ، ومنازلها كانت فى زبيد باليمن ، ومن أجل هذا ينسب إلى مراد مؤسس تلك القبيلة كل مرادى من عرب اليمن [٧]. وقد انتشرت مراد بمصر ، فسكنت الفسطاط وأتريب - الجزء الشمالى من محافظة القليوبية - والاسكندرية ورشيد والصعيد ، وغلب عليها الاشتغال بالعلم والدين ، وظهر من مواليها بعض النابهين [٨]. وعلى

١- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٢٦ .

٢- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص١٧١ .

3- Hawary et Rached , op . cit ., vol , p. 52, p.90 .

4- Wiet , op . cit ., vol . V, p. 5 , p. 34 .

٥- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٢٧ .

6- Hawary et Rached , op . cit ., vol , I , p. 77 .

٧- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٢٩ .

٨- عبدالله خورشيد : القبائل العربية فى مصر ، ص١٧٨ .

الرغم من أننا وجدنا شاهد قبر في أسوان يحمل اسم محمد بن أحمد بن أعز بن طفيل المرادي، يرجع تاريخ وفاة صاحبه إلى الفترة التي تبدأ من منتصف القرن الثالث حتى نهاية القرن الرابع الهجري [١]، لكننا نستطيع أن نجزم أن أعداداً هائلة من تلك القبيلة عاشت في أسوان ، إذ لا زال شارعا في أسوان يعرف حتى الوقت الحاضر بشارع المراداب ، كما أن نجعا بقرية الأعقاب شمالي أسوان بحوالي ١٧ كيلو متر لازال يحمل اسم المراداب .

٨- لخم :

بطن من بطون كهلان ، ينسب إلى لخم عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان [٢]. وقد هبط اللخميون مصر وقت الفتح العربي ، واختطوا لنفسهم خطة حول المسجد الجامع [٣]. وذكر القلقشندي أنهم استوطنوا بلاد الصعيد بالبر الشرقي[٤] . ومما يدل على أن قبيلة لخم سكنت أسوان ، شواهد القبور التي نقش عليها كلمة اللخمي ، فمنها سليمان بن عبد الله بن عمر بن سليمان بن داود اللخمي (ت٢٠٤هـ) [٥]، وعزام بن عامر اللخمي المتوفى في الفترة التي تمتد من منتصف القرن الثالث الهجري حتى الرابع الهجري [٦].

٩- تجيب :

من ذرية عدى وسعد ابني الأشرس بن شبيب بن السكن بن الأشرس بن كندة من بني كهلان، وسمى التجيبون باسم أمهم تجيب ، وقد نزلوا رفقة الجيش الفاتح ، واتخذوا لهم خطة بمدينة الفسطاط[٧] . ويبدو أن قبيلة تجيب نزحت إلي أسوان ، وعاشت فيها ، ويدل على ذلك شواهد القبور التي جاءت من أسوان ، تحمل اسم التجيبي ، منها أبو راشد سعيد بن ميمون بن يحيى بن سوار التجيبي (ت ٢٤٧هـ) [٨]، وعيسى بن سليمان التجيبي المتوفى حوالي الفترة من النصف الأول من القرن الثالث الهجري حتى القرن التاسع الهجري [٩].

1- Wiet , op . cit , vol . VIII , p. 32 .

٢- المقريزي : البيان والإعراب ، ص٥٩ .

٣- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص١٦٤ .

٤- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٢٤ .

٥- حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

6- Wiet , Steles Funeraire , vol , VII , p. 58 .

٧- الخطط ، جـ١ ص٢٥٦ ؛ صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٢٨ .

8- Wiet , op . cit ., vol . II , p. 111 .

9- Wiet , op . cit ., vol . VIII , p. 80 .

١٠- المعافر :

تنسب تلك القبيلة إلى يعفر بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ، هبطت مصر مع الجيش الفاتح ، واتخذت لها خطة فى مدينة الفسطاط[١]. وثمة شاهد قبر عثر عليه فى أسوان ، جاء به اسم فاطمة ابنة المبارك بن أبى سلمة المعافرى (ت٢٦٤هـ) [٢]، الأمر الذى يجعلنا نرجح أن جماعة من تلك القبيلة اتخذت من أسوان مقراً لها .

١١- الصدف :

تنحدر تلك القبيلة من مالك بن سهل بن عمرو بن قيس بن حمير ، ساهمت فى فتح مصر، واتخذت لها خطة بمدينة الفسطاط [٣]. وتدل الأسماء التى حفظتها شواهد القبور لمن مات بمصر من هذه القبيلة على تفوقها فى الكثرة عن أية قبيلة أخرى على الإطلاق ، كما حفظت أوراق البردى بعض أسمائها فى القرن الأول الهجرى [٤]. ومن المحتمل أن جماعة منها أقامت فى أسوان ، إذ أسفرت الحفريات عن شاهد قبر لامرأة اسمها أنيسة ابنة يوسف بن داود الصدفى المتوفاة فى أسوان عام ٢٧٣هـ [٥].

١٢- خزاعة :

تنسب تلك القبيلة إلى غبشان الخزاعى الذى كان بيده مفاتيح الكعبة بمكة ، حتى ارتجعها منه قصى بن كلاب عظيم قريش[٦] . وقد وفدت مع جيش عمرو بن العاص ، واتخذت لها خطة بمدينة الفسطاط [٧]. ويبدو أن جماعة من تلك القبيلة أقامت فى أسوان ، ويدل على ذلك شاهدان لقبرين مصدرهما الأصلى أسوان ، نقش على الشاهد الأول اسم خديجة ابنة صالح بن مولى سليمان بن فليج بن سليمان بن المغيرة الخزاعية المتوفاة حوالى الفترة من النصف الأول للقرن الثالث حتى الرابع الهجرى ، ونقش على الثانى اسم ابو سراج وقاد بن بلال الخزاعى المتوفى حوالى الفترة من منتصف القرن الثالث حتى الرابع الهجرى [٨].

١- الخطط ، جـ ١ ص٢٩٧ .

2- Abd Al - Tawab , Steles Islamique ., vol , II , p. 32 .

٣- الخطط ، جـ١ ص٢٩٧ .

٤- عبدالله خورشيد : القبائل العربية فى مصر ، ص١٢٦ .

٥- حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

٦- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٥٥-٣٥٦ .

٧- الخطط ، جـ١ ص٢٩٦ .

8- Wiet , op . cit ., vol . VII , p. 17 .

١٣- الكلاع :

يرجع نسب تلك القبيلة إلى ذى الكلاع بن شرحبيل بن سعد بن حمير ، وقد وفدت إلى مصر رفقة الجيش العربى الفاتح بقيادة عمرو بن العاص ، ثم اتخذت لها خطة بمدينة الفسطاط[١]. ويبدو أن جماعة من تلك القبيلة سكنت أسوان ، لأنه عثر على شاهد قبر نقش عليه اسم فاطمة ابنة محمد بن أبى عبد الرحمن الأسواني الكلاعى ، توفيت فى حوالى الفترة من النصف الأول من القرن الثالث حتى الرابع الهجرى [٢].

١٤- غافق :

نزلت تلك القبيلة مصر مع الجيش العربى الفاتح ، واتخذت لها خطة بمدينة الفسطاط ، وهى تنسب إلى غافق بن الحارث بن عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزدى [٣]. ومن المحتمل أنها وفدت إلى أسوان ، لأنه تم العثور على شاهد قبر يحمل صاحبه اسم ميمون بن هرون الغافقى ، ترجع إلى الفترة الممتدة من النصف الأول للقرن الثالث حتى الرابع الهجرى [٤].

١٥- بنو جعد :

بطن من بطون لخم بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ، سكنوا بلدة أطفيح من صعيد مصر [٥]. ومن المحتمل أن جماعة منهم نزحت جنوباً إلى أسوان ، ونستدل على ذلك من شاهد قبر أصله من أسوان ، نقش عليه اسم ميمونة ابنة سوار مولاة محمد بن حميد الجعدى المتوفاة عام ٣٨٥هـ [٦].

١٦- بنو أجدع :

يرجع نسبهم إلى مالك بن عمرو بن الأجدع ، أصله من بنى الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مذحج ، كانت ديارهم بنواحي نجران من اليمن[٧] . وقد وجد شاهد قبر فى

١- الخطط ، جـ١ ص٢٩٧ .

2- Wiet , op . cit ., vol . VII , p. 17 .

٣- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص١٦٦ ؛ الخطط ، جـ١ ص٢٩٧ .

4- Wiet , op . cit ., vol . VII , p. 22 .

٥- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٣٤-٣٣٥ .

6- Wiet , op . cit ., vol . VII , p. 32 .

٧- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص١٦٨-١٦٩ ؛ صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٢٧ .

أسوان نقش عليه اسم مضر بن أحمد بن الأجدعى ، يختلف عن غيره من الشواهد التى دفن أصحابها فى أسوان ، إذ جاء به أن صاحبه قتل شهيداً عام ٣٤٤هـ [١]. ومن المرجح أنه قتل فى ذلك العام ، عندما هاجم ملك النوبة المسيحى على ثغر أسوان فى أواخر عهد الدولة الإخشيدية ، وقتل جمعا من المسلمين بها [٢]. وعلى أية حال ، فان ذلك الشاهد يثبت أن جماعة من بنى أجدع كانوا مستقرين فى أسوان .

وإذا كنا قد توصلنا إلى معرفة غالبية تلك القبائل عن طريق شواهد القبور التى دفن أصحابها فى أسوان ، إلا أننا نرجح أن ثمة قبائل قحطانية أخرى سكنت أسوان فى العصور الوسطى ، ولكن الدليل القاطع ينقصنا لإثبات أنها أقامت فى أسوان .

ومن تلك القبائل ، قبيلة سعد العشير ، وهم سعد العشيرة بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان ، وسمى سعد العشيرة بذلك الاسم ، لأنه لم يمت حتى كان عدد أولاده وأحفاده ثلثمائة رجل ، فكان إذا سئل عنهم يقول هؤلاء عشيرتى خوفا من الحسد ، وأشهر بطون تنحدر من سعد العشيرة بنو أوذ بن مصعب ، وبنو جعفر ، وبنو منبه بن صعب [٣]. ونستدل من حروب أبى عبد الرحمن العمرى مع النوبة فى منطقة المريس ، شب نزاع بين الشاميين – وهم من سعد العشيرة أنصار العمرى – وبين قيس عيلان ، فاتهم الشاميون العمرى بانحيازه لقيس ، وإزاء ذلك انتهز ملك النوبة الفرصة ، فاستمال الشاميين إليه،

1- Wiet , op . cit ., vol . V , p. 89 .

٢- الخطط ، جـ١ ص١٩٧ .

وقد أفادنا شاهد القبر فى معرفة تاريخ هجوم ملك النوبة المسيحى على أسوان تعريفا دقيقا ، وهو ما لم نجده فى كتب المؤرخين ، إذ حدث يوم الجمعة ١٤ ذى القعدة سنة ٣٤٤هـ . وفى رأينا أن ذلك الشاهد يعد نادراً ، لأن ما نقش عليه مغاير لما ألفناه فى الشواهد العديدة التى عثر عليها فى جبانة أسوان ونصه كالآتى: « بسم الله الرحمن الرحيم ، ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما أتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون » . قتل مضر بن أحمد الأجدعى يوم الجمعة لأربع عشر ليلة خلت من ذى القعدة سنة أربع وأربعين وثلثمائة .

٣- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣٢٦-٣٢٧ .

ورد إليهم أراضيهم التى استولى عليها من قبل ، ولم يكتف بذلك ، بل أقطعهم دون الجنادل الأولى من منطقة المريس فى قرية أدندان وما يليها ، وخشى العمرى مغبة ذلك التحالف ، فأرسل للشاميين يدعوهم للصلح ، فأقبلوا عليه ، بيد أنه أوقع بهم ، وقتل منهم ألف خمسمائة [١].

وتعد قبيلة بلى التى تنسب إلى بلى بن عمرو بن الحافى بن قضاعة [٢]، من أشهر القبائل القحطانية التى هاجرت إلى مصر فى العصور الوسطى . فقد نزلت لأول مرة مع عمرو بن العاص - أم أبيه بلوية - ووقفت عن يمين رايته خلال معارك الفتح ، ثم اتخذت لها خطة بمدينة الفسطاط [٣]. وفى عهد عمر بن الخطاب وفدت أعداد هائلة منها إلى مصر ، وتفرقت فى أنحائها ، وأقام فريق ببلاد الصعيد على ضفتى النيل ، امتدت منازله على الضفة الغربية من سوهاج شمالا إلى غرب قمولة (بمحافظة قنا) جنوبا ، وعلى الضفة الشرقية من عقبة قاو الخراب شمالا إلى عيذاب جنوبا [٤]. وفى زمن القلقشندى (ت ٨٢١هـ / ١٤١٠م) كانت بقايا بلى تعيش فى الصعيد الأعلى [٥]. وإزاء ذلك كله ، لا يبعد أن جماعة من بلى سكنت أسوان فى العصور الوسطى .

وفى أوائل القرن الخامس عشر الميلادى أشارت المراجع المعاصرة إلى وجود قبيلة بهراء القحطانية التى نجهل تفاصيل أحداثها فى مصر قبل ذلك . وكل ما نعلمه عن تلك القبيلة ما قاله القلقشندى [٦]: «بنو بهراء ، بن عمرو بن الحافى ، بن قضاعة ... قال (ابن خلدون) فى العبر : وكانت منازلهم شمالى منازل بلى ، من الينبع إلى عقبة أيلة ، ثم جاور بحر القلزم منهم خلق كثير ، وانتشروا ما بين بلاد الحبشة وصعيد مصر ، وكثروا هناك ، وغلبوا على بلاد النوبة ، وهم يحاربون الحبشة إلى الآن (أى فى عهد ابن خلدون ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م)». ومن المحتمل أن عدداً من بنى بهراء كان يقيم فى أسوان ، قبل القرن الخامس عشر الميلادى .

١- المقريزى : المقفى ، ص١٣-١٤ .

٢- صبح الأعشى ، جـ١ ص١٦ .

٣- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص١٦١ .

٤- المقريزى : البيان والإعراب ، ص٢٩-٣٠ .

٥- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣١٦ .

٦- صبح الأعشى ، جـ١ ص٣١٧ .

وهكذا نستطيع أن نؤكد بأن العروبة انتقلت إلى أسوان منذ الفتح العربى انتقالا مستمراً ، فقد اندفعت القبائل العربية وبطونها إلى تلك المدينة وقراها ، حاملة معها الدماء العربية واللغة العربية والدين الإسلامى . إذا كانت تلك القبائل قد فرضت فى أول الأمر نوعا من النفوذ والسيادة على الجنسيات الأخرى التى تألف منها التركيب الاجتماعى فى أسوان ، إلا أننا لم نسمع عن أى تنازع عصبى حدث بين العدنانيين والقحطانيين ، مثلما حدث فى أنحاء أخرى من الدولة الإسلامية . وثمة تطور اجتماعى شهدته أسوان أثر نزول القبائل العربية فيها ، ذلك أن تلك القبائل أورثت أسوان النظام القبلى ، فصار فيها شئ عريق . وما زال ذلك النظام ضاربا بجذوره فى التركيب الاجتماعى . ويمكننا القول أن أسوان بوصفها بيئة شبه صحراوية فى بعض مناطق يغلب عليها البداوة ، من العوامل التى ساعدت على بقاء الشكل القبلى ، خاصة فى قراها ولايزال الناس فى تلك القرى يفخرون بانتسابهم إلى القبائل التى ينتمون إليها ، حتى وإن لم تكن مؤثرة فى الحياة العادية .

هجرة الأفراد من خارج مصر وداخلها إلى أسوان :

ولم يقتصر التركيب الاجتماعى فى مدينة أسوان على تيار الهجرة المستمر للقبائل العدنانية والقحطانية ، بل تسرب إليها هجرات فردية لأشخاص من خارج مصر . وقد تضافرت عدة أسباب جعلت من أسوان مستودعًا هائلا لاستقبال هجرات فردية على مسار القرون . منها موقع أسوان التجارى ، الأمر الذى يهيئ سبل الرزق ، كما أنها كانت منفذاً للراغبين فى المعادن النفيسة بأراضى المعدن فى الصحراء الشرقية ، فضلا عن أنها أحد الطرق الرئيسية التى يسلكها الحجاج إلى بيت الله الحرام . وربما يكون السبب اختيارها ملجأ أمينا للفارين من الضغط السياسى . وشواهد القبور التى عثر عليها تشير إلى كثرة الوافدين إلى أسوان فى صورة هجرات فردية ، فعلى تلك الشواهد نقرأ نقوشا لأسماء ينتمى أصحابها إلى أوطانهم التى أتوا منها مثل المغرب ، والكوفة ، وبغداد ، والبصْرة ، والأندلس ، وفاراب ، ومكة ، والمدينة ، وعكا ، واليمن ، وحضرموت ، والموصل ، وخراسان ، وفارس ، وغيرها من المدن الإسلامية ، فعلى سبيل المثال لا الحصر : مرزوق بن عبد الحميد بن محمود المغربى (ت ٣٨٣هـ) ، ومنى ابنة حسين بن أبى بكر بن محمد بن عمر البغدادى (ت ت ٣٥٢هـ) (١)، وعباس بن عبد الله مولى عبد الرحمن بن الحسين بن محمد بن عبدالله بن سعيد بن نزار

١- حفريات عبد الرحمن عبد التواب (لم تنشر) .

العطفى الكوفى ، وعبدالله بن محمد بن عبدالله المكى (ت ٢٤٧هـ) ، ومحمد بن ريان بن سعيد المغربى (ت٢٤٨هـ) ، وهارون بن يحيى الفراتى (ت ٢٦١هـ) [١]، ومرزوق بن حسن مولى الفضل بن سليمان بن الفضل بن الحسن بن جعفر الفاسى المتوفى فى أوائل القرن الخامس للهجرة [٢]، وخديجة ابنة جعفر بن جديد بن حسن البغدادى (ت ٣٨١هـ) ، وزينب ابنة عيسى المدنى (ت٣١٦هـ) [٣]، وحارث بن ابراهيم الفارابى (ت ٢٧٨هـ) ، وسيدة ابنة عبد السلام الحضرمى (ت ٢٩٤هـ) ، وابراهيم بن أبى الحسن الخراسانى (ت ٣٠٩هـ)[٤] ، وخليدة ابنة خالد البصرية المتوفاة فى الفترة بين نهاية القرن الثانى والثامن للهجرة [٥]، وعبادة بن الحسن الأندلسى المتوفى فى الفترة التى تمتد من منتصف القرن الثالث الهجرى حتى الرابع للهجرة[٦]،واسحق بن يزيد بن عبيدة العكى (ت ٢٢٤هـ) ، وجابر بن عقبة اليمنى (ت ٢٥٥هـ)[٧]، وعلى بن محمد ابن مزاحم بن بشير الموصلى (ت ٤٠١هـ)[٨] .

وفى اعتقادنا أن تلك الهجرات الفردية ، لم يكن لها شأن يذكر فى أسوان لأنها لم تعتمد على عصبية قبلية تحفظ لها كيانها ، مما أدى إلى ذوبانها ذوبانا كاملا فى العناصر السكانية الموجودة .

وإلى جانب ذلك ، حدثت هجرات داخلية لأسوان ، ونقصد بذلك نزوح أفراد من مختلف المدن فى مصر الإسلامية إلى تلك المدينة ، حيث اتخذوها مقراً ومعاشا لهم . وإن دل ذلك على شئ فانما يدل على صلابة البناء الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى . وقد عثر على شواهد قبور فى مدافن أسوان لأشخاص ليسوا من أهلها ، ونسبوا إلى مساقط رؤوسهم التى ولدوا فيها ، سواء هم أم آباؤهم . وممن نشير إليهم فى هذا الصدد : موسى عبد الله الفرابو

١- حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

2- Wiet , Seles Funeraire , vol . V , p. 189 .

3- Ibid ., vol . IV , pp . 48, 119 , 164 .

4- Ibid ., vol . VIII , pp. 35-36 .

5- Ibid ., vol . VIII, p. 42 .

6- Hawary et Rached , Steles Funeraire , vol . I, p. 131 , III , p.. 50 .

7- Wiet , Steles ., vol . VI , p. 35 .

8- Ibid ., vol . II,p. 53 .

الواحى (ت ٢٤٤هـ) (١)، وأبا الحسن القسم بن عبدالله البلاقى (ت٢٦١هـ) ، ومحمود بن محمد الحوفى (ت٢٦٥هـ) ويعقوب بن سندر من طلا من كورة أهناس (ت ٢٧١هـ) ، ورملة أم ولد عبد الوارث بن يعقوب بن هارون الفيومى (ت ٢٩٣هـ) (٢)، وموسى بن هارون الفسطاطى (ت ٢٦٥هـ)(٣) ، وأسماء ابنة حسن بن محمد بن أحمد الطرانى (ت ٤٢٠هـ)(٤) ، الخ ...

الموالى :

ومن العناصر السكانية التى احتوتها أسوان فى العصور الوسطى ، طبقة الموالى . والموالى- كما نعلم - هم المسلمون من غير العرب . وقد عرفت مصر الموالى منذ الفتح العربى لمصر ، ففى جيش عمرو بن العاص كان الفرس فى المقدمة ، وبعد أن تم الفتح اتخذوا لهم خطة بمدينة الفسطاط مثلما فعلت القبائل العربية (٥). ولا ريب أن تلك القبائل التى وفدت إلى مصر تباعا فى القرون الاسلامية الأولى ، أتى فى ركابها عديد من الموالى ممن ينتمون بالولاء لهم . وفى جبانة أسوان عثر على شواهد قبور عديدة يرجع أصحابها إلى طبقة الموالى ، عاشت فى كنف القبائل العربية التى استطابت أسوان ، وممن نشير إليهم على سبيل المثال : عبد الله بن ابراهيم بن يحيى مولى أبى هارون (ت ٢٤٢هـ) واسحق بن إدريس مولى سبيع بن المهاجر (ت ٢٥٢هـ) ، وخديجة ابنة حسين بن مسكين مولى أمية بن ميمون بن يحيى بن مسلم بن الأشج (ت ٢٥٥هـ)(٦) ، وهارون مولى عبدالله بن صالح (ت ٢٥٩هـ) ، مسافر بن بلوا مولى ابن أمية (ت ٢٦٤هـ) ، وزينب ابنة ميمون مولى محمد بن أبى الربيع (ت ٢٧١هـ) (٧)، ورضا مولى أحمد بن اسحق بن سليمان (ت ٣١٨هـ) (٨)، وعائشة ابنة بشارة مولى محمد بن على بن محمد بن شريك الحنفى (ت ٤٠١هـ) ، وعمر بن يوسف مولى على بن أبى طالب (ت ٤١٨هـ) ، وكريمة ابنة أحمد المعروف بقسطنطين مولى هبة الله بن محمد بن على بن محمد بن أبى يزيد الحنفى (ت ٤١٩هـ) (٩).

1- Hawary et Rached , vol , III , pp. 109 , 140 , 193 .
2- Wiet , op . cit ., vol . IV , p. 114 .
3- Abd Al - Tawab , Steles ., vol . II , p. 41 .
٤- حفريات عبد الرحمن عبد التواب .
٥- ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص١٧١ ، الخطط ، جـ١ ص٢٩٧ .
6- Abd Al - Tawab , Steles ., vol .I , pp . 52 , 132 , 143 .
7- Ibid ., vol . II , pp . 11 , 33 , 124 .
8- Ibid ., vol . III , pp. 22 , 70 .

٩- حفريات عبد الرحمن عبد التواب .

البشارية والعبابدة :

ويدخل فى التركيب الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى ، قبائل البشارية والعبابدة . وحتى يمكننا الوقوف على الأصل الذى انحدرت منه تلك القبائل ، فان الأمر يلزم أن نتحدث بإيجاز عن شعوب البجة ، فالعرب قد اختلطوا بتلك الشعوب مما أدى إلى ظهور سلالات جديدة .

من المعروف أن البجة من الشعوب الحامية التى تسكن الصحراء الشرقية جنوبى مصر ، وتمتد أوطانهم الحالية فى منطقة تصل إلى أسوان شمالا وإلى الأطراف الشمالية لهضبة الحبشة جنوبا ، ومن البحر الأحمر فى الشرق إلى النيل الأعظم ونهر عطبرة فى الغرب ، وتمثل تلك الأرض الوطن الأصلى لشعوب البجة [١]. ومن الشاهد أن البجة إذا انتقلوا شمالا أو غربا ، فإن ذلك التنقل كان مؤقتا ، إذ سرعان ما يعودون إلى أماكنهم الأصلية [٢].ولعل اختلاف التضاريس فى مواطن البجة من العوامل الطبيعية التى أثرت فيها ، فيغلب عليها قلة المطر بوجه عام ، وفى الشمال تسود الطبيعة الصحراوية ، وإن كانت لا تخلو من جهات يغزر نباتها فى بعض فصول السنة ، ويتنوع فيها نزول المطر بين الصيف والشتاء ، وعلى أية حال ، فالبيئة قاسية فى جملتها ، ولكنها أقل مما يتصوره الإنسان [٣].

ومما لاشك فيه أن شعوب البجة ، من أقدم العناصر التى سكنت وادى النيل . وقد اتفقت آراء الباحثين على أن أسلاف البجة من الحاميين الذين عبرو البحر الأحمر ، فى عصور بعيدة فى القدم ، وسكنوا الأماكن التى تعيشها سلالتهم فى الوقت الحالى ، ويرى سلجمان أن أسلاف البجة يمثلون الصفات التى عرفت فى مصر منذ عهود ما قبل الأسرات أصدق تمثيل[٤]. ويقسم بول Paul شعوب البجة إلى مجموعتين رئيسيتين : إحداهما جنوبية حافظت على نقاء جنسها الحامى ، لقلة اختلاطها بالعناصر السامية ، بيد أنها أخذت عن الساميين

١- محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ، ص٢٤٦ ؛ عباس عمار : وحدة وادى النيل ، أسسها الجغرافية ومظاهرها فى التاريخ ، ص١٢ .

٢- مصطفى مسعد : البجة والعرب فى العصور الوسطى ، ص١ .

٣- محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الافريقية ، ص٢٤٦-٢٤٩ .

٤- عباس عمار : وحدة وادى النيل ، ص١٢ ؛ مصطفى مسعد : البجة والعرب ، ص٢-٣ .

لغتهم ، ويمثل هؤلاء غالبية بنى عامر ، وثانيتهما شمالية ، وهى أقل نقاء ، بسبب احتكاكها بالقبائل العربية التى وصلت إلى مصر منذ الفتح العربى وتحركت جنوبا فى الصعيد ، وقد أدى هذا الاحتكاك إلى لون من الاختلاط والتأثير ، غير أنها متمسكة بمظاهر العادات واللغة الحامية ، وأفرادها على علم باللغة العربية ، ويمثل هؤلاء بقية البجة [1].

وقد حاول الباحثون الربط بين قبائل البليميين Blemmyes البدوية وبين قبائل البجة ، فالأولى ، كانت تعيش مبعثرة فى الصحراء الشرقية بين مصر والحبشة والبحر الأحمر ، وهى الأراضى التى تشغلها قبائل البجة حاليا ؛ ومع أن التشابه شديد بين البليميين والبجة ، إلا أنه ينقصنا الدليل القاطع لنبرهن على أنهما شعب واحد [2]. ويؤلف البجة فى الوقت الحاضر قبائل البشاريين ، العبابدة ، والهدندوة ، وبنى عامر ، ويرى سلجمان أن بنى عامر هم السلالة الحقيقية للبجة ، فالبشاريون يتميزون بالجبهة المستديرة ، أما بنو عامر فجبتهم أقل استدارة ، وتتفق سماتهم مع سمات البجة الأصليين سكان الصحراء الشرقية ، ولكن كيروان Kirwan يعترض على ذلك الرأى ، مدللا أن اسم «بنو عامر» اسم عربى صريح [3]. وعلى أية حال ، فان التوزيع الواسع للبليميين أو البجة فى العصور القديمة والحديثة ، فضلا عن حياتهم الرعوية ، وفروعهم العديدة ، كل ذلك من الأسباب التى أوجدت تناقضا بعيداً فى روايات المؤرخين القدامى والجغرافيين العرب [4].

وأهم فروع البجة التى تهمنا فى وصف البناء الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى هما البشاريون (البشارية) والعبابدة .. وفى الوقت الحالى ، يحتل البشاريون النصف الشمالى من أوطان البجة ، متوغلين من جهة الشمال داخل مصر ، وممتدين فى الجنوب إلى سهل البطانة ، فى مساحة تقرب من من ٥٠,٠٠٠ ميل مربع ، منها جهات تشرف على البحر الأحمر ، ومنها ما يتصل باقليم أسوان ، وأخرى تبلغ العطبرة [5]. والقبائل البشارية التى تتصل بمصر اتصالا وثيقا ، خاصة أسوان ، هى من الشمال إلى الجنوب : العلياب والحمدوراب والشنتيراب

١- عباس عمار : وحدة وادى النيل ، ص١٢ ؛ مصطفى مسعد : البجة والعرب ، ص٣ .

1- Kirwan , Studaies in the Later History of Nubia , p. 69 .

3- Ibid ., p. 74 .

4- Ibid ., p. 74 .

٥- محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، ص٦٢ .

والعمراب(١) . فالعليباب مستقرون بالقرب من أسوان ، والحمدوراب يعيشون على مقربة من دراو ، والسوق الطبيعية للقبيلتين هي أسواق أسوان ودراو ، وأهم سلعة يبيعونها الإبل والأغنام وبعض من الفحم النباتي (٢). ويعيش الشنتيراب في عزلة بين التلال ، ويعتبرون أشد القبائل البشارية خشونة وفظاظة ، لأنهم لايتحركون ولاينتقلون من جبالهم ، ويمتلكون قطعانا هائلة من الأغنام ، وإبل ليست من النوع الممتاز (٣). أما العمراب ، فهم أقل بداوة من القبائل الأخرى ، يعيشون في مواطن مجدية ، حول كوم عونيب ، لذلك دأبوا على التنقل كثيراً ، وتصل تنقلاتهم إلى ساحل البحر الأحمر ونهر النيل وجنوبا حتى بربر التي يرتادونها أحيانا . وقليلا ما يصلون إلى عطبرة ، وتمثل أسوان السوق الطبيعية للعمراب ، وأهم سلعة يتجهون بها الجلود المدبوغة (٤).

ولاندري ما هو أصل كلمة البشاريين أو البشارية ، ففي الواقع أن تلك الكلمة يشوبها الغموض . ويرى بعض الباحثين أن البشارية يرجعون نسبهم إلى رجل يقال له بشر بن مروان بن إسحق ، نزح إلى أرض البجة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، ومعه ثلاثون ألف رجل من الحدارية ، وهم حضارمة أصلا يلحقون بنسب حمير بن سبأ ، جاءوا إلى بلاد البجة قبل مجيئ ربيعة بزمن طويل يربو على ثلاثة قرون ، وصاروا من أهلها ، فعدوا طائفة أو فرعا من البجة ، وكانوا وثنيين ، ثم اعتنقوا الدين الإسلامي في عهد مبكر (٥). ومن الواضح أن ذلك الرأي يستند إلى رواية المسعودي في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر(٦) ، فقد جاء بها : « وسكن في تلك الديار (أرض البجة) خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن ربيعة بالبجة فاشتدت شوكتهم وتزوجوا في البجة ، فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة ، وقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار ممن سكن تلك الديار ، وصاحب المعدن في وقتنا هذا - وهو سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣م) - أبو مروان بشر بن اسحاق ، وهو من ربيعة ، يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن وثلاثين

1- Sanders , The Bisharin (S.N.R.) , vol . XVI , p. 145 .

2- Ibid .

3- Sanders , The Bisharin (S.N.R.) , vol . XVI , p. 146 .

4- Ibid .

٥- عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، ص٢٢٢ ؛ المقريزي : البيان والاعراب ، ص١٢٤ ؛ دائرة المعارف الإسلامية ، مقالة البشارية .

٦- جـ٢ ص١٨ .

ألف حراب على النجب من البجة والحجف البجاوية ، وهم الحدارية ، وهم المسلمون من بين سائر البجة » . وفى تصورنا أن البشارية لا ينسبون إلى ذلك الرجل الذى يحمل اسم أبو مروان بشر بن إسحاق فنسيه البشارى - مفرد البشاريون أو البشارية - إلى بشر مصطنعه، ففى اللغة صحة النسبة إلى بشر هى البشرى وليس البشارى ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، فان من بين شواهد القبور التى عثر عليها فى جبانة أسوان ، وجد شاهد يحمل اسم البشارى ، نورد نصه كاملا لأهميته :« بسم الله الرحمن الرحيم ، إن أعظم مصائب أهل الإسلام مصيبتهم بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم . هذا قبر أم سلمة ابنة محمد بن الحسن بن سليمان البشارى ، توفيت فى جمادى الأولى سنة ٤٠٣هـ»[١]. فاذا أخذنا فى الاعتبار أن سليمان البشارى الذى يمثل الجد الأعلى لأم سلمة ، ينتسب إلى قبائل البشارية ، فان الأمر يقتضى بنا التسليم أن اسم البشارية سابق لأبى مروان بشر بن اسحق . وبعبارة أخرى ، نستطيع القول أن سليمان البشارى كان حيا فى منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) .

كما يرى بعض الباحثين ، أنه من الجائز أن يكون للبشارية صلة فى الانتساب إلى بنى كاهل الذين ينتسبون فى أصولهم إلى كاهل بن أسد بن خزيمة ، إذ ليس من الصعب التصور أن بعض الأمراء من بنى كاهل أصهروا إلى البجة ، ثم ورث الرئاسة فيهم ، ومن المحتمل - كما أضاف - أن أولئك ممن اختلطوا ببنى بشر بن مروان من ربيعة فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى)[٢] . ولايسعنا إزاء ذلك الرأى إلا القول أيضا ، أن اسم البشارية عرف فى فترة سبقت القرن العاشر الميلادى .

ويرى الدكتور محمد عوض محمد[٣] أن البشارية يزعمون أن جدهم كاهل ، الذى يرجعون نسبه إلى الزبير بن العوام ، ويقولون أيضا أن أجدادهم كانوا يعيشون فى جبل علبة الواقع على بعد عشرة أميال إلى الغرب من عيذاب ، ويتفق مع البشارية فى ذلك الزعم الكواهلة فى كردفان ، كما يتفقون مع البشارية فى أن جدهم كاهل كان له ثلاثة عشر ولداً من الذكور ، من بينهم من يدعى بشار . ويضيف الدكتور محمد عوض[٤] قائلا:«ومع بعد الشقة بين القبيلتين

١- حفريات عبد الرحمن عبد التواب (لم تنشر) .

٢- مصطفى مسعد: البجة والعرب، ص٥٢ .

٣- السودان الشمالى ، ص٦٩ .

٤- المرجع السابق ، ص٦٩-٧٠ .

البجاوية (البشارية) والعربية (كاهل) لاشك أن هذا الاتفاق له مغزاه » ، وإذا كان على ما يبدو أن العناصر العربية التى ينتمى أغلبها إلى ربيعة ، تم توغلها فى بلاد البجة فى القرن العاشر الميلادى ، فقد أصهر العرب إلى بعض البجة ، ومع أن المؤرخين العرب قد تحدثوا عن أهم قبائل البجة التى كان من بينها الحدارب أو الحداربة ، فان اسم البشاريون لم يكن له وجود . وفى تصور الدكتور محمد عوض محمد[١] أن بعض الأمراء من العرب قد أصهر إلى بعض البجة ، ومن المرجح أن الذين أصهروا إلى البجة على هذه الصورة كانوا فعلا ينتمون إلى بنى كاهل وإلى أحد أبنائه المسمى بشار أو بشارة اشتق اسم البشاريين .

ويبدو أن هذا الرأى أقرب الآراء إلى الصواب ، وإن كان يحتاج إلى إلقاء بعض الضوء عليه . فكما نعلم أن قبيلة ربيعة باليمامة نزحت إلى مصر فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، تحت ضغط بنى الأخيضر ، ثم سارت جنوبا إلى أسوان ، ومن ثم إلى أوطان البجة بغية الحصول على معدن الذهب . ولاريب أن قبائل أخرى دخلت أرض المعدن مع ربيعة ، وليس ببعيد أن قبيلة الكواهلة كانت من بينها ، خاصة إذا علمنا مدى صلة القرابة الوثيقة بين ربيعة وكاهل ، فبنى ربيعة من نسل بنى حنيفة بن لجيم ، وأم حنيفة هى صفية بنت كاهل بن أسد بن خزيمة [٢]. ومن المحتمل أن من بين زعماء بنى كاهل رجل يسمى بشار أو بشارة ، شق طريقه إلى بلاد البجة ، وهناك أسس إمارة هى التى ينتمى إليها قبائل البشارية . إذا فالشقة ليست ببعيدة بين القبيلتين البجاوية (البشارية) والعربية (كاهل) . ومما يؤيد ذلك الرأى ، ما ذكرناه من قبل أن سليمان البشارى كان حيا فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وهى الفترة التى تتفق مع نزوح ربيعة وبعض القبائل الأخرى إلى أسوان ، ثم بلاد البجة . ومما يجدر ذكره أن الرحالة ابن بطوطة[٣] أثنا عودته من حجته الثانية عام ٧٣٢هـ (١٣٣١م) رأى قوما من عرب الكواهلة فى المنطقة الممتدة من عيذاب إلى سواكن ، وذكر أنهم اختلطوا بالبجة وعرفوا لغتهم .

أما الفرع الثانى الذى ينحدر من قبائل البجة ، فهم العبابدة الذين يعيشون فى أسوان وقراها ، وتقول رواياتهم أنهم ينتمون إلى الزبير بن العوام ، أحد القواد الأربعة ممن أرسلهم

١- المرجع السابق ، ص٧٠ .

٢- المقريزى : البيان والاعراب ، ص١٦٣ .

٣- الرحلة ، جـ١ ص١٨٨ .

عمر بن الخطاب نجدة لعمرو بن العاص خلال معارك الفتح [1]. ويبدو أن اسم العبابدة مشتق من سلفهم عباد الذى اختفي من صفحة التاريخ . ولكن اسمه ظل باقيا فى وادى عباد المواجه لمدينة إدفو من الشرق[2] .

ويسكن العبابدة فى الصحراء الجنوبية الشرقية ، وتحتل أوطانهم معظم تلك الصحراء جنوب خط يصل بين سفاجة وقنا شمالا ، والبحر الأحمر شرقا ، ووادى النيل غربا ، والحدود الإدارية لمصر جنوبا ، ولهم امتداد آخر فى السودان على طول طريق القوافل القديمة بين بربر ودراو وأبو حمد وكورسكو [3]. وقد استقرت جماعات عديدة من العبابدة فى داخل الوادى شرقى وغربى النيل ، وفى هامش الوادى فى النطاقات التى تسمى بالحواجر ، وهى مناطق الانتقال بين الهضبة الصحراوية والوادي المزروع ، وتطل حافة الهضبة على الوادى مباشرة ، ولهذا تركز العبابدة فى قنا وقوص والأقصر وأرمنت شرقى النيل بوجه خاص ، وفى إسنا وإدفو وكوم امبو شرقى وغربى النيل ، وفى أسوان وبلاد النوبة شرقى النيل[4] .

وينقسم العبابدة إلى أربع بطون تعرف بالعمائر أو البدنات ، وهى العشاباب الذين ينتشرون فى الصحراء بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم أسوان ، والمليكاب بين دراو وبربر ومركز شيخهم دراو ، والفقراء وهم متفرقون فى شرقى النيل وغربيه بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم قرية الرمادى (على الضفة الغربية للنيل جنوبى إدفو) ، والعبوديين يقيمون شرقى النيل بين قنا وكورسكو ومركز شيخهم السيالة شمالى كورسكو [5].

وقد اشتغل العبابدة فى العصور الوسطى أدلة للقوافل التى تعبر الصحراء الشرقية ، ومن الملاحظ أن نشاطهم فى تلك المهنة امتد في ثلاث طرق تجارية ، الطريق الأول من قوص إلى عيذاب ، والثانى المتجه إلى النوبة وأعالى النيل والحبشة بحذاء ضفاف النيل ، وهذان الطريقان كانا شائعى الاستعمال فى العصور الوسطى ، أما الطريق الثالث فيبدأ من قنا

١- نعوم شقير : تاريخ السودان ، جـ١ ص٥٠؛ سعاد ماهر : محافظات الجمهورية ، ص١٨٠ .

2- Vollers , Ency . of Islam , Art . Ababde .

٣- محمد رياض : العبابدة دراسة فى الاقتصاد الصحراوى ، ص١٠١ .

٤- نفس المرجع والمكان .

٥- نعوم شقير : تاريخ السودان ، جـ١ ص٥٠ ؛ سعاد ماهر : محافظات الجمهورية ، ص١٨٠ .

وينتهى إلى القصير ، بيد أنه استخدم فى العصور الحديثة [١]. وللعبابدة تجارة واسعة فى الإبل والسنامكى وفحم السنط المستخرج من الأشجار المنتشرة فى جبال الصحراء الشرقية ، يأتون بها إلى أسواق أسوان ودراو ، ويرجعون إلى صحرائهم بالغلال وبعض السلع الأخرى[٢]. وفى وادى النيل استقر عدد كبير من العبابدة فى القرى ، وتمرسوا على الزراعة[٣] .

وهنا نلاحظ أن العبابدة والبشارية قد احتفظوا بلغتهم الحامية التى تسمى تبداوى أو بداويت ، وهى للمخاطبة فقط ولاتكتب ، احتفظوا بها على الرغم من معرفتهم اللغة العربية ، كما أنهم تأثروا إلى حد كبير بالثقافة العربية التى ظهرت نتائجها واضحة فى حياتهم الاجتماعية مع الاحتفاظ ببعض عاداتهم وتقاليدهم التى نشأت معهم ، أو التى اقتبسوها من قدماء المصريين [٤]. وأود أن أضيف إلى ذلك ، أن العبابدة والبشارية ممن يقطنون الجبال والأودية المطلة على أسوان هم وحدهم الذين احتفظوا بلغتهم الحامية ، أما أولئك الذين استقروا فى أرض أسوان وقراها ، جنبا إلى جنب مع القبائل العربية ، فقد نسو لغتهم الحامية وتقليدهم الاجتماعية القديمة .

النوبيون :

ومن العناصر السكانية التى عرفتها أسوان فى العصور الوسطى ، النوبيون . والنوبيون كما هو معروف ، شعب قديم عاش على ضفاف النيل جنوبى أسوان ، لهم لغتهم الخاصة وثقافتهم الخاصة المستمدة من مصر ، بحكم الصلات الأزلية التى تربط بين مصر والسودان ، أخلدها بطبيعة الحال نهر النيل العظيم .

ومنذ الفتح العربى لمصر ، بدأت الصلات بين مصر الإسلامية وبين النوبة المسيحية تزداد شدة وعمقا ، وتلك ظاهرة ينفرد بها تاريخ مصر والسودان ، فما يحدث فى مصر ، نجد صداه فى النوبة ، والدليل على ذلك أن الصراع بين مصر الاسلامية وبين مملكة النوبة المسيحية ، انتهى بسقوط الأخيرة فى القرن الرابع عشر الميلادى .

1- Vollers , Ency . of Islam . Art . Ababde .

٢- نعوم شقير : تاريخ السودان ، جـ١ ص٥٠ ؛ رحلات بوركهارت ، ص١٢٩ .

3- Klunzinger , Upper Egypt ., p. 254 .

٤- عباس عمار : وحدة وادى النيل ، ص١٢ ؛ سعاد ماهر : محافظات الجمهورية ، ص١٨١ .

وقد رأينا من قبل ، أن قبيلة ربيعة التى اشتهرت بقبيلة الكنز ، نقلت الدماء العربية إلى النوبيين فى منطقة النوبة الشمالية ، وصارت سلالتهم تعرف فى الوقت الحالى بالكنوز ، غير أن الدماء العربية لم تتسرب إلى جميع النوبيين ، فمن ظل على نقاوته يعرف حاليا بالفديجا ، تمييزاً لهم عن الكنوز الذين يوصفون حاليا بالماتوكى ، وهى تعنى فى اللغة النوبية «الذين جاءوا من الشرق» . ومنطقة النوبيين الخلص كانت تمتد من كيلو ١٨٣ جنوب أسوان حتى حوالى كيلو ٣٥٠ جنوبا أى حتى التقاء حدود مصر بجمهورية السودان ، وتبدأ القرى التى كانوا يسكنونها بقرية كورسكو فى الشمال وتنتهى بقريتى بلانة وأدندان فى الجنوب[١] .

وعلى أية حال ، فان النوبيين الذين اختلطوا بالدماء العربية أو الذين ظلوا على نقاوتهم ، كانوا من العناصر السكانية التى تألفت منها أسوان فى العصور الوسطى . وقد عثر على شواهد قبور فى جبانة أسوان ، يرجع تاريخها إلى القرون الإسلامية الأولى ، يحمل أصحابها أسماء عربية مسلمة تنتهى بكلمة النوبى ، فعلى سبيل المثال : آمنة ابنة مهدى بن يحيى النوبى (ت ٢٥٥هـ) وكامل موسى النوبى (ت ٢٥٨هـ) ، وأبو بكر أحمد بن عمرو النوبى (ت ٢٦٥هـ)[٢]، وحنة ابنة كامل النوبى (ت٢٧٢هـ) ، ويوسف بن يعقوب بن سلام النوبى (ت ٢٩٠هـ) ، وزبيدة ابنة جابر النوبى (ت ٣٠٧هـ) [٣]، وأم الحبيب ابنة محمد على بن أحمد النوبى (ت ٤٠٣هـ) ، وعبد الله بن أحمد بن ابراهيم بن سعيد النوبى (ت ٤٥٣هـ) [٤].

التكاررة والعبيد :

واشتمل أيضا البناء الاجتماعى لأسوان زمن العصور الوسطى ، على جماعات قليلة من التكاررة (التكارنة) ، أتت من السودان الغربى من فلاتة وبرنو وباجرمى وغيرهم . ومن المعروف أن كلمة التكاررة تنسب إلى بلاد التكرور ، غير أن الرحالة بوركهارت خرج برأى جديد مؤداه أن اسم التكاررة لايرجع إلى بلاد التكرور كما يتبادر إلى الأذهان ، فضلا عما جاء فى كتابات الجغرافيين العرب، بل ذكر أن كلمة تكرور كشتقة من الفعل تكرر (أى تنقى)

١- محافظة أسوان (كتيب أصدرته الأرشاد القومى) .

2- Wiet , Steles ., vol . IV , pp. 4 , 100 , 156 .

3- Ibid ., vol . VI , pp. 30 , 156 .

٤- رحلات بوركهارت ، ص٣٢١ .

بمعنى أن مشاعر التكاررة الدينية تنقت وتطهرت بحفظ القرآن وأداء فريضة الحج . ومما ذكره بوركهارت أيضا أن اسم التكاررة يطلق على جميع الزنوج القادمين من غرب السودان - على اختلاف أوطانهم - طلبًا للعلم أو سعيا إلى بيت الله الحرام ، وقد قابل بوركهارت أثناء رحلته إلى بلاد النوبة والسودان كثيرا من هؤلاء الزنوج ، أكدوا له أنهم لم يسمعوا باسم التكاررة[١]. وأغلب التكاررة الذين قابلهم بوركهارت فقراء ، لايملك أغلبهم شروى نقير ، يخرجون فى رحلات إلى مكة المكرمة لقضاء فريضة الحج ، ثم يعودون إلى أوطانهم ، ولامورد لهم إلا ما يجود به الخيرون [٢]. وقد دأب التكاررة الموسرون على ملازمة الحجاج المصريين ، أما الفقراء منهم فيجتازون الطريق النيلى حتى يصلوا مشارف مصر من ناحية الجنوب ، فيمكثون أياما بقرى الصعيد ، حيث الأروقة التى ينفق عليها من أموال المساجد لاستضافة التكاررة المارين بها ، ويحاول البعض منهم كسب بعض المال بالعمل اليدوى كى يستطيع الإنفاق منه فى طريقه إلى الحج [٣]. ولاريب أن التكاررة فى العصور الوسطى اتخذوا من أسوان طريقا لأداء فريضة الحج ، مثلما فعلوا فى العصور الحديثة ، خاصة إذا علمنا أن أسوان كانت محطة رئيسية للحجيج يبدأون منه رحلة الحج عبر الصحراء الشرقية إلى عيذاب ، ومنها إلى مكة . ومن المحتمل أن أفراداً من التكاررة توقفوا فى أسوان خلال ذهابهم وعودتهم من الحجاز مفضلين الإقامة الدائمة فيها ، حيث سبل العيش متوفرة .

ويدخل فى التركيب الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى ، طبقة العبيد التى تنتمى إلى الجنس الزنجى . وقد شاعت تلك الطبقة من الرقيق فى المجتمع الاسلامى فى العصور الوسطى ، ولاقت تجارتها رواجا واسعا لشدة الحاجة إليها . وقد عرفنا من قبل أن تجارة الرقيق كانت بعد اجتيازها أسوان تتوزع فى مصر والعالم الاسلامى . ولاشك أن العرب فى أسوان قد استخدموا الرقيق الزنجى فى الأعمال المهنيّة الشاقة ، مثل الزراعة التى احتقرها العرب فى بدء تواجدهم فى مصر . أما نساء ذلك النوع من الرقيق ، فقد استخدمن فى خدمة المنازل ، بالإضافة إلى عملهن كمرضعات وحاضنات . والتركيب الطبقى الزنجى ظل فى أسوان العصور الوسطى كما هو ، فلم يختلط مع أى عنصر آخر إلا فى النادر القليل ، مما أدى إلى تطور سلالته ببطء شديد ولا زالت البقايا - التى تصل إلى منتهى الضآلة - من تلك السلالة موجودة فى أسوان وقراها .

١- نفس المرجع ، ص٣٢٢ .

٢- نفس المرجع ، ص٣٢٤-٣٢٥ .

المهاجرون والمماليك والأتراك :

وفى أواخر العصور الوسطى ، ظهرت عناصر سكانية لم يكن لها وجود من قبل فى البناء الاجتماعى لأسوان ، وهم : المهاجرون والمماليك والأتراك . أما المهاجرون الذين سكنوا أسوان فى تلك الفترة ، فهم مسلمو الأندلس ممن عاشوا فيها قرونا عديدة إلى أن غادروها تحت ضغط المسيحيين . ويحسن بنا أن نتحدث بشئ من الإيجاز عن الظروف التى دفعت مسلمى الأندلس للهجرة إلى مصر ، ومنها إلى الصعيد الأعلى ، خاصة أسوان وقراها .

عندما ذبلت دولة المسلمين فى الأندلس ، لم يعد لهم سوى مملكة غرناطة ، بعد أن سقطت المدن الإسلامية مدينة أثر أخرى ، ووقع أكثرها بأيدى المسيحيين . فبين سنة ٦٣٦هـ (١٢٣٨م) و ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) ، فتح فرديناند الثالث ملك قشتاله ، وجايم الأول ملك أراجون ، مدن بلنسية ، وقرطبة ، وأشبيلية ، ، ومرسية ، وقدر للمسلمين بعد هذه الفتوح أن يصبح حكمهم محصوراً فى غرناطة التى استطاعت لمناعتها أن تقاوم المسيحيين قرنين ونصف قرن من الزمان[١] . ولم يكن يتوقع المسلمون أن يعيشوا تلك الفترة فى غرناطة ، والممالك المسيحية على مقربة منهم ، وقد أحسو فى الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى بقرب زوالهم ، فقد تزوج فرديناند ملك أراجون من إيزابيلا ملكة قشتالة وتوحدت المملكتان ، الأمر الذى آذن بنهاية الوجود الإسلامى فى الأندلس [٢]. فقد أخذ المسيحيون يضيقون الخناق على غرناطة ، فاستولوا على حصن لورة وغيره من الحصون سنة ٨٨٩هـ (١٤٨٤م) ، ثم سقطت بعد ذلك لوشة عام ٨٩١هـ (٤٨٦م) ، وتم استيلاء فرديناند ورجاله على القسم الغربى من غرناطة ، ثم شرعوا فى حصار مالقة ، ولم يتمكنوا من اقتحامها إلا بدس الألغام تحت أسوارها ، وحضرت الملكة إيزابيلا نفسها فأثار حضورها روح الحماسة فى الجند ، إلى أن سلمت المدينة [٣]. ولم يبق للمسلمين غير غرناطة ، فخرج فرديناند وإيزابيلا فى عام ٨٩٦هـ (١٤٩١م) ، وقد عزما على ألا يعودا وفى غرناطة ملك للمسلمين ، فضيقا عليها الحصار ، وبعد أن انتظر المسلمون دون طائل وصول ما كانوا يؤملون من النجدات من مصر أو من

١- لين بول : العرب فى أسبانيا ، ص١٧٦-١٧٨ ؛ عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلسى .

٢- لين بول: العرب فى أسبانيا ، ص١٨٣؛ عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ، ص١٧٤ .

٣- لين بول : العرب فى أسبانيا ، ص١٩٥-١٩٩ .

سلاطين الدولة العثمانية فى تركيا ، اضطروا إلى تسليم المدينة فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١م[١]. وعلى الرغم من أن شروط التسليم تنص على أن المسلمين ستكون لهم حرية العبادة ، وإقامة شعائر الإسلام ، ولايحكم على أحد منهم إلا بشريعتهم ، ولايقهر أحد على ترك دينه ، إلا أن المسيحيين سرعان ما نقضوا ماعاهدوا المسلمين عليه [٢]. فأخذوا يعملون السيف فى المسلمين ، ففر من استطاع منهم إلى مراكش ومصر وآسيا الصغرى ، كما قاموا بنفى من تبقى من المسلمين ، ولم ينته النفى إلا فى سنة ١٠١٩هـ (١٦١٠م) حين حكم فى هذا العام على نحو نصف مليون مسلم بالنفى ، وقد ثبت أن من نفوا من المسلمين فى المدة بين سقوط غرناطة وأوائل القرن السابع عشر الميلادى يبلغون ثلاثة ملايين [٣].

وهؤلاء المسلمون من أهل الأندلس الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، عقب حملات التعذيب والتشريد والنفى التى لاقوها من المسيحيين ، كان ملاذهم الوحيد شمالى أفريقية ، فمنهم من جاء إلى صعيد مصر ، وسكن أسوان وقراها . ولازالت أعداد كثيرة من سلالتهم تعيش فى قرى أسوان ، يعرفون حاليا بالمهاجرين ، ويسمى الفرد منهم بالمهاجر ، ومن المحتمل أن المهاجرين أطلق عليهم ذلك الاسم ، لأن هجرتهم كانت رغم أنفهم ، ويحمل هؤلاء المهاجرون سمات أهل الأندلس ، فبشرتهم شديدة الحمرة ، تختلف عن بشرة أهالى أسوان التى تغلب عليها السمرة فى غالبية الأحوال .

أما المماليك الذين سكنوا أسوان فى أواخر العصور الوسطى ، فهم الذين خافوا أن يقعوا تحت طائلة السلطان سليم الأول العثمانى ، إذ فكر فى فتح مصر بعد أن استولى على الشام عام ٩٢٢هـ (١٥١٦م) فعولت جماعات منهم على الفرار من وجهه إلى الصعيد . ويصور ابن إياس[٤] حالة الفزع التى انتابت المماليك الجراكسة بعد أن استولى سليم على الشام ، فقد قال : «فلما أشيعت هذه الأخبار فى القاهرة بأن ابن عثمان ملك الشام صارت الناس فى أمر مريب بسبب ذلك وقالوا : ما بقى بعد أخذ الشام إلا مصر ، وجزموا بهذا الأمر وعول بعض الناس من أهل مصر على الهروب إلى جهة الصعيد . فتنكد السلطان (طومان باى) والأمراء

١- المرجع السابق ، ص٢٠١-٢٠٦ .

٢- المرجع السابق ، ص٢٠٨ .

٣- المرجع السابق ، ص٢١٠-٢١١ .

٤- بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٥ ص١١١ .

والناس قاطبة لهذا الخبر ، ولاسيما كانت ليلة عيد الفطر والناس جرحهم طرى بسبب موت السلطان (قانصوه الغورى) وكسرة العسكر» . وقبل أن يزحف السلطان العثمانى بجيوشه على مصر ، أرسل خطابا إلى السلطان طومان باى يطلب منه الدخول تحت طاعته ، ويتوعده قائلا : «وإن لم تدخل تحت طاعتنا وإلا أدخل إلى مصر وأقتل جميع من بها من الأتراك حتى أشق بطون الحوامل ، وأقتل الجنين الذى فى بطنها من الأتراك » ، فخاف معظم المماليك الجراكسة ، وجهزوا أنفسهم للهروب إلى الصعيد الأعلى [١]. وإزاء ذلك التهديد الذى توعد به السلطان سليم الأول المماليك الجراكسة ، فيبدو أن جماعات منهم قد فرت بالفعل إلى أسوان فارة بجلدها ، عندما بدأ سليم زحفه على مصر ، ومما يدل على ذلك أن الرحالة براون Browne[٢] الذى زار أسوان فى ٣١ أكتوبر سنة ١٧٩٢ م ، وشاهد قبور موتاهم على مقربة من أسوان ، كما ذكر أن سلالتهم التى قابلها خلال زيارته ، تعيش فى بؤس وحطام .

وفى عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م) وقعت مصر فى أيدى الأتراك العثمانيين ، وانطوت صفحة تاريخها فى العصور الوسطى ، لتبدأ صفحة جديدة من تاريخها فى العصر الحديث . وما أن استتب الأمر للسلطان سليم فى مصر ، حتى وضع حاميات عسكرية فى كل من أسوان وأبريم وغيرها لحراسة الحدود الجنوبية لمصر ، وتألفت تلك الحاميات من جماعات من الضباط يسمون الكشاف (جمع كاشف) أكثرهم من أصل البانى أو بشناق أو أناضولى [٣]. ومن تلك الحاميات ، ينحدر عنصر من عناصر أسوان السكانية [٤]، يجرى فى عروقه الدماء التركية . ولازالت تعرف سلالة تلك الحامية فى أسوان بالكشاف .

وهكذا يتضح من دراستنا فى هذا الفصل ، أن التركيب الاجتماعى لأسوان فى العصور الوسطى ، قد شمل عناصر عديدة ، ينحدر معظمها من أصل عربى صريح وبعضها تأثر بالدماء العربية ، مما أدى إلى ظهور سلالات جديدة ، وبعضها الآخر لم يتسرب إليه الدماء العربية ، . وبعبارة أخرى ، يمكننا القول أن التركيب الاجتماعى لأسوان ، قد احتوى جنسيات مختلفة ، قدمت على مر القرون من مختلف أنحاء العالم الإسلامى . وقد أحدث ذلك التنوع

١- بدائع الزهور ، جـ٥ ص١٢٥ .

2- Travels in Africa , p. 141 .

٣- محمد عوض محمد : السودان الشمالى ، ص٣٠٣-٣٠٤ .

٤- رحلات بوركهارت ، ص٣٤٣-٣٤٤ ؛ Ency . Britt . Art . Aswan .

نتائج على جانب كبير من الأهمية ، إذ أن امتزاج معظم تلك الاجناس بالمصاهرة والزواج ، جعل أغلب أهالى أسوان خليطا فى شكلهم ، خاصة لون بشرتهم . على أن الطابع العام لسكان أسوان هو طابع البداوة الذى يماثل طابع الحجاز . ولاغرابة فى ذلك ، فمظاهر التضاريس فى كلا البيئتين تكاد أن تكون واحدة . وليس أدل على ذلك من قول الرحالة بوركهارت الذى عايش أهالى أسوان فترة من الوقت ، إذ قال : «أهل الصعيد إلى الجنوب من أسيوط ليسوا سوى قبائل البدو القديمة ، وعربيتهم فى نظرى خالصة نقية من الشوائب ، ولايفضلها نقاء غير عربية شبه الجزيرة العربية . صحيح أنهم ينطقونها بلغة مصرية ، ولكن ألفاظهم وعباراتهم جلها مأخوذة من لغة الحجاز واليمن ، وهو ما تحققته بنفسى فى أثناء مقامى بعد ذلك بجدة ومكة »[١].

١- رحلات بوركهارت ، ص٢٧٤ .

الخاتمة

وبعد ، فانه يتضح لنا من هذه الدراسة أن أسوان مع بعدها وتطرفها تمتعت بموقع فريد ، جعلها تبدو فى صورة واحدة من أهم مدن مصر فى العصور الوسطى ، فهى تمثل آخر الحدود الجنوبية لمصر ، فضلا عن أنها ملتقى القوافل الآتية من السودان والصحراء الشرقية ، وزاد من أهمية هذه المدينة فى تلك العصور أن القبائل العربية رابطت فيها منذ فجر الفتح العربى ، بغرض الدفاع عنها ضد غزوات مملكة النوبة المسيحية . ومنذ ذلك الوقت أيضا ، استمر نزوح القبائل والجماعات العربية إلى أسوان ، ومن تلك القبائل ، قبيلة ربيعة التى هبطت أرض أسوان فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وتمكنت من فرض نفوذها على القبائل الأخرى التى عاشت معها جنبا إلى جنب ، ولقد شاءت ظروف الدولة الفاطمية فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى ، أن تهيئ لربيعة فرصة الظهور على مسرح الأحداث السياسية ، وذلك عندما خرج الثائر أبو ركوة على ذلك الخليفة ، واستطاع أن يجمع حوله الأتباع ، وفى الفصل الأول أوضحنا المعارك التى نشبت بين أبى ركوة وبين جيوش الحاكم ، وأدت فى النهاية إلى هزيمة الأول وفراره إلى شمال النوبة ، بيد أن زعيم ربيعة فى أسوان ظفر به ، وسلمه للخليفة ، فمنحه لذلك لقب كنز الدولة الذى صار علما على تلك القبيلة . والحقيقة التى خرجنا بها أن ذلك اللقب أعطى ربيعة الحق فى تأسيس إمارة فى مدينة أسوان ، إذ ليس من المعقول أن تشجع الدولة الفاطمية تلك السياسة ، وهى الحريصة على الرغبة فى مد نفوذها الفعلى فى كافة أنحاء العالم الإسلامى . وقد كشفت الحوادث التاريخية عن أطماع الدولة الفاطمية فى أواخر أيامها ، فخرجت عن الطاعة ، ولكن الوزير بدر الجمالى - قائد الفاطميين - أخضعها ، ومن ثم أعاد الهدوء إلى أسوان .

ولما وصل صلاح الدين الأيوبى إلى مصر ، انتهز بنو الكنز فرصة انشغاله بتأسيس دولته ، فرفعوا راية العصيان ، وواجه صلاح الدين تلك الأزمة ، بأن أرسل إليهم أخاه الملك العادل سيف الدين أبى بكر الأيوبى على رأس جيش كبير ، استطاع إلحاق الهزيمة بهم عام ٥٧٠هـ (١١٧٤م) ، وأجبرهم على الجلاء عن أسوان إلى شمال النوبة ، وهناك - خاصة منطقة المريس - مالوا إلى الهدوء فترة تقارب قرنا وربع قرن من الزمان ، اندمجوا خلالها بالأهالى عن طريق التزاوج .

ولم ينته دور بنى الكنز فى أسوان عند هذا الحد ، فقد وضح أنه ليس من المنتظر أن يظلوا قابعين فى بيئة فقيرة مجدبة مثل شمال النوبة ، لا تضاهى بيئة أسوان الحضارية . لذلك دأبوا على شن الإغارات على تلك المدينة ، بغية استعادة نفوذهم فيها ، ولكن دولة المماليك البحرية لم تمكنهم من ذلك . غير أن تلك الإغارات اتخذت طابعا أشد وأقوى إبان عصر دولة المماليك الجراكسة ، واستطاع بنو الكنز فى نهاية القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، أن ينجحوا في العودة إلى أسوان .

ولاريب أن ضم مصر إلى حوزة الدولة الاسلامية ، عرض مدينة أسوان إلى اشتداد غزوات جارتها - من ناحية الجنوب - أعنى من جانب مملكة النوبة المسيحية . ومن المشاهد أن تلك المملكة لم تكن بقادرة على تسديد ضرباتها إلا عندما تحس بضعف مصر ، أما فى فترات قوتها ، فكانت تخلد إلى السكينة . وعلى الرغم من حملة عبدالله بن سعد بن أبى سرح على النوبة عام ٣١هـ ، انتهت بعقد معاهدة سلام بين مصر الإسلامية ومملكة النوبة المسيحية ، إلا أن الأخيرة لم تحترم شروط تلك المعاهدة ، فقامت بالإغارة على مصر فى أواخر الدولة الإخشيدية . وعندما قامت الدولة الأيوبية فى مصر ، فكر صلاح الدين الأيوبى فى ضرورة تأمين حدود مصر الجنوبية للتفرغ للجهاد ضد الصليبيين ، فأرسل حملة بقيادة أخيه تورانشاه عام ٥٦٩هـ (١١٧٣م) استطاعت التوغل فى بلاد النوبة ، والحقيقة التى خرجنا بها من تلك الحملة ، أنه مهما يقال من أن هدفها اختيار ملجأ أمين للأسرة الأيوبية إذا فكر نور الدين محمود فى طردها من مصر ، إلا أن من أهدافها الرئيسية تأمين حدود مصر من ناحية الجنوب، ومما يؤد ذلك أن النوبيين لم يهاجموا مصر بقية العهد الأيوبى .

وأدرك السلطان المملوكى الظاهر بيبرس بثاقب نظره ، خطر وجود مملكة النوبة المسيحية جنوب مصر ، وهو الحريص على تصفية الجيوب الصليبية فى الشام ، فأرسل حملة إلى بلاد النوبة عام ١٢٧٨م ، استطاعت أن تضم الجزء الشمالى منها . وقد حققت تلك الحملة مالم تستطع أن تحققه حملة أخرى منذ الفتح العربى لمصر ، إذ منذ ذلك الوقت لم تعد النوبة خطراً على أسوان ، حتى انتهى الأمر بسقوط مملكة النوبة المسيحية فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى .

أما شعوب البجة التى سكنت الصحراء الشرقية ، فلم يكترث لها العرب عقب فتحهم لمصر ، غير أن الأمر اختلف عندما شنوا غارتهم على أسوان عام ١٠٧هـ (٧٢٥م) . وإذا كان

العرب قد تمكنوا من صد تلك الغارة ، وعقدوا معهم اتفاقية ، إلا أنهم نقضوا ما تعهدوا به ، وعاودوا الإغارة مرة أخرى عام ٢٣٢هـ (٨٤٧م) . وفى عهد الخليفة العباسى المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ/ ٨٤٧-٨٦١م) . قام البجة بشن اغارات على حدود مصر الجنوبية ، مما أدى بالخليفة إلى إرسال حملة ضخمة تمكنت من هزيمتهم . ومنذ ذلك الحين لم نعد نسمع عن أية إغارة شنها البجة على أسوان . ومن العوامل التى أدت إلى وقف إغارات البجة تسرب القبائل العربية إلى أوطانهم ، ذلك التسرب الذى بلغ مداه - على ما يبدو - فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

ولبعد الشقة بين أسوان والقاهرة ، فان الأولى كانت خير ملاذ أمين للفارين من الضغط السياسي ، والمغامرين ذوى الشخصيات القوية مثل أبى عبد الرحمن العمرى . وفضلا عن ذلك ، فقد وقع نظر سلاطين دولة المماليك البحرية ، على اختيار تلك المدينة النائية منفى لكبار رجالات مصر المغضوب عليهم . أما فى أواخر دولة المماليك الجراكسة ، فلم تعد أسوان مكانا صالحا للنفى ، بسبب ما ألم بها من فوضى من جهة ، وخروجها عن يد السلطنة من جهة أخرى .

هذا فيما يتعلق بالدور الذى لعبته أسوان فى الأحداث السياسية لمصر فى العصور الوسطى. أما بالنسبة لأهميتها الاقتصادية ، فتنحصر - بشكل بارز- فى مجال التجارة . ومما لاشك فيه أن أسوان تعتبر أحد المنافذ الرئيسية لتجارة مصر الخارجية فى العصور الوسطى . هذا وإن كان بعض الباحثين قد ذكر أن تجارة مصر مع النوبة ، كان يقوم بها التجار النوبيون ، إلا أنى أثبت بالدليل القاطع فى ثنايا الفصل الثانى ، أن تجار أسوان كانوا يقومون برحلات تجارية إلى بلاد النوبة ، حاملين معهم السلع التى يحتاج إليها الأهالى هناك ، وفى عودتهم إلى أسوان يأتون معهم بسلع النوبة . ومما زاد فى أهمية أسوان التجارية ، أنها كانت - بحكم موقعها - ملتقى لطرق القوافل الآتية من بلاد النوبة والسودان من ناحية ، والصحراء الشرقية من ناحية أخرى . وإزاء ذلك يمكننا القول أن أسوان كانت مستودعا هائلا للسلع التجارية الواردة من تلك المناطق ، منها العاج ، والأبنوس ، والتمر الهندى ، وريش النعام ، والإبل ، والرقيق الأسود . وتعتبر أسوان أيضا ، أقدم محطة تجارية - فى مصر العصور الوسطى - ارتبطت بميناء عيذاب ارتباطا وثيقا ، بيد أن ذلك الارتباط قد خفت حدته بظهور النشاط التجارى لمدينة قوص ابتداء من القرن الخامس الهجرى .

ولم تكن أسوان أحد المنافذ الخارجية لتجارة مصر فى العصور الوسطى فحسب ، بل كانت أيضا سوقا ضخمة للتجارة الداخلية ، لعبت المواصلات الداخلية - النيل والطرق البرية الممهدة- دوراً كبيراً فى رواجها .

وإذا انتقلنا إلى الحياة العلمية والأدبية والثقافية فى أسوان العصور الوسطى ، فمن السهل علينا أن نلمس أنها كانت أحد مراكز النهضة فى مصر . فقد نبغ من أبنائها كثير من علماء مذاهب السنة ، والفقه ، والتصوف ، وعلم القراءة . كما برز منهم نخبة من العلماء ، ممن كانت لهم مكانة مرموقة فى الفلسفة ، والرياضة ، والموسيقى والطب ، والطبيعيات والإلهيات ، والمنطق ، وغير ذلك من العلوم التى كانت شائعة فى العصور الوسطى . وثمة حقيقة أوضحتها فى الفصل الثالث ، وهى أن أسوان كانت أحد المحطات الهامة التى ينفذ منها الحجيج إلى بيت الله الحرام ، عبر الصحراء الشرقية حيث ميناء عيذاب ، ومن ثم إلى جدة . وقد استخدم طريق أسوان - عيذاب مسلكا للحج منذ القرن الأول للهجرة ، وصار الطريق الوحيدة لمدة قرنين من الزمان من ٤٥٠هـ (١٠٥٢م) حتى ٦٦٦هـ (١٢٦٨م) عندما كسا الظاهر بيبرس الكعبة ، وأمر بتسيير قوافل الحج براً .

أما عن الحياة الأدبية فى أسوان ، فقد كانت حافلة بالشراء ، لاسيما فن الشعر ، إذ برع فيه العديد من أبناء أسوان . ومن المميزات التى انفردت بها الحياة الأدبية فيها ، أن كثيراً من أعضاء أسرة واحدة نبغوا فى قرظ الشعر ، مثل بنى عرام والأخوين الرشيد والمهذب . كذلك أنجبت أسوان مؤرخا ، كان له الفضل فى إلقاء بعض الضوء على تاريخ النوبة والبجة فى العصور الوسطى ، وهو عبدالله بن سليم الأسوانى ، الذى ألف كتابا سماه «أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل ومن عليه وقرب منه من غيرهم» . ومما يدعو للأسف أن ذلك الكتاب قد ضاع ، ولم يتبق منه سوى شذرات حفظها لنا المقريزى فى كتابه «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» .

ومن الحقائق التى أوضحتها ، أن أسوان كانت أحد المعابر الرئيسية الهامة ، التى نقلت الإسلام والثقافة العربية إلى السودان والصحراء الشرقية ، وبعبارة أخرى كانت تلك المدينة بمثابة عنق الزجاجة التى مرت منها القبائل والجماعات العربية خلال هجرتها إلى جنوب مصر ، وقد انطلق الإسلام والعروبة من أسوان بقوتين سارتا جنبا إلى جنب : القوة الأولى تتمثل فى الهجرات العربية ، والأخرى تتمثل فى التجارة . وفى ثنايا الفصل الثالث ، أوضحنا أن

القبائل العربية اندفعت إلى بلاد النوبة والبجة حاملة معها الدم العربى ، واللغة العربية ، والدين الإسلامى . أما التجارة فانها لعبت دوراً هاما فى نشر الإسلام والثقافة العربية فى تلك المناطق ، إذ لاجدال أن التجار كانوا خير دعاة لنشر رسالة الإسلام ، فى عصر لم يعرف الجمعيات والإرساليات التبشيرية التى عرفناها فى العصر الحديث .

هذا عن الحياة الأدبية والثقافية لأسوان فى العصور الوسطى ، أما عن البناء الاجتماعى لتلك المدينة ، فمن الملاحظ أن أجناسًا عديدة قد تلاقت على أرضها ، منها السامية ممثلة فى القبائل العربية بقسميها قحطان وعدنان . ومنها الشعوب الحامية مثل قبائل البجة التى تقطن الصحراء الشرقية . وقد أدى تسرب الدماء العربية لشعوب البجة ، إلى ظهور سلالات جديدة مثل قبائل البشارية والعبابدة .

وبالإضافة إلى ذلك ، شهدت أسوان أجناسًا أخرى أقل نقاوة من السابقة ، كالتكاررة (التكارنة) والعبيد . وفى أواخر العصور الوسطى أقامت فى أسوان عناصر سكانية أخرى ، مثل الاتراك ، والمماليك ، والمهاجرين من أهل الأندلس ممن شردهم المسيحيون .

وتدل شواهد القبور العديدة التى عثر عليها فى جبانة أسوان ، على أن قبائل عربية عديدة تتابعت هجرتها - منذ الفتح العربى - إلى أسوان . وهناك تطور اجتماعى أوجده هجرة تلك القبائل إلى أسوان ، ذلك أنه أورثها النظام القبلى الذى ما زال ضاربا بجذوره حتى وقتنا الحالى . ومن الواضح أن ما تميزت به تلك المدينة كبيئة منعزلة ، حافظ على بقاء الشكل القبلى فى مجتمعها .

تلك هى أبرز الحقائق التى تناولتها فى البحث ، نستدل منها على أن أسوان احتلت مكانة هامة فى تاريخ مصر العصور الوسطى . وكان من الممكن أن تظل تلك المكانة باقية ، لولا ما أحاط بها من أحداث فى أواخر العصور الوسطى . فقد عانت من هجمات بنى الكنز فى أواخر عصر دولة المماليك الجراكسة مما جعلها تدفع الثمن باهظا فى الأرواح والممتلكات ، وشملها الخراب حتى كادت أن تقفر من أهلها .

وفى زمن دولة المماليك الجراكسة أيضا ، انتهز العربان فرصة ضعف السلطة المركزية فى مصر ، فثاروا فى أنحاء الصعيد الأعلى ، وقطعوا طرق التجارة ، ونهبوا الأهالى وغدت أسوان مسرحا لبعثهم وفسادهم .

وقد أدى ضعف سلاطين المماليك الجراكسة ، إلى اضمحلال المكانة الاقتصادية لأسوان ، وزاد الطين بله أن أولئك السلاطين ساروا على سياسة الاحتكار ، مما أدى بالأوربيين إلى اكتشاف رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى ، من أجل الوصول إلى تجارة الهند والشرق الأقصى .

وقد كان من المحتمل أن تظل الحياة العلمية والأدبية والثقافية مزدهرة فى أسوان ، إلا أن الفوضى التى عمتها حالت دون ذلك ، وأدت إلى تدهور العلوم بها . وقد ذكر ابن حجر العسقلانى[١] أنه توجه إلى الصعيد الأعلى عام ٧٩٣هـ (١٣٩٠م) - خاصة قوص وغيرها - للاستفادة من علمائه ، غيرأنه لم يخرج بشئ ذى قيمة .

وعلى أية حال ، فان مدينة أسوان أواخر العصور الوسطى ، دخلت دور الذبول والركود ، واستمر الحال بها على ذلك الوضع ، حتى وقعت مصر تحت سيطرة الأتراك العثمانيين عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م) . وقد وصف الرحالة ستيفنز مدينة أسوان فى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادى بأنها مدينة صغيرة تقع على ضفة النيل ، وتكاد تختفى بين أشجار النخيل ، وخلفها بمسافة يوجد حكام المدينة القديمة على مرتفع من الأرض[٢] . وثمة صورة أخرى أعطاها لنا الرحالة محمد مجدى[٣] عن حالة أسوان فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، تكاد تطابق الصورة التى رسمها قبله مؤرخو العصور الوسطى كالمقريزى وابن حجر العسقلانى وابن إياس ، فقد قال عنها : « أغلب المنازل كئيبة المنظر مقبضة ، ليس فيها من فن العمارة أثر الذوق ... ولولا عمائر الحكومة ودوائرها الحديثة ، وبعض أماكن استجدت وأعدت لسكنى الأورباويين ... لكانت البلدة عبارة عن كفر ريفى غريب ! » . ويعود قائلا عنها : «كان لبطء سير حميرنا فضل فى جعلنا ندقق النظر ، ونكرر التأمل فى شوارع أو دروب تلك القرية (نسيت أنى كنت دعوتها كفيرى بمدينة) »[٤]. وما زالت أسوان على تلك الصورة المنفرة ، حتى كان بناء السد العالى ، فأعاد الحياة إلى شرايينها ، وجعلها محوراً لنشاط كبير ، ولكنه نشاط من نوع جديد يختلف عن النشاط الذى اتصفت به فى العصور الوسطى .

١- إنباء الغمر بأنباء العمر ، جـ١ ص٤١٩ .

2- Stephens , Incidents of Travel in Egypt, Arabia Petraea and the Holy Land , vol , I , p.97.

٣- رحلة مجدى أو ثمانية عشر يوما بصعيد مصر ، ص١٤١-١٤٢ .

٤- المرجع السابق ، ص١٤٢ .

قائمة المصادر والمراجع

- المصادر العربية المخطوطة .
- المصادر العربية المطبوعة .
- المراجع العربية الحديثة .
- المراجع الأجنبية .

(١) المصادر العربية المخطوطة :

ابراهيم الحنبلي : (عاش فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى)

شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢١ .

ابن أيبك الدواداري : (أبو بكر عبدالله ، ت بعد ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م)

كنز الدرر وجامع الغرر، أو الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٥٧٨ تاريخ .

ابن بهادر : (محمد بن محمد ، القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى)

فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر ، مخطوط ، جزءان ، بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦١٦٦ .

ابن حجر العسقلانى : (شهاب الدين أبو العباس أحمد ، ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)

رفع الإصر عن قضاة مصر ، مخطوط فى مجلد ، دار الكتب المصرية ، رقم ١٠٥ تاريخ .

ـــــــــ إنباء الغمر بأنباء العمر ، حققه الدكتور حسن حبشى حتى نهاية عام ٧٩٩هـ وبقية الكتاب مخطوط ، دار الكتب المصرية ، رقم ٢٤٧٦ تاريخ .

الخالدى : (بهاء الدين محمد بن لطف الله العمرى ، ت ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م)

المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشا ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٤٠٤٥ .

ساويرس بن المقفع : (ت أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى)

سير الآباء البطاركة ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، الجزء الثالث ، رقم ٦٤٣٤ ح

أبو صالح الأرمنى : (أرخ لعصر الخليفة المستنصر بالله الفاطمى)

تاريخ الشيخ أبى صالح الأرمنى، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ميكروفيلم رقم ٩٤٨ .

العينى : (بدر الدين محمود ت٨٥٥هـ / ١٤٥١م)

عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط مصور ٢٣ جزءا فى ٦٩ مجلدا ، دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ .

المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على ، ت ٨٥٤هـ / ١٤٤١م)

السلوك لمعرفة دول الملوك ، حققه الدكتور محمد مصطفى زيادة حتى نهاية عام ٧٥٥هـ ، وحقق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور بقية الكتاب .

ــــــ المقفى ، مخطوط مصور فى أربعة مجلدات ، دار الكتب المصرية .

النويرى : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، ت٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)

نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٤٩ معارف عامة .

(٢) المصادر العربية المطبوعة :

ابن الأثير : (على بن أحمد بن أبى الكرم ، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨م)

الكامل فى التاريخ ، ٩ أجزاء ، المكتبة التجارية بالقاهرة .

الإدريسى : (أبو عبد الله محمد بن محمد ، ت ٥٦٠هـ / ١١٦٤م)

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، ليون ١٨٦٦م .

الأدفوى : (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن على الأدفوى الشافعى ، ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م)

الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ، تحقيق د. سعد محمد حسن ، ومراجعة د. طه الحاجرى ، القاهرة ١٩٦٦م .

الاصطخرى : (أبو إسحق ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرخى ، ت فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى)

المسالك والممالك ، تحقيق د. محمد جابر الحينى ، القاهرة ١٩٦١م .

ابن إياس : (أبو البركات محمد بن أحمد ، ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م)

بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ١٣١١هـ ، جمعية الدراسات التاريخية بالقاهرة ١٩٥١م ، جمعية المستشرقين الألمان بالقاهرة ، تحقيق د. محمد مصطفى ١٩٦٠-١٩٦٣م .

ابن بطلان : (أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن سعدون الطبيب البغدادى ، ت بعد سنة ٤٤٩هـ / ١٠٥٧م) .

رسالة جامعة لفنون نافعة فى شرى الرقيق وتقليب العبيد ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ١٩٥٤م .

ابن بطوطة : (شرف الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله اللواتى الطنجى ، ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) مهذب رحلة ابن بطوطة ، جزءان ، القاهرة ١٩٣٤م .

البلاذرى : (أحمد بن يحيى بن جابر ، ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م)

فتوح البلدان ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦م .

البيرونى : (محمد بن أحمد ، ت ٤٣٠هـ / ١٠٢٨م)

الجماهر فى معرفة الجواهر ، حيدر آباد بالهند ، ١٣٥٥هـ.

التيفاشى : (ابو العباس احمد بن يوسف ، ت٦٥١هـ / ١٢٥٢م)

أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار ، فرنسا ١٨١٨م .

ابن جبير : (أبو الحسن محمد بن أحمد الكنانى الأندلسى ، ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م)

الرحلة ، سلسلة جب التذكارية ، ١٩٠٧م) .

ابن الجزرى : (شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد العمرى الدمشقى ، ت ٨٣٣هـ / ١٤٢٩م)

غاية النهاية فى طبقات القراء أو طبقات القراء ، القاهرة ١٣٥١-١٣٥٢هـ .

ابن الجيعان : (شرف الدين يحيى علم الدين شاكر بن المقر ، ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م)

التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، بولاق ١٣١٦هـ .

ابن حجر العسقلانى : (شهاب الدين أبو العباس أحمد ، ت٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)

الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، خمسة أجزاء القاهرة ١٩٦٩م

ـــــ إبناء الغمر بأنباء العمر ، الجزء الأول حتى نهاية عام ٧٩٩هـ ، حققه د. حسن حبشى ، القاهرة ١٩٦٩م .

ـــــ رفع الإصر عن قضاة مصر ، القسم الأول ، تحقيق د. حامد عبد المجيد ، القاهرة ١٩٦١م .

الحسن بن عبد الله (ت ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م)

آثار الأول فى ترتيب الدول ، القاهرة ١٣٠٥هـ .

الحميرى : (محمد بن عبد المنعم ، ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م)

الروض المعطار فى أخبار الأقطار ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ١٩٨٤م .

ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م)

العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء ، بولاق ١٣٨٤هـ ، طبيعة بيروت ١٩٨٨م .

ابن خلكان : (أبو العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر الشافعى ، ت ٦٨١هـ / ١٢٧١م)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، ٦ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٨ .

ابن دقماق : (ابراهيم بن محمد المصرى ، ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م)

الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، القاهرة ١٣٠٩ - ١٣١٠هـ .

ابن رسته : (أبو على أحمد بن محمد بن اسحاق ، ت ٢٩٥هـ / ٨٩٩م)

الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٩٨١-١٨٩٦م .

السبكى : (التاج السبكى عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى ، ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م)

طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود محمد الطناحى ، عبد الفتاح محمد الحلو ، ٦ أجزاء ، القاهرة ١٩٦٤-١٩٦٨م .

السخاوى : (الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م)

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ١٢ جزءا ، القاهرة ١٩٣٤-١٩٣٦م .

ـــــ التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، بولاق ١٨٩٦م .

ابن سمرة الجعدى : (عمر بن على أبى الخطاب ، ت بعد ٥٨٦هـ / ٧٠٥م)

طبقات فقهاء اليمن ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٧م .

السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر محمد ، ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)

بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، جزءان ، القاهرة ١٩٦٤م .

ـــــ حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٦٧م .

ابن شاكر الكتبى : (محمد بن شاكر احمد الكتبى ، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)

فوات الوفيات ، جزءان ، القاهرة ١٩٥١م .

أبو شامة : (عبد الرحمن بن اسماعيل بن عثمان ، ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) .

الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، جزءان ، القاهرة ١٢٨٧هـ .

ابن شاهين : (غرس الدين خليل الظاهرى ، ت ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م) .

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باريس ١٨٩١م .

ابن شداد : (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع ، ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م)

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م .

شيخ الربوة : (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى طالب الأنصارى الصوفى الدمشقى ، ت ٧١٧هـ / ١٣١٧م)

نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، بطرسبرج ١٢٨١هـ .

ابن الصيرفى :(على بن داود بن ابراهيم المعروف بالخطيب وابن الصيرفى ، ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م)

نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ أهل الزمان ، تحقيق د. حسن حبشى القاهرة ١٩٧٠م .

الطبرى : (أبو جعفر محمد بن جرير ، ت. ٣١٠هـ / ٩٢٢م) .

تاريخ الأمم والملوك ، ٨ أجزاء ، القاهرة ١٩٣٩م .

ابن ظهيرة : (أبو اسحاق برهان الدين ابراهيم بن على ، ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م)

الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ، تحقيق مصطفى السقا ، وكامل المهندس القاهرة ١٩٦٩م .

ابن عبد البر النمرى : (الحافظ يوسف ، ت٤٦٣هـ / ١٠٧٠م)

الانتقاء فى فضائل الثلاثة الفقهاء ، طبعة القدس بالقاهرة .

ابن عبد الحكم : (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن الحكم القرشى ، ت٢٥٧هـ / ٨٧٠م) فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦١م .

ابن عبد الظاهر : (محيى الدين ، ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)

تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق د. مراد كامل ، القاهرة ١٩٦١م.

ابن العبرى : (جريجوريوس أبى الفرج بن هارون الطبيب الملطى المعروف بابن العبرى ، ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)

تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠م .

العماد الأصفهانى : (العماد الكاتب محمد الأصفهانى ، ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)

خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء مصر ، تحقيق د. أحمد أمين ، د. شوقى ضيف ، د. إحسان عباس ، جزءان ، القاهرة ١٣٥١م .

ابن العماد الحنبلى :(أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد ، ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م)

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء ، القاهرة ١٣٥١هـ .

العمرى : (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى العمرى ، ت ٧٤٢هـ / ١٣٥٩م .

التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ١٣١٢هـ .

أبو الفدا : (الملك المؤيد اسماعيل صاحب حماه ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)

تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠م .

ابن الفرات : (محمد بن عبد الرحيم بن على بن الفرات المصرى الحنفى ، ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م)

تاريخ ابن الفرات ، تحقيق د. قسطنطين زريق ، جزءان ، بيروت ١٩٣٦-١٩٤٨م .

القرماني :(احمد بن يوسف الدمشقي ، ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م)

أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، بغداد ١٨٥٦م .

القلقشندي : (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي ، ت٨٢١هـ / ١٤١٨م)

صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ جزءا ، القاهرة ١٩١٣-١٩١٩م .

ابن كثير : (عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر الحافظ ، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)

البداية والنهاية ، ١٤ جزءا ، القاهرة ١٣٥٨هـ .

الكندي :(أبو عمرو محمد بن يوسف بن يعقوب ، ت ٣٥٠هـ / ٩٦١م)

الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٨م .

مجهول : (كاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي)

الاستبصار في عجائب الأمصار ، تحقيق د. سعد زغلول عبد الحميد .

أبو المحاسن :(جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ، ت ٨٧٤هـ ١٤٦٩م)

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية حتى نهاية الجزء الثاني عشر (٨٠٨هـ) ، وبعد ذلك طبعة كاليفورنيا ، نشر وليم بير ١٩٣١م .

ــــ حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، نشر وليم بير ، ٤ أجزاء ، كاليفورنيا ١٩٣٢م .

المسعودي : (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ، ت ٣٤٦هـ / ٩٩٧م)

التنبيه والإشراف ، بغداد ١٩٣٨م .

ــــ مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٦٤م .

مفضل بن أبي الفضائل : (ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م)

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، باريس ١٩١١ ، ١٩٢٠م.

المقريزي : (تقي الدين أحمد بن علي ، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)

إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق د. مصطفى زيادة ، د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٠م.

ــــ البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، مع دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل ، تحقيق وتأليف د. عبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٦١م .

ــــ التاريخ المقفى ، حقق نماذج منه د. خليل محمد عساكر ، د. مصطفى محمد مسعد ، القاهرة ١٩٦٤؛ المقفى الكبير ، تحقيق محمد اليعلاوي ، بيروت ١٩٩١م .

ـــــ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، الجزء الثانى ، تحقيق د. محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٩٧١م .

ـــــ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جزءان ، بولاق ١٢٧٠هـ .

ـــــ السلوك لمعرفة دول الملوك ، حققه د. مصطفى زيادة حتى نهاية عام ٧٥٥هـ ، وحقق د. سعيد عبد الفتاح عاشور بقية الكتاب .

المقدسى : (أبو عبد الله محمد بن أحمد البشارى ، ت ٣٨٨هـ / ٩٩٧م)

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦م .

ابن المقنع : (ساويرس بن المقنع أسقف الأشمونين ، ت أواخر القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى)

تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة ، بيروت ١٩٠٤، ١٩١٠م .

ابن مماتى : (الأسعد بن مماتى القاضى شرف الدين أبو المكارم ، ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م)

قوانين الدواوين ، تحقيق د. عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣م .

ابن ميسر : (محمد بن على بن يوسف بن جلبة ، ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م)

تاريخ مصر ، القاهرة ١٩١٩م .

ناصر خسرو : (ناصر علوى خسرو فارس ، ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م)

سفر نامة ، ترجمة د. يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ ، طبعة ١٩٩٣م .

ابن الوردى : (سراج الدين عمر بن مظفر بن حفص ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م)

تتمة المختصر أو تاريخ ابن الوردى ، القاهرة ١٢٨٥هـ .

ـــــ فريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ١٢٨٠هـ .

ياقوت الحموى : (شهاب الدين أبو عبد الله الرومى ، ت ٦٢١هـ / ١٢٢٨م)

معجم البلدان ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٩٠٦م .

ـــــ معجم الأدباء ، ٢٠جزءا ، طبعة أحمد فريد رفاعى ، القاهرة ١٩٣٦-١٩٣٨م .

اليعقوبى : (أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ، ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م)

البلدان ، ذيلا لكتاب الأعلاق النفيسة ، ليدن ١٧٩١م .

ـــــ تاريخ اليعقوبى ، ٣ أجزاء ، المكتبة المرتضوية بالنجف ١٣٥٨هـ .

(٣) المراجع العربية الحديثة :

ابراهيم على طرخان : (دكتور)

مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠م .

أحمد شلبى : (دكتور)

تاريخ التربية الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٦م .

أحمد فخرى : (دكتور)

الواحات المصرية فى التاريخ ، مجلة الجمعية التاريخية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو ١٩٥١م .

أحمد عيسى : (دكتور)

معجم الأطباء ، ذيل عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، القاهرة ١٩٤٢م .

آدم ميتز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة جزءان ، القاهرة ١٩٤٠-١٩٤١م .

اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، الجزء الثانى القاهرة ١٣١٢-١٣١٤م .

إلهام محمد ذهنى : (دكتورة)

مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، القاهرة ١٩٩٢م .

بتلر (الفرد) : فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٩٣٣م .

بوركهارت : رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان ، ترجمة فؤاد أندراوس ، القاهرة ١٩٥٩م .

توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، نقله إلى العربية د. حسن ابراهيم حسن ، د. عبد المجيد عابدين ، اسماعيل النحراوى ، القاهرة ١٩٤٧م .

جاستون ڤييت : المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ، ترجمة محمد وهبى ، القاهرة ١٩٣٧م .

جمال حمدان : (دكتور)

شخصية مصر ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٨١م .

جمال الدناصورى : (دكتور)

دراسات فى جغرافية مصر ، بالاشتراك مع آخرين ، القاهرة ١٩٥٧م .

جورج فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، نقله إلى العربية د. السيد يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٠م .

حسن ابراهيم حسن : (دكتور)

تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨م .

حسن احمد محمود : (دكتور)

الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية ، القاهرة ١٩٥٨م .

حسنين محمد ربيع : (دكتور)

النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، جامعة القاهرة ١٩٦٤م .

راشد البراوى : (دكتور)

حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٦٤م .

زكى محمد حسن : (دكتور)

كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٣٧م .

سامى جبرة : (دكتور)

وحدة وادى النيل عظة التاريخ القديم ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ديسمبر ١٩٥٠م .

سر الختم عثمان على : العلاقات بين مصر والسودان فى العصور الوسطى بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر ، رسالة ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٦٩م .

سعاد ماهر : (دكتورة)

محافظات الجمهورية العربية المتحدة فى العصر الاسلامى ، فصل من مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ٢١ ، العدد الأول ، مايو ١٩٥٩م .

سعد الخادم : الصناعات الشعبية فى مصر ، القاهرة ١٩٥٧م .

ــــــ : الفنون الشعبية فى النوبة ، القاهرة ١٩٦٦م .

سعيد عبد الفتاح عاشور : (دكتور)

مصر فى عهد المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩م .

ــــــ : الظاهر بيبرس ، القاهرة ١٩٦٣م .

ــــــ : المجتمع المصرى فى عصر المماليك ، القاهرة ١٩٦٢م.

ــــــ : الناصر صلاح الدين ، القاهرة ١٩٦٥م .

ــــــ : العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥م .

سليمان عطية سليمان : (دكتور)

سياسة المماليك فى البحر الأحمر حتى نهاية عصر السلطان برسباى ١٢٥٠-١٤٣٨م ، رسالة دكتوراه ، آداب القاهرة ، ١٩٥٩م.

السيد الباز العرينى : (دكتور)

مصر فى زمن الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠م .

سليم حسن : مصر القديمة ، الجزء العاشر ، القاهرة ١٩٥٥م .

سليمان حزين : (دكتور)

سكان مصر ، المجلة التاريخية ، مجلد رقم ١ ، القاهرة ١٩٤٨م .

ـــــ حضارة مصر أرض الكنانة ، القاهرة ١٩٩١م .

سيدة اسماعيل كاشف : (دكتورة)

أحمد بن طولون ، القاهرة ١٩٦٥م .

ـــــ مصر فى عصر الإخشيديين ، القاهرة ١٩٥٠م .

ـــــ مصر فى عصر الولاة ، القاهرة بدون تاريخ .

ـــــ مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٧م .

الشاطر بصيلى عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل ، القاهرة ١٩٥٥م .

صبحى لبيب : (دكتور)

التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، مجلة الجمعية التاريخية المجلد الرابع ، العدد الثانى ، مايو ١٩٥١م.

شكرى فيصل : (دكتور)

المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول الهجرى ، القاهرة ١٩٥٢م.

عباس عمار : (دكتور)

وحدة وادى النيل ، أسسها الجغرافية ومظاهرها فى التاريخ ، القاهرة ١٩٤٧ .

عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ، القاهرة بدون تاريخ .

عبد الرحمن عبد التواب : شواهد القبور فى جبانة أسوان ، حفريات فى المدة من ديسمبر ١٩٦٠ حتى منتصف عام ١٩٦٣م .

عبدالله خورشيد البرى : (دكتور)

القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، القاهرة ١٩٦٧م.

عبد المجيد عابدين : (دكتور)

تاريخ الثقافة العربية فى السودان منذ نشأتها إلى العصر الحديث ، القاهرة ١٩٥٣م .

—— بين الحبشة والعرب ، القاهرة بدون تاريخ .

عطية أحمد القوصى : (دكتور)

بنو الكنز ، دراسة تاريخية ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٠م .

—— تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، القاهرة ١٩٧٠م .

على بن حسين السليمان : (دكتور)

، علاقة مصر بالحجاز زمن سلاطين المماليك ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٠م.

على بهجت : قاموس الأمكنة والبقاع ، القاهرة ١٣٢٤هـ .

على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، ٢٠ جزءا فى أربع مجلدات ، بولاق ١٩٣١ .

عمر رضا كحالة : معجم القبائل العربية القديمة والحديثة ، دمشق ١٣٦٨هـ .

عمر طوسون : مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن ، الإسكندرية ١٩٣١م .

قسطنطين رزيق : (دكتور)

التجارة الإسلامية وأثرها فى الحضارة ، مجلة المقتطف ، ديسمبر ١٩٣٥م .

لين بول (ستانلى) : العرب فى أسبانيا ، ترجمه إلى العربية على الجارم ، القاهرة ١٩٦٤م.

محمد جمال الدين سرور (دكتور)

تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ، القاهرة ١٩٦٧م.

—— الدولة الفاطمية فى مصر ، القاهرة ١٩٦٦م.

—— دولة بنى قلاوون فى مصر ، القاهرة ١٩٤٧م.

—— الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، القاهرة ١٩٦٦م.

محمد حمدى المناوى : (دكتور)

نهر النيل فى المكتبة العربية ، القاهرة ١٩٦٦م.

محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، قسمان فى أربعة أجزاء ، دار الكتب المصرية ١٩٦٣م.

محمد رياض : (دكتور)

العبابدة ، محاضرة ألقيت بالجمعية الجغرافية فى ٢٦-٤-١٩٦١م .

محمد صفى الدين أبو العز : (دكتور)

مرفولوجية الأراضي المصرية ، القاهرة ١٩٦٦م .

محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٩م.

محمد عوض محمد : (دكتور)

السودان الشمالية ، سكانه وقبائله ، القاهرة ١٩٥١م.

ـــــ نهر النيل ، القاهرة ١٩٦٢م.

ـــــ الشعوب والسلالات الافريقية ، القاهرة ١٩٦٥م.

محمد كامل حسين : (دكتور)

في أدب مصر الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٠م.

ـــــ أدبنا العربي في عصر الولاة ، القاهرة ١٩٦١م.

ـــــ التشيع في الشعر المصري في عصر الأيوبيين والمماليك ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد الخامس عشر ، الجزء الأول ١٩٥٣م.

محمد لبيب البتنوني : الرحلة الحجازية ، القاهرة ١٣٢٧هـ .

محمد مجدي : رحلة مجدي أو ثمانية عشر يوما بصعيد مصر سنة ١٣١٠هـ ، القاهرة ١٣١٩هـ .

محمد مختار : التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية ، القاهرة ١٣١١هـ .

محمد يحيى الهاشمي : (دكتور)

الزمرد في مصر ، مقالة في مجلة الكتاب ، يوليو ١٩٥١م.

محمود محمد الحويري : (دكتور)

العادل الأيوبي ، صفحة من تاريخ الدولة الأيوبية ، القاهرة ١٩٧٩م.

مصطفى محمد مسعد : (دكتور)

الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٠م.

ـــــ البجة والعرب في العصور الوسطى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة . ١٩٦٣م.

مكي شبيكة : (دكتور)

السودان عبر القرون ، بيروت ١٩٦٥م.

نسيم مقار : (دكتور)

الرحالة في السودان في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، الرحالة بالم ، القاهرة ١٩٦١م.

نظير حسان سعداوى : (دكتور)

نظام البريد فى الدولة الاسلامية ، القاهرة ١٩٥٣م.

نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٩٠٤م.

نعيم زكى سليمان : (دكتور)

طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى ، رسالة دكتوراه ، آداب القاهرة ١٩٦٨م.

وهيب كامل : (دكتور)

استرابون فى مصر ، القاهرة ١٩٤٧م.

يوسف فضل حسن : (دكتور)

المعالم الرئيسية فى الهجرة العربية إلى السودان ، مجلة الجمعية التاريخية ، مجلد رقم ١٣ ، ١٩٦٧م.

دائرة المعارف الاسلامية.

محافظة أسوان : كتيب أصدرته وزارة الإرشاد القومى .

مصلحة البريد : تاريخ البريد فى مصر ، القاهرة ١٩٣٤م.

(٤) المراجع الأجنبية :

Abd Al - Rahman Abd Al - Tawab :

Steles Islamiques de la Necropole d`Assouan , revision et annotation de Solonge Ory , 3 Vol . (le Caire, 1977, 1982, 1986).

Adler (E.N.) :

Jewish Travellers . (London, 1930).

Amelineau :

La Geographie de l`Egypte a` l`Epoque Copte . (Le Cairo , 1893).

Arkell (A.J.) :

A History of the Sudan from the earliest times to 1821. (London , 1955).

Beeker (V.H.) :

Ency . of Islam . Art . Aidhab , Bakt .

Bent (J. Theodore):

Visit to Northern Sudan . (J.R.A.S. London, 1896).

Bloss (J.F.E):

Relics of Ancient gold miners . Sudan Notes and Records . vol . XX, 1937 .

Browne (W.G.) :

Travels in Africa , Egypt , and Syria , from the year 1792 to 1798 . (London, 1799).

Buhl :

Ency . of Islam . Art Medinata .

Charlesworth (M.R.)):

Trade - Routes and Commerce of the Roman Empire . (London , 1924).

Combes (E):

Voyage en Egyptect en Nubid . Tom. I. (Paris , 1846).

De Villard (Mouneret):

La Musulmana di Aswan . (Cairo, 1830).

Darrag (Ahmed):

L` Egypte Sous la Re`gne de Barsbay . (Damas , 1961).

Hassan El - Hawary :

Trois Minarets Fatimides a` la Frontiere Nubienne .

Bulletin de L` Institute Egyptienne . 4 Mars, 1939. T. XVII.

Heyd (W.):

Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age . 2 Vols (Leipzig , 1923).

Hillelson (S.):

Ency . of Islam . Art . Nuba .

Huart :

Histoire des Arabes . T.2. (Paris , 1913).

Kirwan (L.P.):

Studies in the later History of Nubia . Liverpool Annals of Archaeology and Anthro-

poplogy , vol ., XXIV .

Klunzinger (C.B.):

Upper Egypt : its people and its products . (London, 1878).

Lane - poole (S.):

A History of Egypt in the Middle Ages . (London, 1901).

Longfield (col . W.E.):

The Growth of Sudan Communication . Anglo Egyptian Sudan from within , ed . Hamilion . (London , 1935).

Mac Michael (H.A.):

Nubian elements in Darfur .

Sudan Notes and Records . vol . I, 1918 .

= A History of the Arabs in the Sudan , vol . I. (London , 1922) .

= "The Coming of the Arabs to Sudan " , Anglo Egyptian Sudan from within ., ed . Hamilton . (London , 1935).

Marlowe (John):

Four Aspects of Egypt . (London , 1966).

Newbold (D.):

"The Bega Tribes of the Red Sea Hinterland " , Anglo Egyptian Sudan from within ., ed . Hamilton . (London , 1935).

Quatremere (E.):

Histoire des Sultans Mamlouks . 2 vols . (Paris , 1937).

Sanders (G.E.R.):

The Bisharian . Sudan Notes and Records , vol , VII , 1929.

Shaw (W.B.K.):

Darb el Arbain . Sudan Notes and Records ., vol . XII, 1929.

Stephens (John L.):

Islam in the Sudan - (London, 1949).

Vollers (K.):

Ency . of Islam. Art . Ababde.

Wallis Budge (E.A.):

Texts relating to Saint Mena of Egypt , , an Canons of Nicae in Nubian Dialect . . (London, 1909).

Wiet (Gaston):

Memoires sur l`Egypte , Annee 1791.

= L`Egypte Arabe de la Conquete Arabe . G. Hanotaux) , Histoire de la Nation Egyptionne . vol . IV. (Paris , 1937).

Catalogue general du Musee Arabe du caire . Steles Funeraires . vol II (1936)' V (1937) ; VII (1940) .'

VIII (1941), IX (1941) ' X (1942) . vol I. (1932)' III (1939) par Hassan Hawary et Hussein Rached .

=Precis de L` Histoire d`Egypte par divers historiens et archeologues . Ton II. (Cairo, 1932).

Yusuf Fadl Hasan :

The Arabs and the Sudan . (London, 1950).

Zaki Hassan :

Les Tulunides . (Paris, 1933).

Ziyada (Mohamed Mustafa):

Foreign Relations of Egypt in the fifteenth century (1422-1517) . vol . I. (liverpool, 1930).

Encyclopaedia Brittanica - Art , Aswan .

Cambridge Medieval History , vol . 4.

The Oxford Classical Dictionary .

محتويات الكتاب

رقم الإيداع ٩٦/١١٦٧٨

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 5487 - 55 - 2

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ – ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار – باب اللوق

أسوان

فاضل

في العصور الوسطى





للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES